

غيوم ميسو

بعد 7 سنوات...

رواية

غيوم ميسو

بعد 7 سنوات...

رواية

ترجمة: محمد التهامي العماري

سما للنشر

المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للرواية:

7 ans après...

By: Guillaume Musso

الكتاب

بعد 7 سنوات. . .

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الأولى، 2015

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-780-3

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الجزء الأول

على سطحٍ في بروكلين

«لكي يسوق المرء سيارته على غير هدى، ينبغي أن يكون بمفرده.
أما إذا كان برفقته شخص آخر، فلا بدّ من أن يقصدا مكاناً ما».

ألفريد هيتشكوك، **فيرتيغو**

1

كانت كامي تراقب الشحرور الذي حطّ على حافة النافذة وهي متكوّمة تحت الغطاء. رياح الخريف تُحدث حفيفاً عند احتكاكها بالنافذة، وأشعة الشمس تتراقص بين أوراق الشجر، ناشرة ألقها البرونزي على جدران الظلّة الزجاجية. وإذا كان المطر قد هطل طوال الليل، فالسماء الآن زرقاء صافية، تعِد بيوم جميل من أيام شهر أكتوبر.

رفع كلب صيد قشدي اللون رابضٍ أسفل السرير رأسه وراح يتشمّمها، فدعته وهي تربت على وسادتها وتقول:

- تعال يا بوك، تعال يا كلبي الجميل!

قام الكلب فوراً، ولحق بصاحبته بقفزة واحدة لينال حصته الصباحية من العناق. مضَت تلاطفه وتداعب رأسه المدوّر وأذنيه المتدليّتين قبل أن تحثّ نفسها على القيام قائلة:

- هيّا، قومي يا صغيرتي!

نزعت نفسها مُكرَهة من السرير الدافئ، وارتدت في لمح البصر بذلة وحذاء رياضيين، ثم ربطت جدائل شعرها الأشقر خلف رأسها. خاطبت بوك وهي تنزل جارية السلم الذي يقود إلى الصالون:

- هيا يا بوك، تحرّك، سنركض.

كان النور الطبيعي يغمر طوابق المنزل الثلاثة المطلّة على باحة واسعة. إنّه منزل أنيق مشيّد بالحجر البنيّ، تملكه عائلة لارابي منذ ثلاثة أجيال. وهو مكوّن من ثلاثة أدوار، ذو فضاء داخلي حديث، وغرف مفتوحة، وجدران مزينة بلوحات رسامين أمثال مارك شاغال وتامارا دو لامبيكا وجورج براك تعود إلى العشرينيات. ورغم تلك اللوحات، فإن جانب الاقتصاد في الديكور يذكّر بإقامات سوهو وتريبيكا أكثر مما يوحي بإقامات آبر إيست سايد الممْعِنة في المحافظة.

صاحت كامي لمّا بلغت المطبخ:

- هل أنت هنا يا بابا؟

سكبت كأس ماء بارد وهي تنظر حواليها. كان أبوها قد تناول فطوره. رأت على الكونتوار اللامع فنجاناً نصف فارغ وبقايا خبز بجوار نسخة من ستراد وأخرى من وول ستريت جورنال، الجريدة التي اعتاد سبستيان لارابي تصفّحها كلّ صباح أثناء احتساء قهوته.

أصاخت السمع، فسمعت صوت الرشاش في الطابق العلوي. يبدو أن أباها ما زال في الحمام.

- مهلاً!

ضربت بوك ضربة خفيفة وأغلقت باب البراد حتى تمنع الكلب من الإمساك بنصف دجاجة مشوية.

- ستأكل لاحقاً أيّها الشره!

خرجت إلى الشارع وقد وضعت سماعتين في أذنيها، وانطلقت تعدو بخطوات صغيرة.

يقع منزل عائلة لارابي بين ماديسون وبارك أفنيو بمحاذاة الشارع الرابع والسبعين، في شارع جانبي بديع، تحفّ به الأشجار. كان

الحي مفعماً بالحركة رغم الصباح الباكر. تمرق سيارات الأجرة وسيارات الليموزين أمام الفنادق الخاصة والبنايات الفاخرة. ويتحرّك البوابون بهمّة فيما يشبه رقصة باليه مذهلة: يوقفون سيارات الأجرة الصفراء، ويفتحون الأبواب ويشحنون الأمتعة في الصناديق.

بلغت كامي الشارع الخامس وهي تركض ببطء، واجتازت ممرّ ميليونارز مايل، طريق المليارديرات، المحاذي لسانترال بارك، والذي يضم أرقى متاحف المدينة: الميت وجوجنهايم ونيو غاليري...

عندما بلغت مضمار الركض قالت لكلبها وهي تحثّ الخطى:

- هيّا يا كلبي الجميل، ما أعذب الراحة بعد الجهد!

خرج سبستيان لارابي من الحمّام بمجرّد تأكّده من خروج ابنته، ودخل إلى غرفتها ليقوم بتفتيشه الأسبوعي المعتاد. دأب على ذلك منذ بلغت البنت سنّ البلوغ. كان واجماً ومكدّر المزاج. فقد أحسّ منذ بضعة أسابيع بأنّ كامي صارت أكثر تكتّماً، ولم تعد تهتمّ بدروسها وبالعزف على الكمان.

جال ببصره في الغرفة: غرفة واسعة بألوان فاتحة توحي بالراحة والشاعرية. ستائر النوافذ شفافة تتلألأ تحت أشعة الشمس، وعلى السرير الواسع وسادات ملونة ولحاف مكوّم.

أزاح سبستيان اللحاف بحركة آلية وجلس على السرير. تناول الهاتف الذكي الموضوع على المنضدة وركّب دون تورّع أرقام الرمز السري التي التقطها خلسة بينما كانت ابنته ذات يوم تستعمل هاتفها أمامه من دون حيطة. انفتح الجهاز، فشعر بدفقة من الأدرينالين تغمره.

كان في كلّ مرّة يجازف باقتحام حياة كامي الخاصة، يتوجّس ممّا قد يكتشف.

لم يعثر على شيء حتّى ذلك اليوم، ومع ذلك يواصل البحث...

تفحّص آخر المكالمات، ما أجرته منها وما استقبلته. كان يعرف كلّ الأرقام: أرقام صديقاتها في ثانوية القديس يوحنا المعمدان، ورقم الأستاذة التي تلقّنها الكمان وشريكتها في التنس...

لا أثر للأولاد. لا وجود لدخيل. لا شيء يتهدّدها إذن، وهو ما يبعث على الارتياح.

استعرض ما التقطته من صور مؤخراً. لا شيء فيها ينذر بخطر: صور التقطت في عيد ميلاد الصغيرة ماكنزي، بنت العمدة، رفيقة كامي في المدرسة. وإمعاناً في التحرّي، كبّر الصور ليتأكد من أن القناني لا تحتوي على كحول. كانت قناني كوكا وعصائر فواكه.

واصل استقصاءه بالاطلاع على الرسائل الإلكترونية والرسائل النصية القصيرة وكذا قائمة مواقع الإنترنت التي زارتها. كلّ الاتصالات معروفة لديه، ومضمون المحادثات لا خطر فيه. وهو ما خفّف قليلاً من قلقه.

وضع الهاتف ثمّ راح يتفحّص الأشياء والأوراق الموجودة على المكتب. كان ثمّة حاسوب بارز، لكنّه لم يولِه أيّ اهتمام. فقد سبق أن ثبّت فيه قبل ستة أشهر برنامج تجسّس يمكّنه من التوصّل بتقرير شامل عن المواقع التي ترتادها كامي، وكذا بنسخة من بريدها الإلكتروني دردشاتها. لم يكن يعلم أحد بهذا الأمر طبعاً. فقد يعرّضه ذلك للإدانة، وقد يتسبّب في اتّهامه بأنّه أب متعسّف، لكن

سبستيان لم يكن يأبه لذلك. فواجبه الأبوي يملي عليه أن يستبق المخاطر التي قد تحدق بابنته، وأن يبعدها. وفي سبيل ذلك تبرّر الغاية الوسيلة.

ألقى نظرة من النافذة خوفاً من عودة كامي، ثمّ واصل تفتيشه. التفّ على رأس السرير ليصل إلى مكان تغيير الملابس. هناك فتح كلّ الخزانات، وفتّش تحت الملابس. قطّب حين رأى صداراً على دمية خشبية لعرض الملابس، وقدّر أنه أكبر من سنّها. فتح باب خزنة الأحذية، فاكتشف حذاء ستيوارت ويتزمان جديد، مصنوعاً من الجلد الملمّع، وعالي الكعب. نظر بقلق إلى حذاء ابنته الخفيف، رمز توقها -الذي يؤذيه- في الخروج من الشرنقة قبل الأوان. أعاد الحذاء إلى مكانه بعصبية قبل أن يلاحظ حقيبة تسوّق أنيقة بلون وردي وأسود، مزيّنة بعلامة متجر ألبسة داخلية شهير. فتحها بتوجّس، فعثر فيها على مجموعة ساتان مكوّنة من حمالة صدر وتبان بالتخاريم.

قال بغضب وهو يرمي الحقيبة داخل الخزانة: هذا كثير! صفق باب الخزانة بعصبية وقد صمّم على أن يلحق بكامي، ويعبّر لها عن امتعاضه ممّا قامت به، لكنّه، ومن دون أن يعرف السبب، دخل الحمام. وبينما كان يفتش بعناية حقيبة أدوات الاستحمام، عثر على لوحة أقراص كتبت عليها مجموعة أرقام تشير إلى ترتيب تناول الأقراص. كان أحد صفّي اللوحة قد استهلك. شعر بيديه ترتعشان، وتحوّل غضبه إلى جزع: ابنته ذات الخمس عشرة سنة تتناول أقراص منع الحمل.

2

- هيّا يا بوك، لنعد إلى البيت!

بعد دورتين، أخذ الكلب يلهث متشوّقاً للارتماء في بركة الماء الكبيرة الموجودة خلف الشباك الحديد. حثّت كامي الخطى، وأنهت جولتها بالعدو السريع. كانت تقصد هذا المكان، وسط سانترال بارك، ثلاث مرّات في الأسبوع لكي تركض حول الرزيرفوار (الخزان) مسافة كيلومترين ونصف حفاظاً على رشاقتها.

بعد الفراغ من الرّكض تستريح قليلاً واضعة يديها على ردفيها، ثمّ تستأنف الركض نحو ماديسون، شاقّة طريقها وسط الدراجات والرولرز وعربات الأطفال.

هتفت وهي تفتح باب المنزل:

- هل من أحد في البيت؟

ارتقت الأدراج ثلاثاً ثلاثاً متوجهة إلى غرفتها دون انتظار الجواب.

غمغمت وهي تغتسل تحت الرشاش: ينبغي أن أسرع وإلا فسأتأخّر. اغتسلت بالصابون وتنشّفت وتعطّرت، ثمّ وقفت أمام الخزانة لاختيار ما سترتدي.

هذه هي أهم لحظة في اليوم...

كانت الثانوية التي تدرس بها، ثانوية يوحنا المعمدان العليا، مؤسّسة كاثوليكية للبنات. وهي مدرسة النخبة، تستقبل أبناء الأسر النيويوركية الثرية، وتحكمها قواعد صارمة، إذ تفرض على تلامذتها ارتداء لباس موحّد: تنورة بالبنصات وبلايزر يحمل شارة، وقميص أبيض وعصابة رأس. إنّها صرامة أنيقة ومتشدّدة كانت تسمح لحسن الحظ باختيار بعض الأكسسوارات الجريئة. وضعت كامي ربطة عنق بعقدة ضخمة حول عنقها، ودهنت شفتيها بأصبعها بقليل من أحمر الشفاه بلون التوت البري.

وحتى لا تفقد مظهرها كتلميذة مدرسة خاصة، تأبطت حقيبة يد وردية فاتحة كانت قد تلقتها هدية بمناسبة عيد ميلادها.

بادرت أباها وهي تجلس حول المائدة التي تتوسط المطبخ:

- صباح الخير يا بابا!

لم يردّ الأب على تحيّتها. تفرّسته. كان أنيقاً ببذلته الداكنة المفصلة على الطراز الإيطالي. كانت هي من أشارت عليه بشراء هذا الموديل: سترة منخفضة الكتفين، ضيقة عند الخصر، ينسدل ثوبها على نحو بديع. كان يجلس بلا حراك أمام النافذة الزجاجية، ويبدو قلقاً ومستغرقاً في أفكاره.

سألته كامي بقلق:

- أأنت بخير؟ هل تريد أن أحضّر لك قهوة أخرى؟

- كلا.

فردّت بنبرة لامبالية:

- حسناً!

كانت تفوح في المطبخ رائحة خبز محمّص. سكبت المراهقة لنفسها كأس عصير برتقال، وفتحت منديلها فسقطت منه. . . لوحة الأقراص.

سألت بصوت متهدّج:
- هل يمكن أن تشرح لي...
فردّ الأب مؤنّباً:
- أنتِ من ينبغي أن تشرحي لي...
فقالت بسخط:
- هل فتّشت في أغراضي؟
- من فضلك لا تغيّري الموضوع! ماذا تفعل أقراص منع الحمل في حقيبتك؟
فقالت محتجّة:
- هذه حياتي الخاصة.
- ليست لصبيّة في سنّك حياة خاصة.
- ليس من حقّك أن تتجسس عليّ.
تقدّم سبستيان منها وهو يشير إليها بسبابته مهدّداً.
- إنّني أبوك: ولديّ كلّ الحقوق عليك!
- لكن خفّف مراقبتك قليلاً، فأنت تراقب كل شيء: أصدقائي وخرجاتي وبريدي وما أشاهد من أفلام وأقرأ من كتب...
- اسمعي، إنّني أسهر على تربيتك بمفردي منذ سبع سنوات و...
- لأنّك اخترت ذلك!
فقد السيطرة على نفسه، فأهوى بقبضته على المائدة.
- أجيبي عن سؤالي: مع مَن تنامين؟
- لا يهمّك، لست ملزمة بطلب إذنك! إنّها ليست حياتك، وأنا لم أعد طفلة!
- ما زلت أصغر من أن تكون لك علاقات جنسية. أنت لا

تَعِيْن خطورة ما تفعلين، ماذا تريدين؟ أن تدمّري حياتك قبل مباراة تشايكوفسكي بأيام؟

- لقد تعبتُ من الكمان! وتعبت من هذه المباراة! لن أتقدّم لها! هل يرضيك هذا؟

- أنت تختارين الطريق السهل بالطبع. عوض أن تشتغلي عشر ساعات في اليوم حتى يكون لك حظّ في التميّز، تفضّلين شراء ملابس الإغراء وحذاء يكلّف ما يعادل الناتج الوطني الإجمالي لدولة بوراندي.

صاحت به:

- كفّ عن ملاحقتي!

- وأنت كفّي عن هذا اللباس الداعر.

ثم أضاف بنبرة عالية وقد فقد هدوءه:

- يخيّل لمن يراك أنّه يرى أمّك...

فاجأتها نبرته العنيفة، فردّت:

- أنت مريض قذر!

كانت هذه العبارة بمثابة النقطة التي أفاضت الكأس. رفع يده وسدّد لها لطمة على وجهها أفقدتها التوازن وجعلت الكرسي الذي تجلس عليه يترنّح، فسقطت على الأرض.

وقفت مصعوقة، وظلت متسمّرة في مكانها للحظة، مشدوهة ممّا وقع. تناولت حقيبتها وقد صمّمت على ألا تبقى مع أبيها. حاول سبستيان أن يستبقيها، لكنها أزاحته وغادرت البيت من دون حتى أن تغلق الباب خلفها.

3

درجت السيارة ذات النوافذ الغامقة في جادّة ليكسينغتون ثمّ التحقت بالشارع الثالث والسبعين. خفض سبستيان واقية الشمس ليتجنب الوهج. كان الجوّ جميلاً في هذا اليوم الخريفي من سنة 2012 على نحو غير معهود. كان لا يزال يشعر بالحيرة، مصدوماً من المشادّة التي نشبت بينه وبين ابنته. إنّها المرة الأولى التي يرفع فيها يده عليها. ندم على اللطمة التي وجّهها لها. هو يدرك مقدار ما شعرت به من إهانة، لكن تصرّفه العنيف كان متناسباً مع ما أحسّ به من إحباط.

هو لا يطيق أن تكون لابنته حياة جنسية. فهي لا تزال صغيرة. ثمّ إن هذا سيعصف بكل المشاريع التي هيأ لها: الكمان والدراسة والمهن التي تصوّرها لها. لقد خطط لكل شيء وضبط كلّ شيء. ولا يمكن أن يكون غير ما خطط له...

أخذ نفساً عميقاً لكي يهدئ نفسه، ونظر من خلال زجاج النافذة، فوجد العزاء في منظر الخريف. كانت أرصفة آبر إيست سايد في هذا الصباح مكسوّة بأوراق الأشجار الزاهية الألوان. كان سبستيان متعلّقاً بهذا الحي الأرستقراطي الذي يأوي الطبقة النيويوركية الراقية. كل شيء في هذه المنطقة المنعزلة بسيط ويدعو

للسكينة. إنها أشبه بفقاعة تحمي المرء من الصخب والجلبة.

بلغ الشارع الخامس، فهبط نزولاً نحو الجنوب بمحاذاة سانترال بارك وهو مستغرق في تأملاته. لعلّه كان أباً متملّكاً، لكن، أليست تلك طريقة -رغم أنها خرقاء- للتعبير عن حبّه لابنته؟ أما كان عليه أن يبحث ربّما عن توازن بين واجب حمايتها وتوقها للاستقلال؟ ظنّ لبرهة أنّ الأمر بسيط، وأنه لن يلبث أن يتغيّر، لكنه تذكّر لوحة الأقراص، فتلاشت كلّ الحلول.

ربّى ابنته بمفرده منذ أن انفصل عن زوجته. وكان فخوراً بأنّه وفّر لها كلّ ما تحتاج إليه: الحبّ والعناية والتربية. كانت نظرته إليها تجمع بين اليقظة والتقدير. هو دائم الحضور في حياتها، يؤدّي دوره بجدّية مفرطة، ويواظب يوميّاً على تتبع كلّ ما يتعلق بها: مراقبة واجباتها المدرسية ودروس الكمان وحصص الفروسية. من المؤكّد أنّه أغفل أشياء وارتكب أخطاء، لكنه لم يكن يدّخر جهداً. ففي زمن الميوعة هذا، حاول أن يلقّنها على الخصوص قيماً. وقاها من الرفقة السيّئة، ومن الوضاعة والاستهتار والرداءة. وقد ظلّت العلاقة بينهما متينة وقائمة على الألفة لسنوات، إذ كانت كامي تحكي له كل ما يتعلّق بها، وتستشيره في كلّ أمورها. كانت فخر حياته: مراهقة ذكيّة ومرهفة، مجتهدة وبارزة في المدرسة. كانت تعِد بمستقبل زاهر في العزف على الكمان. على أنّ الشجارات بينهما صارت تتكرّر منذ بضعة شهور، وصار عليه أن يعترف بشعوره المتزايد بأنه لم يعد قادراً على مصاحبتها في هذا العبور الخطير الذي يقود من شطّ الطفولة إلى ضفة الرشد.

بوّق سائق سيارة أجرة منبّهاً إيّاه إلى أن إشارة الضوء قد انتقلت من الأحمر إلى الأخضر. أصدر سبستيان تنهيدة عميقة. لم يعُد يفهم الناس، ولا سيما الشباب. لم يعد يفهم عصره. كلّ شيء صار يخيفه ويدعوه إلى اليأس. إنّ العالم على حافة الهاوية، والخطر ماثل في كلّ مكان.

من المؤكّد أنّ على المرء أن يعيش زمنه، أن يواجه ولا يستسلم، لكن الناس لم يعودوا يثقون في شيء. امّحت المعالم وزالت المثل وتعدّدت الأزمات: الأزمة الاقتصادية والأزمة الإيكولوجية والأزمة الاجتماعية. النظام يُحتضر والمسؤولون ألقوا السلاح: الساسة والآباء والمدرسون.

إنّ ما يجري له مع كامي يضع كل مبادئه موضع تساؤل، ويعمّق شعوره بالقلق.

انكفأ على نفسه، وخلق عالماً على مقاسه. صار لا يغادر حيَّه إلا نادراً، وبدرجة أقل منهاتن.

غدا ميله، وهو صانع آلات موسيقية، إلى الانعزال في مصنعه يزداد أكثر فأكثر. يقضي أياماً كاملة في تشكيل آلاته وتقطيعها، وضبط رناتها ونغماتها، ليجعل منها قطعاً فريدة تعود عليه بالفخر. وقد كانت لمصنعه تمثيليات في أوروبا وآسيا، وإن كانت قدمه لم تطأها قط. أما عن علاقاته، فكانت تقتصر على حلقة ضيقة من المعارف، من الذين يشتغلون بالموسيقى الكلاسيكية على الخصوص، أو أبناء بعض الأسر البرجوازية التي تعيش بآبر إيست سايد منذ عقود.

نظر إلى ساعته، وضغط على دوّاس السرعة. لمّا بلغ غراند أرمي بلازا، تجاوز الواجهة الرمادية الفاتحة لفندق سافوني القديم،

وشقّ طريقه بين سيارات وعربات خيول تنقل السياح، لكي يصل إلى كارنيجي هال. ركن سيارته في المرآب التحت أرضي، قبالة قاعة الحفلات الأسطورية، واستقلّ المصعد ليلتحق بمصنعه.

مقاولة لارابي آند سان أسّسها جده أندزو لارابي نهاية العشرينيات. ومع مرور الزمن، اكتسب المتجر المتواضع شهرة عالمية، ليصير شهيراً في مجال صنع الآلات الموسيقية وإصلاح القديمة منها.

ساوره شعور بالارتياح بمجرد دخوله إلى المصنع. كل شيء هنا يدعو إلى الطمأنينة والهدوء. يبدو كما لو أنّ الزمن توقّف. تتمازج روائح خشب القيقب والصفصاف والتنوب بروائح طلاء التلميع والمحاليل النّفاذة.

كان يعشق جوّ هذه الصناعة اليدوية القديمة المتميّزة. فقد بلغت مدرسة كريمون بصناعة الآلات الموسيقية في القرن الثامن عشر أوج إتقانها. وبذلك لم تتغيّر تقنياتها منذئذٍ. ففي عالم دائم التغيّر، يكتسي هذا الثبات طابعاً مطمئناً.

كان صانعو الآلات الموسيقية والصّبيَة يشتغلون فوق طاولة المصنع على مختلف الآلات. حيّا سبستيان رئيس مصنعه جوزيف، الذي كان يسوي ملاوي إحدى آلات الكمان. قال وهو ينفض الغبار العالق بوزرته الجلدية:

- لقد اتّصلوا من فارازيو بخصوص بيرغونزي. لقد قُدّمت جلسة البيع بيومين.

ردّ سبستيان بسخط:

- إنهم يبالغون! قد يتعذّر علينا احترام المواعيد.

- على فكرة، هم يرغبون في أن تمنحهم شهادة التصديق اليوم، أهذا ممكن؟

لم يكن سبستيان صانع آلات موسيقية موهوباً فحسب، بل كان خبيراً لامعاً أيضاً.

كانت جلسة البيع هذه هي أهم جلسة في السنة، ومن ثمة لا مندوحة من المشاركة فيها.

- ينبغي أن أنهي ملاحظاتي وأحرّر التقرير. وإذا بدأت الآن، قد نسلّمه لهم قبل نهاية هذا اليوم.

- حسناً، سأخبرهم بذلك.

ذهب سبستيان إلى حجرة استقبال واسعة ذات جدران مكسوّة بمخمل أرجواني. كانت آلات الكمان الخمسين المعلقة في السقف تضفي على هذه الغرفة طابعاً فريداً. لقد استقبلت عازفين كباراً، وفدوا من مختلف بقاع العالم لاقتناء آلاتهم الموسيقية أو إصلاحها.

جلس سبستيان إلى طاولة العمل، ولبس نظارات رقيقة قبل أن يتناول الآلة التي كان عليه إجراء خبرته عليها. إنها قطعة نادرة، في ملكية كارلوا بيرغونزي، أكثر تلامذة ستراديفاري موهبة. ورغم أنّها تعود إلى سنة 1720، إلا أنها كانت محفوظة على نحو عجيب. وقد قرّرت دار فارازيو، المتخصصة في البيع بالمزاد، أن تحصل منها على مليون دولار خلال جلسة البيع الخريفية المرتقبة.

كان سبستيان، الخبير ذي الشهرة العالمية، حريصاً على ألّا يعتور خبرته في تظاهرة بهذا الحجم أي خطأ في التقدير. كان عارفاً، على غرار خبراء الخمور أو العطور، بخصائص كل مدرسة من مدارس صناعة الآلات الموسيقية، كمدرسة كريمونا والبندقية

وباريس وميركور. . . لكن رغم كل هذه التجربة، فمن الصعب التصديق بدقة على أصالة قطعة من القطع، ومن ثمّة فقد كان يخاطر بسمعته في كل خبرة جديدة.

ثبّت سبستيان الكمان بين عرقوبه وذقنه بعناية، ثمّ رفع القوس وراح يعزف النوتات الأولى لقطعة موسيقية قديمة لباخ. كانت النغمة رائعة، على الأقلّ إلى أن انقطع أحد الأوتار فجأة، ولسعه كما لو كان قطعة مطاط. وضع الآلة من ألم اللسعة. لقد انعكست عصبيته وتوتره في عزفه. إنه يجد صعوبة في التركيز، ذلك أنّ ما حدث في الصباح عكّر مزاجه. ما زال عتاب كامي يتردّد بداخله. كان عليه أن يقبل بأن في كلامها نصيب من الصحة. لقد تمادى هذه المرّة كثيراً. وكان يدرك أنّ عليه، من شدة خوفه من فقدها، أن يفتح معها الحوار في أقرب وقت، لكنه كان واثقاً من أن الأمر ليس سهلاً. نظر إلى ساعته، ثمّ أخرج هاتفه النقال. لم تكن الدروس قد بدأت بعد. تمنّى لو يوفقه الحظّ في الاتصال بها. حاول، لكنّه لم يجد غير المجيب الآلي. . .

لا داعي للحلم. . .

هو مقتنع الآن بأنّ المواجهة لن تجديَ نفعاً. عليه أن يرخي العنان، ظاهرياً على الأقل. وللقيام بذلك، هو بحاجة إلى حليف، إلى شخص يساعده على استعادة ثقة كامي. فإذا ما استعاد تلك الثقة، حاول أن يوضّح لها الأمر، وأن يعيدها إلى جادة الصواب. ولكن من سيساعده في ذلك؟

قلّب الأمر من كلّ وجوهه، واستعرض كل الخيارات: الأصدقاء؟ صحيح أن لديه «معارف»، لكن لا أحد منهم مقرّب بما فيه الكفاية، وذو مصداقية بحيث يفاتحه في موضوع بهذا القدر من

الحميمية. فأبوه مات في السنة الماضية، بينما أمّه أبعد ما تكون عن نموذج المرأة المتفتّحة. وماذا عن صديقته ناتاليا؟ هي الآن في مهمة بلوس أنجلس مع فرقة بالي نيويورك. تبقى إذن نيكي، والدة كامي...

4

نيكي...

كلا، هذا ليس حلاً جادّاً. فهما لم يتبادلا كلمة واحدة منذ سبع سنوات. ثمّ إنه يفضّل الموت على أن يلجأ إلى نيكي نيكوفسكي طالباً المساعدة! وبإنعام النظر، قد تكون هي من سمحت لكامي بتناول أقراص منع الحمل! إنها تشبهها على كل حال... فنيكي تعدّ من أنصار التحلل الأخلاقي ودعاة مبادئ التقدمية المائعة: منح الأطفال كامل الحرية والثقة العمياء فيهم، والإعراض عن معاقبتهم، وإلغاء كل أشكال السلطة، والتسامح معهم تسامحاً بلا حدود. باختصار، إعطاؤهم حرية مطلقة على نحو ساذج وغير واعٍ.

تأمل الأمر لحظة: ألا تكون كامي تطلب المشورة من أمها عوض أن تطلبها منه؟ حتى وإن تعلق الأمر بموضوع بالغ الحميمية كوسائل منع الحمل، فقد بدا له ذلك غير محتمل. فنيكي وابنتها لم تكونا تلتقيان إلا نادراً. ثمّ إن نيكي ظلّت دائماً -عن قصد أو عن غير قصد- بعيدة عن تربية كامي.

كلّما تذكّر طليقته، إلّا وشعر بمزيج من المرارة والغضب. لكنّه غضب من نفسه، بما أن فشل علاقتهما كان يبدو حتمياً. فقد كان

ذلك الزواج أكبر غلطة ارتكبها في حياته، أفقدته أحلامه وسكينته وبهجة حياته.

ما كان ينبغي أن يلتقيا، وأن يتحابا. لا شيء يجمع بينهما: لا الانتماء الاجتماعي ولا التربية ولا حتى العقيدة. طبعاهما ومزاجاهما كانا على طرفي نقيض، ومع ذلك تحابّا!

حطّت نيكي بنيويورك قادمة من نيوجرسي، مسقط رأسها، وبدأت حياتها المهنية عارضة أزياء وكلها أمل في أن تحصل على أدوار في كوميديات موسيقية بـ«برودواي». كانت تنفق كل ما تحصل عليه من مال، وتعيش حياة طائشة لامبالية.

كانت ذكية ومتفتحة وغاوية، تعرف كيف تتسلل إلى القلوب وكيف تستغل مفاتنها لبلوغ أهدافها. لكنها كانت تعيش حياة خليعة، مدمنة على الملذات والشهوات. كانت دائمة اللعب بالنار، بحيث لم تكن تشعر بوجودها إلا من خلال نظرة الرجال إليها. كما كانت مستعدّة إلى المضي بعيداً من أجل أن تتثبّت من قدرتها على الإغواء.

كانت على النقيض تماماً من سبستيان. كان هو كتوماً ومتحفِّظاً، ذا تربية برجوازية نخبوية، يحسب لكل شيء حسابه مقدّماً، يعيش حياة منظمة، ويتعلّق بمشاريع مستقبلية.

لم يتوانَ والداه وأصدقاؤه في تحذيره، مثيرين انتباهه إلى أن نيكي ليست المرأة التي تناسبه، لكنه عاند. كانت تشدّ كل منهما إلى الآخر قوة لا تقاوم. انساقا معاً مع الأسطورة الشعبية الساذجة التي تقول بـ«تجاذب المتنافرين».

آمنا بحظهما، وتزوجا بناء على نزوة، وفي غضون ذلك حبلت نيكي وأنجبت توأماً: كامي وجيريمي. كانت نيكي تبحث عن

الاستقرار والأمومة بعد أن عاشت طفولة مضطربة. أما هو، الذي تلقى تربية محافظة، فتوهّم أنه عثر في هذه العلاقة على مهرب من استبداد أسرته. وهكذا عاشا معاً هذا الحب كتحدّ، منتشيين بخرق المحظور، لكن العاقبة كانت وخيمة. فالاختلافات التي جعلت لعلاقتهما نكهة في البداية، تحوّلت بسرعة إلى نكد وشجارات لا تنتهي.

حتى بعد ميلاد التوأم، لم ينجحا في التوافق على رصيد من القيم كفيل بأن يسمح لهما بالتقدّم في الحياة. وعوض أن تؤدي حاجتهما إلى قاعدة أخلاقية يربيان عليها مولوديهما إلى التقريب بينهما، أججت خلافاتهما وصراعاتهما. كانت نيكي تميل إلى نمط من التربية يعطي الأولوية للحرية والاستقلال، وهو ما لم يوافقها عليه سبستيان. كان يرى في هذا النوع من التربية خطورة. حاول أن يقنعها بأن القواعد الصارمة وحدها هي التي تفيد في بناء شخصية الطفل. وبلغ الخلاف بينهما إلى درجة صار معها التوافق بينهما مستحيلاً. وتمسّك كل طرف برأيه. هذه هي طبيعة البشر. من الصعب تغيير طبائعهم، وإبطال الأسس التي قامت عليها شخصياتهم.

وانتهى بهما الأمر إلى الطلاق بعد مرحلة صعبة عاشها سبستيان كخيانة. أما نيكي فتجاوزت حدود طاقتها. كانت تشعر بأن هذه العلاقة مدمِّرة، وأن عليها أن تسارع إلى إنهائها.

استعان سبستيان بمحام متخصص في شؤون الطلاق وحقوق الأسرة لكي ينقذ طفليه من الضياع، ويحصل على حق حضانتهما. جرجر هذا المحامي الشهير نيكي في المحاكم لإجبارها على التخلي عن حقوق الأمومة، لكن الأمور بدت أصعب مما تصوّر. وانتهى

الأمر بسبستيان إلى أن اقترح تسوية خاصة على زوجته: أن يتخلى لها عن حضانة جيريمي مقابل الاحتفاظ بكامي. وقد قبلت العرض مخافة أن تفقد كل شيء إن هي دخلت معركة قضائية.

منذ سن السابعة إذن وكامي وجيريمي يعيشان في منزلين منفصلين، تحت رعاية راشدين ربّياهما تربية متناقضة تماماً. كانت الزيارات بينهما نادرة ومقنّنة بشكل صارم. لم تكن كامي تزور أمّها إلا يوم الأحد مرّة كل أسبوعين، وهو الوقت الذي كان يستقبل فيه سبستيان جيريمي.

وإذا كان زواجه من نيكي بمثابة تجربة مريرة، فإنه نسي هذه المرحلة منذ زمن بعيد. ذلك أنّه توفق مع مرور السنين في إعادة تنظيم حياته. وصارت نيكي ذكرى بعيدة، لم تكن تصله عنها إلا أخبار نادرة بواسطة كامي. لم يحالفها النجاح في مسيرتها كعارضة. أما مسيرتها كممثلة، فلم تشرع قط. وحسبما بلغه من آخر أخبارها، أنها تخلّت عن حصص التصوير وتجارب (الكاستنغ)، وكذا عن أحلامها كممثلة في المسرح، لتتحوّل إلى الرسم. صحيح أنّ لوحاتها كانت تعرض أحياناً في أروقة بروكلين، لكن شهرتها ظلّت محدودة. أما عن الرجال، فكانوا يتعاقبون في حياتها. لم تكن تعاشر الرجال نفسهم، ولم تكن تنتقي أطيبهم. كانت تتمتّع بموهبة خاصة في إغواء أولئك الذين يعذّبونها، من يعرفون نقط ضعفها، ويحسنون استغلالها، لكن مع تقدمها في السن، بدت كما لو أنّها تتوق إلى استقرار عاطفي. وحسب أقوال كامي، فهي مرتبطة منذ بضعة أشهر بأحد أفراد شرطة نيويورك. رجل يكبرها بعشر سنوات طبعاً. لا شيء بسيط في حياة نيكي.

رنّ جرس الهاتف فأخرج سبستيان من استغراقه. نظر في الشاشة، فاتّسعت حدقتاه: راعه ظهور اسم نيكي نيكوفسكي. عادت به الذاكرة إلى الوراء. لقد انقطع الاتصال بينهما تقريباً. في السنة التي تلت طلاقهما، كانا يلتقيان في لحظات «تبادل الابنين»، لكن العلاقة بينهما تقلّصت اليوم بحيث لم تعُد تتعدّى تبادل بعض الرسائل النصية القصيرة لتنسيق زيارات الطفلين النصف شهرية. ما كان لنيكي أن تتّصل لولا وقوع أمر خطير.

فتح الخط وسأل:

- نيكي؟

- صباح الخير يا سبستيان.

لمس القلق في صوتها.

- ما الأمر؟

- اتّصلت بك بخصوص جيريمي. هل لديك أخبار عنه في الأيام الأخيرة؟

- كلا، لماذا؟

- بدأ يساورني القلق. لست أعلم أين هو.

- كيف؟!

- لم يذهب إلى الثانوية الأمس واليوم، وهاتفه المحمول لا يجيب، كما أنه لم يبت في البيت منذ...

قاطعها قائلاً:

- أتمزحين؟ أبات خارج البيت؟

لم تجِب على الفور. توقّعت نوبة من نوبات غضبه وعتابه. لكنّها انتهت بأنْ أسرّت له بما وقع.

انقطعت أنفاسه، وتشنّجت يده على الهاتف.

- أأخبرت الشرطة؟

- لا أظنّ أن إخبار الشرطة فكرة حكيمة.

- لماذا؟

- تعال وسأشرح لك.

قال وهو يغلق الخط:

- أنا آتٍ توّاً.

5

عثر سبستيان على مكان يركن فيه سيارته عند تقاطع فان برونت وسوليفان ستريت. تطلّب منه الوصول إلى بروكلين خمساً وأربعين دقيقة بسبب الازدحام.

استقرّت نيكي مع جيريمي منذ طلاقهما بغرب ساوث بروكلين، بحي ريد هوك، معقل عمال الموانئ وعصابات المافيا. وهي منطقة عانت طويلاً من انعدام الأمن بسبب عزلتها وضعف خدمات النقل العمومي. لكنّه ماضٍ ولّى. فحيّ ريد هوك لم يعد اليوم منطقة هامشية خطيرة كما كان في سنوات الثمانينيات والتسعينيات. صار، على غرار أمكنة كثيرة في بروكلين، منطقة تعرف تحولات كثيرة، يرتادها كثير من الفنانين والمبدعين.

لم يكن سبستيان يزور هذا المكان إلا لماماً، لكي يوصل كامي أحياناً أيام السبت، لكنه لم يدخل قطّ شقّة طليقته. وكان كلما زار الحي إلا وعجب من سرعة التغيرات التي تطرأ عليه. كانت أروقة الفن ومطاعم البيو المتنامية تحلّ محلّ المستودعات المتهدمة والأحواض.

أقفل سيارته ومشى في الشارع إلى أن بلغ واجهة مصنع قديم مبني بالطوب جرى تخويله إلى مساكن. دخل البناية الصغيرة وصعد الأدراج مثنى مثنى إلى أن بلغ الطابق الأخير. كانت نيكي بانتظاره

عند عتبة باب معدني متين مضادّ للحرائق. كان بمثابة باب للشقة.

- صباح الخير يا سبستيان.

تأمّلها وقد سيطر على انفعالاته. لقد حافظت على قوامها الرياضي الرشيق: كتفان واسعان وخصر ضامر وساقان طويلان وردفان عاليان وبارزان.

كان وجهها لا يزال حسناً على نحو لا يخطئه النظر: وجنتان ناتئتان وأنف حاد ونظرة ساحرة. لكنها كانت تبدي ميلاً لإخفاء هذا الجمال بالتظاهر بإهماله. كان شعرها المصبوغ بالأحمر مضفوراً في جديلتين تشدّهما إلى الأعلى كعيكة. وكانت عيناها اللوزيتان الزرقاوان مكحّلتين على نحو مبالغ فيه، وجسدها المتعرّش مختفٍ في سروال فضفاض، وصدرها المشدود في تي شورت ضيق سافر على نحو مغال.

بادرها وهو يدخل إلى الشقة من دون انتظار دعوتها:

- مرحباً نيكي.

لم يستطع تمالك نفسه من تفحص المكان بفضول. كان المصنع القديم يتوفر على دور علوي يشهد على ماضيه الصناعي: أرض مكشوطة وباهتة، عوارض ظاهرة ، هيكل وأعمدة من حديد، جدران من الطوب القديم، أفاريز من الخرسانة الرمادية. كانت تلوح في كل أرجاء الشقة لوحات رسمتها نيكي حديثاً، مسنّدة إلى الجدران لكي تنشف.

بدا له الديكور طريفاً، مكوّن من قطع غير متجانسة لعلّها اقتنيت من سوق الخردة، تمتدّ من أريكة شيسترفيلد إلى طاولة صالون مؤلفة من باب ضخم صدئ موضوع على حاملين. كان مجموع هذه القطع يخضع ولا شك لمنطق جمالي، لكنّه لم يستطع إدراك كنهه.

قال بنبرة حاسمة:

- حسناً، ماذا وقع؟

- لقد شرحت لك ما وقع. انقطعت عنّي أخبار جيريمي منذ صباح يوم السبت.

- منذ صباح السبت؟ لكننا في يوم الثلاثاء!

- أعلم.

- كان يلزم أن تنتظري حتى اليوم لتقلقي؟!

- اتّصلت بك لكي تساعدني لا لكي ترهقني بعتابك.

- لكن، في أيّ عالم تعيشين؟ أتدركين كم هي حظوظك في العثور على صبي مضت ثمانٍ وأربعون ساعة على اختفائه؟

ندّت عنها صرخة مخنوقة، وأمسكت بتلابيبه بعنف لكي تدفعه إلى الخارج.

- إنْ كنت أتيت لعتابي، فاغرب عنّي! اذهب إلى حال سبيلك!

قاوم وقد فاجأته حركاتها العنيفة، ونجح في الإمساك بيديها وشلّ حركتها.

- لماذا لم تتّصلي بي قبل الآن!

حدّقت في عينيه. التمع في نظرتها بريق يشهد على التحدّي.

- لو كنت تبدي قليلاً من الاهتمام بابنك، لما تردّدت في إخبارك.

تقبّل سبستيان نقدها، وقال بصوت هادئ:

- سنعثر على جيريمي، ولكن عليك أن تقصّي عليّ كل شيء من البداية حتى النهاية.

نظرت إليه بحذرٍ لثوانٍ قبل أن تقول:

- اجلس، سأحضّر القهوة.

6

- رأيت جيريمي لآخر مرّة صباح يوم السبت حوالي الساعة العاشرة، قبيل ذهابه إلى نادي الملاكمة.

كانت نيكي تتكلّم بصوت كدّره القلق. قطّب سبستيان وقال:

- منذ متى وهو يمارس الملاكمة؟

- منذ أكثر من سنة.

وتراءت له صورة جيريمي مراهقاً مفتول العضلات. لم يكن سهلاً عليه أن يتصوّر ابنه على حلبة ملاكمة.

استطردت تقول:

- تناولنا الفطور معاً، ثمّ هيّأنا أغراضنا. كنت مستعجلة. كان لورونزو ينتظرني في الأسفل لأنّنا كنّا ذاهبين إلى كاتسكيلز و. . .

- لورونزو؟!

- لورونزو سانتوس، عشيري.

- الشرطي أم شخص آخر؟

ردّت بغضب:

- اللعنة! عمّ تبحث؟

اعتذر بحركة من يده، فاسترسلت تقول:

- قبيل مغادرة البيت، طلب منّي جيريمي الإذن بأن يمضي

الليلة مع صديقه سيمون، فوافقت. هما متعوّدان على المبيت معاً في بيتنا أو في بيت صديقه ليلة السبت من كلّ أسبوع.

- هذا هو الخبر الأوّل.

استرسلت تقول:

- قبّلني وانصرف، ولم يطلعني على أخباره طيلة عطلة نهاية الأسبوع، لكنّني لم أقلق عليه.

- كيف لم تقلقي عليه، فهو ما زال. . .

- هو في الخامسة عشرة من عمره. لم يعد طفلاً. ثمّ إن سيمون راشد تقريباً.

رفع عينيه إلى السماء، لكنّه امتنع عن التعليق.

- عدتُ إلى بروكلين مساء يوم الأحد، وبما أنّ الوقت كان متأخراً، أمضيت الليلة مع سانتوس.

ألقى عليها سبستيان نظرة فاترة قبل أن يسأل:

- وصباح الاثنين؟

- قمت بزيارة خاطفة للمنزل حوالي التاسعة صباحاً. في هذه الساعة يكون عادة في المدرسة. كان طبيعياً ألا أجده في البيت.

فقال بنفاد صبر:

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- اشتغلت طيلة اليوم في معرض اللوحات الذي أقيمه في «بواك»، وهي بناية تقع قرب الرصيف الذي يستضيف عدداً من الفنانين. . .

- حسناً يا نيكي، اذهبي رأسا إلى صلب الموضوع، ووفّري عليّ التفاصيل!

- في فترة الظهيرة وجدت على المجيب الآلي رسالة من الثانوية يخبرونني فيها بأنّ جيريمي لم يحضر الدروس.

- هل اتّصلت بوالدَي صديقه؟

- أجابتني أمّه مساء الأمس. قالت لي إنّ ابنها سافر في رحلة دراسية منذ بضعة أيام. وهو ما يعني أن جيريمي لم يقضِ معه ليلة السبت.

اهتزّ الهاتف النقال في جيب سبستيان. نظر إلى الشاشة: إنهم عاملو فارازيو. لعلّهم يستعجلون الخبرة التي ينبغي أن يجريها على كمانهم.

- حينها بدأت أشعر بالخوف حقّاً. هممتُ بالتوجه إلى مفوضية الشرطة، لكنّني... لم أكن متيقّنة من أنّ رجال الشرطة سيأخذون كلامي على محمل الجدّ.

- لماذا؟

- لأكون معك صادقة، ليست هذه هي أوّل ليلة يقضيها جيريمي خارج البيت...

تنهّد سبستيان. لقد صعقه ما سمع. وواصلت نيكي:

- في شهر أغسطس الماضي، تغيّب جيريمي ليومين عن البيت من دون أن أعلم عنه شيئاً. كنت في حالة من الاضطراب يرثى لها. اتّصلت بشرطة بوشويك، وأخبرتهم باختفائه، لكنّه عاد في اليوم الثالث. كان قد ذهب في جولة على الأقدام بحديقة أديرونداك.

فقال سبستيان بسخط:

- يا له من مغفّل!

- تصوّر ماذا كان ردّ فعل الشرطة، راحوا يوبّخونني ويعاتبونني على أنّني أضعت وقتهم، وأنّني عاجزة عن رعاية ابني.

توضّح المشهد لسبستيان. أغلق عينيه وفرك جفنيه وقال:

- هذه المرّة، أنا من سيتّصل بهم، لكن من دون وساطة أحد المعاونين. فأنا أعرف العمدة. ابنته تدرس مع كامي في القسم نفسه، وسبق أن أصلحتُ كمان زوجته. سأطلب منه أن يتوسّط لي لدى...

- مهلاً، فأنت لم تطّلع بعدُ على الحكاية بكاملها.

- ماذا أيضاً؟

- لقد صادف جيريمي بعض المشاكل. لديه سوابق قضائية.

مضى ينظر إليها مذهولاً وهو لا يكاد يصدق.

- أتمزحين؟ لماذا لم تخبريني بذلك؟

- ارتكب بعض الحماقات مؤخّراً.

- أيّ نوع من الحماقات؟

- قبضت عليه إحدى دوريات الشرطة منذ ستة أشهر متلبّساً بالخربشة على هيكل شاحنة بمرآب إيكيا.

رشفت من قهوتها، وحركّت رأسها بكيفية تدلّ على الفزع.

- كما لو أنّ هؤلاء المغفلين لا شغل لهم سوى مطاردة الأطفال الذين يهوون الفن!

جفل سبستيان. أتعدّ الخربشات فنّاً؟ ما أغرب نظرة نيكي إلى الأمور!

- أمَثُل أمام المحكمة؟

- نعم، وحكمت عليه بعشرة أيّام من الأشغال ذات النفع

العام. لكنّهم أوقفوه مرّة ثانية منذ ثلاثة أشهر بتهمة السرقة بأحد المتاجر.

- ماذا سرق؟

- همّ بسرقة لعبة فيديو. لماذا تسأل؟ لعلّك تفضّل لو أنه همّ باختلاس كتاب؟

تجاهل سبستيان المناوشة. سيكون الحكم الثاني قاسياً. ففي ظلّ سياسة الحزم مع هذا النوع من الجرائم، قد تقود هذه التهمة ابنه إلى السجن.

قالت نيكي مطمئنة:

- هرعت إلى المتجر وحاولت ثنيهم عن تقديم شكاية في الموضوع.

- يا إلهي! ماذا يدور برأس هذا الغلام؟

فقالت مهدّئة:

- لا تهوّل الأمور. جميع الناس سرقوا مرّة واحدة في حياتهم على الأقل. هذا شيء طبيعي في مرحلة المراهقة...

فقاطعها سبستيان غاضباً:

- السرقة أمر طبيعي؟!

- إنّها جزء من الحياة. لمّا كنت صغيرة، كنت أسرق الملابس الداخلية والثياب والعطور. وإذا كنت تذكر، فقد التقينا إثر إحدى سرقاتي تلك.

قال سبستيان في نفسه: **إنها واقعة لا يسعد المرء بذكراها.**

قام من مكانه وحاول أن يستوضح. أيدعو الأمر فعلاً إلى القلق؟ لا سيما إذا كان جيريمي معتاداً على هذا النوع من الغيبة عن البيت...

قالت نيكي بفزع كما لو أنّها خمّنت ما يجول بذهنه:

- أنا واثقة من خطورة الأمر هذه المرّة يا سبستيان. لقد لاحظ جيريمي في المرّة الفارطة مقدار انزعاجي، فوعدني بأن يمدّني بأخباره إن تأخر.

- ماذا تريدينني أن أفعل على وجه التحديد؟

- لست أدري. اتّصلت بمصالح الطوارئ في المستشفيات، و...

- ألم تعثري على شيء مثير للارتياب لمّا فتشت غرفته؟

- ماذا تقصد بتفتيش غرفته؟

- هل فتّشت الغرفة أم لم تفتشيها؟

- كلا، إنّها حديقته السريّة... إنّها...

قال بغضب وهو يتوجّه صوب السلم الحديد الذي يقود إلى الطابق الأعلى.

- حديقته السرية؟! ولكنه اختفى منذ ثلاثة أيّام يا نيكي!

7

- لمّا كنت مراهقة، كنت لا أطيق أن تتدخل أمّي في شؤوني.

رغم قلقها، كانت نيكي تمقت التجسس على حياة ابنها الحميمية.

- أتفتّش أنت غرفة كامي؟

أجاب سبستيان بلامبالاة:

- مرّة في الأسبوع.

- أنت تواجه مشكلة كبيرة حقّاً...

قال في نفسه خلسة وقد شرع في تفتيش غرفة جيريمي: ربّما، ولكن كامي على الأقل لم تختفِ.

كانت أبعاد الغرفة كبيرة، تتناسب مع هندسة المصنع الغريبة. كانت تخيّم عليها فوضى مرحة: علّقت على الجدار ملصقات أفلام شهيرة مثل عودة إلى المستقبل، ومناورات، والمغامرة الداخلية، وترون. وقرب الجدار وُضعت درّاجة ثابتة، وفي ركن من أركان الغرفة وضعت منصّة لألعاب الفليبير تعود لسنوات الثمانينيات. وفي سلة المهملات تكوّمت علب قطع الدجاج المتبّل والبيتزا وعلب الريد بول.

صاح سبستيان:

- يا لها من فوضى عارمة! هل يرتّب غرفته أحياناً؟
حدجته نيكي بنظرة ثاقبة. توقّفت قليلاً، ثمّ انهمكت في العمل.
فتحت خزانة الملابس ولاحظت:
- يبدو أنّه أخذ معه حقيبته.

دنا سبستيان من المكتب فلاحت له ثلاث شاشات كبيرة موضوعة على شكل قوس وموصولة بحاسوبين، وأبعد منها قليلاً رأى طقماً كاملاً من تجهيزات الديدجي: لوحات البلاتين ولوحة ميكساج وحوامل ومكبّر صوت. وهي كلّها تجهيزات احترافية.

من أين يأتي بالمال لشراء كلّ هذا؟

فتّش الرفوف. كانت تنوء بما تحمله من قصص مصوّرة: باتمان، سوبرمان، كيك-آس، إكس-مان. فتّش بريبة آخر كتاب في المجموعة. إنّه قصّة من قصص سبايدرمان للكاتب بيتر باركر تتحدّث عن مراهقين أفرو-أميركيين ناطقين بالإسبانية. «الزمن تبدّل» كما تقول أغنية ديلان...

عثر في رفوف أخرى على عدد من الكتب التي تتعلق بلعبة البوكر، وكذا على حقيبة ألمنيوم صغيرة تحوي عشرة صفوف من رقائق سيراميك، ومجموعتيْ أوراق لعب.

- أهذه غرفة صبيّ أم محلّ قمار؟!
قالت نيكي مدافعة عن نفسها:
- لست أنا من اشتريت له هذه الحقيبة. لكنّني علمت أنه يلعب البوكر هذه الأيام.
- مع مَن؟
- مع أصدقائه في المدرسة، فيما أظنّ.
جفل سبستيان. فهو لا يطيق هذه الأشياء.

شعر بالارتياح لمّا لاحظ بأنّ الرفوف لم تكن تخلو من كتب «محترمة»: **سيد الخواتم، الكئيب، آلة السفر في الزمن الماضي، بلايد رانر، دورة التأسيس...**

عثر أيضاً بجانب هذه الأشياء على عشرات من كتب تعليم كتابة السيناريو وسير شخصيات أمثال ستانلي كوبريك وكوينتان تارانتينو وكريستوفر نولان وألفريد هتشكوك.

سأل نيكي متعجّباً:

- أيهتمّ بالسينما؟!

- بالطبع. هو يحلم أن يصير مخرجاً. ألم يطلعك على ما صوّره من أفلام هاوية؟ أنت لا تعلم حتّى أنه يملك جهاز كاميرا. أليس كذلك؟

- لا علم لي بذلك.

أقرّ بحزن أنه لا يعرف ابنه، وهذا لا يرجع لقلّة لقائه به، بل لكون علاقتهما في السنوات الأخيرة تحوّلت إلى حوار طرشان. حتّى الصراع اختفى بينهما، كلّ ما بقي هي اللامبالاة. فبعدما اعتبر أن جيريمي لم يكن الولد الذي يتمنّى، لشبهه الشديد بأمّه، أهمل نموّه ودراسته وطموحاته. تخلّى عنه تدريجيّاً من دون أيّ شعور بالذنب.

قالت نيكي بقلق وهي تفتّش في أدراج المكتب:

- لم أعثر على جواز سفره أيضاً.

نقر سبستيان وهو شارد على زرّ «الدخول» بلوحة مفاتيح الحاسوب. كان جيريمي شغوفاً بلعب الأدوار على الشبكة العنكبوتية. استنارت الشاشة، وطلب النظام إدخال كلمة السرّ.

قالت له نيكي محاولة تثبيط عزيمته:

- لا تتعب نفسك. هو مهووس بحماية حاسوبه، ويعرف في مجال الكمبيوتر أكثر مما نعرف أنا وأنت بعشر مرّات.

سيحرمهما عجزهما من دخول الحاسوب للأسف من مصدر مهم للمعلومات. امتثل سبستيان لنصيحة طليقته وأعرض عن الدخول إلى الجهاز، لكنه لمح قرصاً خارجياً موصولاً بالحاسوب. قد لا يكون هذا القرص محميّاً!

- هل تملكين حاسوباً محمولاً يمكن أن نوصله به؟

- سآتيك به.

بينما غابت نيكي، نظر إلى جدار موجود في أقصى الغرفة رسم عليه جيريمي لوحة دينيّة ملوّنة، يحلّق فيها مسيحٌ ودود في سماء ملونة بالأزرق والأخضر. اقترب من اللوحة وتفحّص قناني الصباغة الموضوعة على الأرضية. كانت تتردّد في الحجرة رائحة محاليل نفّاذة رغم النافذة المفتوحة، ممّا يعني أن اللوحة رُسمت حديثاً.

سأل نيكي عند عودتها:

- أتُراه تحوّل إلى الدين؟

- كلا بحسب علمي. ليته فعل!

- أأنت جادّة؟ أعماكِ الحب...

ناولته حاسوبها المحمول وهي تحدجه بنظرة متوعّدة.

- قد يكون أعماني لمّا لقيتك، لكن...

- لكن ماذا؟

عدلت نيكي عن المواجهة، فهناك ما هو أهمّ.

تناول سبستيان الحاسوب، ووصل القرص الصلب الخارجي به، ثمّ راح يستكشف محتواه. كان مليئاً بالأفلام والأغاني المحمّلة من الإنترنت. يبدو أنّ جيريمي معجب بإحدى فرق الروك، وهي

فرقة شوترز (الرماة). شاهد سبستيان لقطات خاطفة من إحدى سهراتها: أغاني روك لا تخلو من الخلاعة، محاكاة باهتة لـ «ستروكس» أو «الليبيرتينز».

- أتعرفين هذه الرداءة؟

- إنّها فرقة بروكلين المحليّة. جيريمي شغوف بمتابعة سهراتها.

قال في نفسه وهو ينصت إلى كلمات الأغنية: يا للبؤس!

اكتشف وهو يستعرض باقي المستندات عشرات الحلقات من مسلسلات تلفزية لم يسمع بها قط، كما اكتشف أفلاماً ذات عناوين مليئة بالألفاظ الجنسية البذيئة.

ولتبديد الشكوك، شغّل أحد المستندات. بدت على الشاشة ممرّضة بدينة مضت تنزع أزرار ملابسها وهي تداعب بفمها فرج مريضها.

قالت نيكي بسخط:

- كفى! يا لها من سفالة!

فقال سبستيان مستهوناً:

- لا داعي للتهويل!

- ألا يزعجك أن يشاهد ابنك أفلام بورنو؟

- كلا، وإذا أردت الحقيقة، فذلك يطمئنني.

- يطمئنك؟

- بالنظر إلى ملابسه الخنثويّة ومظهره الأنثوي، بدأت تراودني شكوك حول ما إذا كان لواطياً!

حدّقت فيه باستياء:

- أتعني فعلاً ما تقول؟

لم يجب، فقالت ملحّة:

- أين هي المشكلة حتّى ولو كان لواطياً!
- بما أنّه ليس كذلك، فلا داعي للخوض في هذا الموضوع.
- من ناحية التفتُّح الفكري، أرى أنك ما زلت مشدوداً إلى أفكار القرن التاسع عشر. يا له من أمر مريع!

حرص على عدم الدخول في هذا الجدل. مهما يكن، فهي ترهقه بمؤاخذاتها:

- فأنت لا تعادي اللواطيين فحسب، بل تساند هذا النوع من الأفلام والصورة السلبية التي يروجونها عن المرأة.

قال مدافعاً عن نفسه وهو يتراجع إلى الخلف بحذر:

- لست حاقداً على اللواطيين، ولا أؤيّد أحداً.
- فتح أوّل دولاب من دواليب المكتب. كان مليئاً بعشرات أقراص الحلوى الملبّسة من مختلف الألوان، تناثرت من علبة M&M's كبيرة. ووسط هذه الحلويات، عثر على بطاقة زيارة أحد موشمي ويليامزبورغ، مشدودة لورقة عليها تخطيط رسم تنين ما زال في طور الإنجاز.
- إنّه مشروع وشم. الظاهر أنّه لا يدع شيئاً يغيظنا إلا وأقبل عليه. لعلّ ثمّة قائمة سرية يتداولها المراهقون فيما بينهم، تتضمّن كلّ الحماقات الممكنة التي لا تخطر على بال، يقومون بها لمعاكسة آبائهم.

أوقفت نيكي بحثها لتركز على أحد الأدراج. قالت وهي تشير إلى علبة عوازل طبية ما زالت لم تُستعمل بعد:

- انظر!
- هل لابنك صديقة؟
- لا علم لي.

تذكّر سبستيان لوحة أقراص منع الحمل التي وجدها قبل ساعتين في غرفة كامي. هي تستعمل أقراص منع الحمل وهو يستعمل العازل: شاء أم أبى، فالأولاد يكبرون! بالنسبة إلى جيريمي، الأمر يدعو للرضا، أما البنت، فأمرها أدعى للتوجّس. وفيما كان حائراً بين إخبار نيكي بالأمر أو الإعراض عن ذلك، عثر على نصف سيجارة حشيش.

- الحشيش يقلقني أكثر من البورنو! أكنتِ على علم بأنه يدخن هذه القذارة؟

اكتفت بأن هزّت كتفيها وهي مستغرقة في اكتشاف محتويات الدرج.

- لقد سألتك!

- انتظر! تعال لترى هذا.

رفعت حزمة من القمصان، فعثرت على هاتف. قالت:

- لا يخرج جيريمي أبداً من دون هاتفه.

مدّت الجهاز لسبستيان. سحبه من غشائه، فاكتشف بطاقة بنكية مثبتة بين الغشاء والهاتف الخلوي. قالا في نفسيهما وهما يحدّقان في بعضهما بعضاً: ما كان ليغادر من دون هذه البطاقة أيضاً.

8

كان الهواء يعبق بعطر إكليل الجبل والزهور البرية. وكان النسيم المنعش يهزّ أصص الخزامى والشجيرات. يبدو المنظر رائعاً من سطح المصنع الذي جرى تحويله إلى بستان، بحيث يشرف على إيست ريفر وناطحات سحاب منهاتن وتمثال الحرية.

صعدت نيكي إلى السطح متوتّرة لكي تدخّن. استندت على المدخنة المشيّدة من الطوب وراحت تنظر إلى سبستيان يتجوّل بين الأصص الخشبية التي ينبت فيها القرع والكوسا والباذنجان والخرشوف والنباتات العطرية. قال لها وهو يتّجه نحوها:

- ناوليني سيجارة!

حلّ ربطة عنقه وفتح أزرار قميصه لكي يزيل ملصق النيكوتين المثبت على كتفه.

- لا أظن أنّه أمر مستحب.

تجاهل نصيحتها وأشعل السيجارة وسحب منها نفساً عميقاً قبل أن يفرك جفنيه.

استرجع والقلق ينهشه ما اكتشفه أثناء تفتيش غرفة ابنه. كذب جيريمي عندما استأذن لقضاء ليلة عند صديقه سيمون وهو يعلم أنه في سفرة دراسية. ثمّ غادر حاملاً حقيبته وجواز سفره، وهو ما يدعو

إلى افتراض أنّه أقبل على سفر بعيد، ربّما بالطائرة. وهو لم يأخذ معه هاتفه ولا بطاقة الائتمان التي أعارته إياها أمه: وهما الوسيلتان اللتان يمكن أن تسمحا للشرطة باقتفاء أثره...

- لم يكتف بالهرب، بل هو مصمِّم على ألّا نعثر عليه.

سألت نيكي:

- ما الذي دعاه إلى هذا التصرف؟

- من الواضح أنّه ارتكب حماقة أخرى. لعلّه قام بشيء خطير.

ترقرقت الدموع في عينيها، وشعرت بغصَّة في حلقها، وساورها خوف شديد. فرغم أن ابنها ولد ذكي وشاطر، إلا أنه ما زال ساذجاً. هي غير راضية عن مغادرته البيت. يا لخوفها من بُعده عنها!

لأوّل مرّة في حياتها تشعر بالندم على تربيته على الاستقلال، والتركيز في تنشئته على قيم المروءة والتسامح والانفتاح على الآخرين. لم يكن سبستيان على خطأ. فعالم اليوم قاسٍ على الحالمين والمثاليين. كيف للمرء أن يعيش فيه من دون أن يكون على قدر ولو يسير من الاحتراس والدهاء والصلابة؟

سحب سبستيان نفساً من سيجارته ونفثه في الهواء البلوري. خلفه كان أنبوب تهوية يقرقر مُصدراً صوتاً أشبه بصوت الهررة. كانت حالته النفسية تتناقض مع الجو الهادئ.

كانا يشرفان على منهاتن من مسافة بعيدة، ومع ذلك كان يصلهما صخب المدينة واضطرابها. إنها أشبه بخلية نحل متعجّلة للتزود بما تحتاج إليه قبل مقدم الشتاء، فتملأ المكان طنيناً. وكانت أشعة الشمس المتسللة بين أوراق الشجيرات تلون بنور باهت خزاناً خشبياً ذا إطار صدئ.

- حدِّثيني قليلاً عن رفقة جيريمي.
سحقت نيكي عقِب سيجارتها في جرّة مملوءة بالتراب وقالت:
- يعاشر ولدين فقط.
- الولد المدعو سيمون. . .
- وتوماس، صديقه الحميم.
- هل سألته عنه؟
- تركت له رسالة على المجيب الآلي، لكنه لم يتّصل.
- ماذا تنتظرين إذن؟!
قالت نيكي بحزم وهي تنظر إلى ساعتها:
- يمكن أن نعثر عليه وقت خروجه من الثانوية.
تركا المكان المشرف على المدينة، وعبرا الممشى الفاصل بين الأصص. وقبل مغادرة السطح، أشار سبستيان إلى كوخ صغير يغطيه مشمّع أسود قائلاً:
- ماذا تخزّنين هنا؟
أجابت بسرعة:
- لا شيء. إنه المكان الذي أضع فيه معدّات البستنة.
حدّق فيها بارتياب. لم ينسَ النبرة المميّزة التي يتخذّها صوتها عندما تكذب. وهي فعلاً كذبت.
أزاح المشمّع الذي كان يغطي الكوخ وألقى نظرة بداخله. رأى على الأرضية عشرة أصص من الفخار مخفية بعناية، ومزروعة بالقنب الهندي. وقد جهّز المكان بآليات متطورة: صفوف من مصابيح الصوديوم، ونظام تبريد وسقي آلي، وأكياس من الأسمدة ومواد البستنة الحديثة.
قال بانزعاج:

- أنت امرأة غير مسؤولة تماماً!
- كفى، لن تقلب الدنيا بسبب حزمة من العشب.
- حزمة من العشب؟ أنت تزرعين مخدّرات!
- عليك أن تجرّب تدخين سيجارة حشيش بين الفينة والأخرى. ستهدّئك.

لم يدرك سبستيان مسحة الدعابة في كلامها، فزاد غضبه.

- لا تقولي إنّك تبيعين المخدرات من جديد يا نيكي؟

قالت مهوّنة:

- لا أبيع شيئاً. كلّ ما رأيت موجّه للاستهلاك الشخصي. عشبة 100% بيو، مزروعة بطريقة تقليدية صرفة. أفضل من الراتنج التي يبيعها تجار المخدرات.
- أنت غير واعية بخطورة ما تفعلين. قد يقودكِ هذا إلى السجن.
- لماذا؟ هل تنوي الوشاية بي؟
- وصاحبك المتأنق سانتوس؟ ظننتُ أنّه يشتغل بفرقة محاربة المخدرات.
- هم منشغلون بأمور أخرى، صدّقني.
- وجيريمي؟ وكامي؟
- هذا المكان لا يصله الأطفال أبداً.

صاح وهو يشير إلى لوحة كرة سلة ما زالت جديدة، عُلّقت حديثاً في شباك الحديد:

- لا تهزئي بي.

هزّت كتفيها وهي تتنهّد:

- إنك تصيبني بالقرف!

حوّل بصره عنها وتنفّس بعمق لعلّه يستعيد هدوءه، لكن الغضب كان يتصاعد من داخله كموجة عارمة، جرفت معها ذكريات مؤلمة، ونكأت جراحاً لم تندمل، مذكّرة إياه أنّ عليه ألا ينسى وجه نيكي الحقيقي: وجه امرأة لا مصداقيةَ لها، ولا يصحّ الوثوق بها.

استشاط غضباً فأمسك بعنقها وألصقها برفّ معدني.

- إن ورّطت ابني يوماً في هذا النوع من الأعمال المشبوهة، سأسحقك، أفهمتِ؟

وضغط بقبضته على عنقها حتى خنقها وهو يكرّر:

- أفهمت؟

اختنقت، ولم تستطع جواباً.

لم يقوَ على احتواء غضبه، فأمعن في الضغط على عنقها.

- أقسمي بأن اختفاء جيريمي لا صلة له بشؤون مخدراتك!

بينما كان يحاول شلّ حركتها، شعر بقدميه تخوران من تحته. ذلك أن نيكي أفلتت منه، وبسرعة البرق، والتقطت مقصّ نبات صدئاً وضعته على صدره.

- حذار، إن وضعت يدك عليّ مرّة أخرى، سأحطمك.

9

كانت مؤسسة ساوث بروكلين كوميونيتي هاي سكول عبارة عن بناية ضخمة من الطوب الأحمر تشرف على شارع كونوفر. كان الوقت ظُهراً، لكن مَن يرى عدد المطاعم النقالة، المركونة أمام الثانوية، يدرك أنّ الوجبة التي يقدّمها المطعم المدرسي لا ترضي التلاميذ.

دنا سبستيان بحذر من إحدى شاحنات الإطعام التي درجت على جوب المدينة منذ بضع سنوات لإشباع نهم سكان نيويورك. كان لكلّ شاحنة اختصاصها: ساندويتش بالنقانق، سرطان البحر، التاكو، ديم سوم، فلافل... وبما أنّه كان مهووساً بالنظافة، فقد كان يتجنّب هذا النوع من الطعام، لكنه كان جائعاً. فهو لم يأكل شيئاً منذ الليلة السابقة. وكان يشعر بقرقرة مؤلمة في بطنه.

حذّرته نيكي قائلة:

- حذار من هذه الأطباق الأميركية الجنوبية.

لكنه تجاهل التحذير بنوع من المكابرة، وطلب طبق سيفيتشي، وهو طبق بيروفي يُعدّ من السمك النيء المنقوع.

سألها بينما كان الجرس يرنّ معلناً عن نهاية الدرس، وسيل من التلاميذ يتدفّق على الرصيف:

- ما أوصاف الولد؟

فردّت وهي تحدّق في التلاميذ الخارجين من المؤسسة مخافة أن تخطئه.

- سأومئ إليك حين أراه.

دفع سبستيان لصاحب المطعم، وراح يتذوّق الوجبة. بلع لقمة، فألهب المنقوع الحار جوفه، فظهرت على وجهه تكشيرة.

قالت له نيكي:

- لقد حذّرتك.

شرب كأس الهورشاتا الذي ناوله إياه صاحب المطعم بجرعة واحدة لعلّه يخفّف من الحر الذي ألهب فمه. كان مذاق ذلك الحليب النباتي الأكمد المنسّم بالفانيلا مقزّزاً حتى إنه أشعره بالغثيان.

هتفت نيكي وهي تشير إلى شاب وسط الزحمة:

- ها هو!

- من؟ ذو البثور أم ذو الرأس الصغير؟

- دعني أتحدّث إليه، موافق؟

- سنرى...

كان توماس بالغ العناية بمظهره: يرتدي سروال جينز ضيقاً ونظارات من نوع وايفارير، وسترة سوداء ضيقة أيضاً من ماركة عالمية، تضفي عليه مسحة من الرشاقة، وقميصاً أبيض يكشف عن صدر نحيف. لا بدّ أنّه يمضي ساعات طوالاً أمام المرآة كلّ صباح ليسوّي مظهره، ويبدو كمغني روك ناشئ.

لحقت به نيكي أمام سياج ملعب كرة السلة.

- توماس!

قال وهو يزيح خصلة شعر نافرة غطت وجهه:

- مرحباً سيدتي.

- لماذا لم تجِب على رسائلي؟

- لم أجد الوقت لذلك.

- ألم ترَ جيريمي؟

- كلا، لم أره منذ يوم الجمعة.

- ألم تتوصّل منه برسالة إلكترونية أو مكالمة أو رسالة نصية؟

- لم أتوصل بشيء.

أنعَمَ سبستيان النظر في المراهق. لم تعجبه نبرته ولا مظهره المقرف بما كان يرتديه من خواتم قوطية ومسابح صدفية وأسورة، لكنه غالب اشمئزازه وسأل:

- ألا تعرف أين يمكن أن نعثر عليه؟

التفت توماس نحو نيكي.

- مَن هذا؟

- أنا أبوه أيّها الأبله!

جفل المراهق، لكنه بدا أكثر استعداداً للكلام.

- لم نعد نلتقي كثيراً في الأيام الأخيرة. فجيريمي تغيّب عن كلّ بروفات مجموعتنا.

- لماذا؟

- لأنه يفضّل لعب البوكر.

سألت نيكي بقلق:

- حقّاً؟!

- أظنّ أنّه كان بحاجة إلى المال، بل لعلّه باع آلته الموسيقية، وأودع على موقع إي باي إعلاناً عن بيع كاميرته الرقمية.

سألت نيكي:

- المال؟! وماذا سيصنع بالمال؟

- لست أدري. حسناً، ينبغي أن أذهب الآن.

لكن سبستيان أمسك بكتفه.

- لا تستعجل. مع مَن يلعب البوكر؟

- لست أدري، مع أشخاص على الإنترنت...

- يلعب جولات حيّة؟

فردّ المراهق مراوغاً.

- اسأل سيمون.

فقالت نيكي مستدركة:

- أنت تعلم أن سيمون مسافر في رحلة دراسية.

أمسك سبستيان بتلابيبه وخضّه قليلاً.

- هيّا، هات ما عندك!

- ليس من حقّك أن تمدّ يدك عليّ! أنا عارف بحقوقي!

حاولت نيكي أن تهدئ طليقها، لكن صبر سبستيان نفد. شرع هذا الغلام المتغطرس يفقده صوابه.

- مع مَن يلعب جيريمي البوكر؟

- مع أشخاص غريبي الأطوار، يعيشون من القمار...

- ماذا تقصد؟

- أشخاص يرتادون الكازينوهات بحثاً عن الربح السريع.

- يبحثون عن مقامرين غير متمرّسين لكي يسلبوهم أموالهم، أهذا ما تقصد؟

فقال المراهق مؤيّداً:

- نعم. فجيريمي يحبّ أن يتظاهر بالسذاجة ليوْقع بهم. وقد ربح كثيراً من المال بهذه الطريقة.

- ما مقدار الرهن في كلّ جولة؟

- ليس كبيراً. فنحن لسنا في لاس فيغاس. هؤلاء الأشخاص يقامرون لكي يتمكنوا من أداء فواتيرهم وتسديد ما عليهم من ديون.

تبادلت نيكي وسبستيان نظرات قلقة. كلّ شيء ينذر بالمكروه في هذه الحكاية: محلات قمار غير شرعية تستغل قاصرين، فرار من البيت، ديون...

- أين تنظَّم جولات القمار هذه؟

- في حانة حقيرة ببوشويك.

- هل تعرف عنوانها؟

- كلا. أنا لا أقرب هذه الأمور.

ودّ سبستيان أن يخضّه أكثر، لكن نيكي صرفته: يبدو أنّه نطق بالحقيقة هذه المرّة.

- ينبغي أن أنصرف. فأنا جائع!

- سؤال أخير يا توماس، هل لجيريمي صديقة؟

- بالطبع!

بدا الاستغراب على نيكي.

- أتعرف اسمها؟

- امرأة تكبره سنّاً.

- حقّاً؟

- أرملة.

قطّب سبستيان.

- طلبنا منك اسمها.

أجاب توماس وهو ينفجر ضاحكاً:

- الأرملة معصم.

تنهّدت نيكي. أما سبستيان فأمسك بتلابيب المراهق، وسحبه إليه.

- نكاتك البائخة تقزّزني. هل له صديقة أم لا؟

- حدثني في الأسبوع الفارط عن فتاة التقاها على الإنترنت. فتاة برازيلية فيما أظن.. وأراني صورة امرأة فاتنة، لكن الأمر في نظري لا يعدو أن يكون ضرباً من المباهاة. لا يستطيع جيريمي أن يفوز بمثل تلك الحسناء.

حرّر سبستيان توماس من قبضته. لم يظفر منه بطائل.

سألته نيكي:

- هل يمكن أن تتّصل بي إن بلغتك أخبار جديدة؟

أجاب وهو يبتعد:

- اعتمدي علي يا سيدتي.

دعَكَ سبستيان صدغيه. فقد أرهقه هذا الغلام بصوته وكلامه ومظهره. قال متنهّداً:

- يا له من مهرّج! أظن أنّ علينا أن نراقب رفقة ابننا مستقبلاً.

فغمغمت نيكي:

- ينبغي أن نعثر عليه أوّلاً.

10

عبرا الشارع ليلتحقا بدرّاجة نيكي ذات العجلات الثلاث، وهي دراجة عتيقة من نوع بي. إم. دابليو تعود لسنوات الستينيات.

ناولته الخوذة نفسها التي لبسها عند القدوم.

- والآن؟

كانت نيكي عابسة، فهروب جيريمي أصبح حقيقة. باع غيثارته ووضع كاميرته في المزاد العلني ليحصل على المال. واتّخذ ما يلزم من احتياطات حتى لا يعثروا عليه، لا سيما وأنّه يتقدّمهم بثلاثة أيام.

قالت معلّقة:

- لم يدفعه إلى هذا التصرّف إلا الخوف. هو خائف للغاية.

هزّ سبستيان ذراعيه دلالة على العجز.

- ممّ هو خائف؟ لماذا لم يسرّ لنا بما يزعجه؟

- لأنك لست رجلاً متفهّماً.

وخطرت له فكرة.

- وكامي؟ قد تكون لديها أخبار عن أخيها؟

تطلّقت أسارير نيكي. قالت في نفسها لعلّ هذا الخيط يوصلهما

إليه. فإذا كان التوأمان لا يلتقيان إلا نادراً، فقد بدا كما لو أنهما تقاربا في الشهور الأخيرة.

- هلاّ اتّصلتِ بها؟

ردّت مندهشة:

- أنا؟

- من الأفضل في نظري أن تتصلي بها أنت، سأشرح لك الأمر لاحقاً...

بينما كانت نيكي تركّب رقم هاتف ابنتها، اتّصل سبستيان بمكتبه. كان رئيس مصنعه جوزيف قد ترك له رسالتين متتابعتين يطلب منه الاتصال به فوراً.

- لدينا مشاكل عويصة يا سبستيان. لقد حاولت فارازيو الاتصال بك عدّة مرات، وهم يشتكون من أنك تجاهلت مكالماتهم.

- لديّ مانع، مشكلة لم تكن في الحسبان.

- اسمع، لقد زاروا المصنع من دون سابق إنذار، ولاحظوا غيابك. هم يريدون منك تأكيداً قبل الواحدة زوالاً. يريدون التزاماً بأن توافيهم بتقييمك قبل هذا المساء.

- وإلا؟

- وإلا فإنهم سيعهدون بالخبرة إلى فورستنبورغ.

تنهّد سبستيان. لقد انفتح هذا الصباح صنبور المشاكل، وهو لا يعرف كيف سيغلقه. قدّر الوضع بأقصى ما يملك من هدوء. قد تعود عليه عمولة جلسة بيع كارلو بيرغونزي بمبلغ يصل إلى 150000 دولار. وهو مبلغ كان قد بنى عليه ميزانيته، ومن ثمّة هو بحاجة إليه لكي يحافظ على توازنات مؤسسته. ثمّ إن خسارة بيرغونزي لا تمثّل خسارة مادية فحسب، بل وخسارة معنوية رهيبة أيضاً. فعالم الكمان

عالم صغير، تنتشر فيه الأخبار بسرعة. إنَّ جلسة البيع هذه حدث ذو أهمية بالغة، ومن ثمّة لن يدخر منافسوه في فورستنبرغ جهداً من أجل تهويل الأمر واستغلاله لمصلحتهم. فسبستيان ليس حديث العهد بهذا الميدان، أمضى عشرين سنة في التعامل مع الفنانين. وهو خبير بطباعهم المتقلبة القلقة والمرتابة. ذواتهم متضخمة، ويحرصون على التعامل مع أفضل صانع آلات موسيقية، وقد كان هو الأفضل! نجح في أقلّ من عقدين في أن يجعل من «لارابي آند سان» أشهر مؤسسة لصناعة الآلات الموسيقية في الولايات المتحدة. لم يكونوا يعترفون بمهارته فحسب، بل وبموهبته الفذّة، وسمعه الاستثنائي وودّه الصادق لزبنائه الذين كانوا يوكلون له أمر اختيار آلات مناسبة تماماً لشخصياتهم ولطريقة عزفهم. وقد كانت آلاته تتفوّق على آلات ستراديفاري وغارنيري حتى من دون الكشف عن صانعها.

هكذا صارت مصنوعاته، بفضل تفانيه، علامة مميّزة، بحيث كان من يقصدون مصنعه من العازفين إنما يشترون علامة «لارابي» قبل كل شيء. استطاع بفضل هذه الشهرة أن يكسب ثلّة من النجوم الذين يتربّعون على عرش الكمان. وهم نجوم نجح بأناةٍ في إقناعهم بأنه خير من يعتني بآلاتهم، أو تزويدهم بآلات جديدة. على أنّ هذه الحظوة كانت هشّة، يمكن أن تعصف بها تقلبات الأمزجة في كل لحظة. ثم إن فورستنبرغ ودوراً أخرى، كانت تتربّص به الدوائر، ولا سيما في أوقات الأزمات، وبذلك لا مجال لأن يخسر هذا العقد. وهكذا حسم أمره.

طلب من جوزيف:

- اتّصل بهم نيابة عنّي.

- هم يريدون التحدّث إليك أنت.

- قل لهم سأتصل بهم بعد خمس وأربعين دقيقة. بمجرّد عودتي إلى المكتب. سيحصلون على الخبرة قبل هذا المساء.

أقفل الخط في الوقت نفسه الذي أنهت فيه نيكي المكالمة.

- كامي لا تجيب. تركتُ لها رسالة. لماذا لا تريد الاتصال بها بنفسك؟

قال متجاهلاً الجواب عن السؤال:

- اسمعي يا نيكي، عليّ أن أعود إلى المكتب.

حدّقت فيه بذهول:

- تعود إلى المكتب؟! اختفى ابنك وتريد أن تعود إلى العمل!

- ينهشني القلق، لكنني لست شرطياً. عليّ أن...

قاطعته قائلة:

- سأتّصل بسانتوس، هو على الأقل يعرف كيف يتصرّف، ولمّا يقول شيئاً يفي به على الفور.

ركّبت رقم عشيقها وحكت له باختصار قصة اختفاء جيريمي.

راح سبستيان ينظر إليها في جسارة وهي تحاول استفزازه، لكنّه لم يستجب. ماذا عساه يفعل؟ أي سبيل يسلك؟ شعر بنفسه متوتّراً وعاجزاً عن اتخاذ القرار المناسب.

بدا عندئذٍ أنّ الاتصال بالشرطة هو الحلّ الأنسب الذي يريحه، بل لعلّه تأخر في القيام بذلك.

جلس في المقعد المجاور لمقعد نيكي في الدراجة، ووضع الخوذة الجلدية على رأسه، وهي خوذة لم تكن تستجيب بالتأكيد للمعايير المطلوبة. ووضع النظارتين الكبيرتين اللتين تشبهان نظارات الطيارين. كان يشعر بالإرهاق وبأنّ الأحداث تتجاوزه. ماذا يصنع ها هنا فوق هذه الدراجة الغريبة مرتدياً هذا اللباس الغريب؟! أيّ

دوامة جهنميّة هذه عصفت بحياته؟! لماذا وجد نفسه يتحمّل هذا «اللقاء» بطليقته؟! لماذا يرتكب ابنه الحماقة تلو الأخرى؟! لماذا تصرّ ابنته ذات الخمس عشرة سنة على مضاجعة الأولاد؟! لماذا توشك حياته المهنية على الانهيار؟!

أنهت نيكي المكالمة ولحقت به من دون أن تنبس بكلمة. ركبت الدراجة وشغّلت المحرك ثمّ انطلقت باتجاه الأحواض. تشبّث بمقعده والريح يعصف بوجهه بينما شدّ على أسنانه وردفيه. كان قد نسي معطفه بشقة نيكي، فراح يرتعش في سترته الأنيقة الخفيفة. كان بخلاف طليقته، ملازماً للبيت، لا يميل إلى المغامرة، ويفضل رفاهية سيارته الجاغوار على هذه الدراجة النارية البغيضة. وخيّل إليه كما لو أنّ نيكي تستمتع بزيادة سرعة الدراجة كلّما رأت حفرة في الطريق.

وصلا أخيراً أمام مسكنها.

قال وهو يترجّل من الدراجة:

- سأرافقك لجلب معطفي. لقد تركت فيه مفاتيح السيارة.

أجابت دون أن تنظر إليه:

- افعل ما بدا لك. أما أنا فسأنتظر سانتوس.

تبعها وهما يرتقيان درجات السلم. فلما بلغا أمام الباب الحديد الذي يسمح بالدخول إلى الدور العلوي، وفتحت باب الشقة، ندّت عنها صرخة مفاجئة.

11

كانت الأريكة ممزّقة والأثاث مبعثراً والرفوف محطّمة، والصالون في حالة لا تترك مجالاً للشكّ: لقد نُهبت الشقة أثناء غيابهما.

تقدّمت نيكي داخل الغرفة وقلبها يخفق لتعاين الخسائر. كان كلّ شيء مقلوباً رأساً على عقب: نُزع التلفاز من مكانها على الجدار، واللوحات مطروحة أرضاً، ومحتويات الدواليب مبعثرة، والأوراق مشتّتة في أرجاء الغرفة.

كانت ترتعد مصدومة من ملاحظة حياتها الشخصية تُنتهك، وبيتها يُنهب.

سألها سبستيان:

- ماذا سرقوا؟

- من الصعب معرفة ذلك. لم يأخذوا حاسوبي المحمول على كلّ حال. ها هو على طاولة المطبخ.

غريب.

لاحظ على أحد الرفوف التي لا تزال في مكانها علبة جميلة مرصّعة.

- هل لهذه العلبة قيمة؟

- بالطبع، إنها مجوهراتي.

فتح العلبة فوجدها تحتوي من بين ما تحتوي عليه خواتم وأسورة كان قد أهداها إياها في الماضي، وكذا مجوهرات أخرى نفيسة مقتناة من تيفاني.

- أي سارق غبي هذا الذي لا يستولي على الحاسوب وعلى علبة مجوهرات موضوعة في مكان بارز؟

قالت وهي تضع أصبعها على فمها:

- اصمت!

صمت من دون أن يدرك السبب، فسمعا خشخشة: لعلّ أحدهم ما زال في البيت! أومأت إليه بيدها طالبة منه ألا يتحرك، وارتقت السلم الحديد الذي يفضي إلى الطابق العلوي. كان الممرّ يقود إلى غرفتها التي لم يكن بها أحد، ثمّ إلى غرفة جيريمي، لكن الأوان كان قد فات. كانت النافذة المطلّة على الفناء مهشمة. أطلت نيكي، فلمحت طيف شخص يهرب عبر سلم النجاة الحديد. اعتلت النافذة وقد همّت بملاحقته... لكن سبستيان أمسك بيدها وصرفها عن ذلك قائلاً:

- دعيه، لا شكّ في أنّه مسلح.

امتثلت، وراحت تتفقّد الغرف. كان اللص أو اللصوص قد شرعوا في تفتيش البيت بكامله. أرعبها منظر أغراضها مبعثرة على الأرض، فلم تجد إلا أن علّقت:

- لم يأتوا للسرقة، بل للبحث عن شيء ما.

ركّز سبستيان اهتمامه على غرفة جيريمي. لم يكن قد اختفى منها شيء عند النظرة الأولى. سوّى بحركة آلية برجَي الحاسوبين المتمايلين. كان سبستيان مُصاباً بما يشبه الهوس: لم يكن يطيق

الفوضى، ويميل ميلاً مرضياً إلى النظافة. رفع دراجة ثابتة، وعدّل رفّاً كان يوشك على السقوط، والتقط أوراق لعب من فوق الأرضية الخشبية. ولمّا التقط حقيبة البوكر المصنوعة من الألمنيوم، تملّكته الدهشة، ذلك أن أقراص السيراميك كانت ملتحمة بعضها ببعض، بحيث تشكلّ مجموعة منها ما يشبه أنبوباً دائرياً أجوف. تفحّصها فلاحظ في تجويفها أكياساً بلاستيكية صغيرة. سحب إحداها، فوجدها مملوءة بمسحوق أبيض.

أمرٌ لا يصدق. . .

استخرج مذهولاً ما بداخل الأنبوبين المعدنيين ونشره على السرير. عشرة ملفوفات صغيرة شفّافة.

كوكايين!

لم يصدّق عينيه.

قالت نيكي وهي تدخل الغرفة:

- اللعنة!

ومضيا يحدّقان في بعضهما مصعوقين.

- هذا ما جاء من أجله اللصوص. يوجد منها كيلوغرام على الأقل!

لكن سبستيان ظلّ يكابر في تصديق ما يرى أمامه.

- إنّه أكبر من أن يُصدّق. لعلّها. . . لعبة أو مقلب.

حرّكت نيكي رأسها ومطّت شفتيها دلالة على الارتياب. فتحت فتحة صغيرة في أحد الأكياس، وذاقت قليلاً من المسحوق. شعرت بمذاقه المرّ اللاذع يخدّر لسانها.

- إنّها الكوكا يا سبستيان. هذا أكيد.

- ولكن كيف. . .

قاطعه رنين الجرس.

دقّ أحدهم جرس الباب.

هتفت:

- إنّه سانتوس.

بدا الذهول والرعب على وجهيهما. لأوّل مرّة منذ سنوات شعرا بأنّ رابطة قوية تجمعهما، وهي حماية ابنيهما. كان قلباهما يخفقان في انسجام تام. الضربات نفسها، والعرق نفسه والدوار نفسه.

رنّ الجرس ثانية، فقد شرع صبر الشرطي ينفد. لم يكن الموقف يسمح بالمماطلة. كان عليهما أن يتّخذا قراراً بسرعة. فجيريمي تحت المراقبة القضائية، وإذا كان إخفاء ما اكتشفاه عن الشرطة أمراً خطيراً، فإنّ الكشف عنه يعني الحكم على ابنهما بعقوبة سجن طويلة، ومن ثمّة رهن مستقبله ودراسته، والحيلولة دونه ودون الحياة.

بادرها:

- ينبغي...

فقاطعته:

- ... أن نخفي هذه المخدرات.

الاتحاد هو آخر ملاذ أمام الخطر الداهم.

اطمأنّ سبستيان للتوافق الطارئ بينهما، فتناول نصف الأكياس وألقى بها في مراحيض الحمام الملحق بالغرفة، بينما التقطت نيكي النصف المتبقي ورمت به في الحوض نفسه.

رنّ الجرس للمرّة الثالثة.

قال لها:

- افتحي الباب، سألحق بك!

امتثلت لطلبه. وبينما كانت تنزل السلم نحو الصالون، سحب هو طرّادة الماء. وجد الماء صعوبة في إذابة الكوكايين، وسدّت الأكياس أنبوب الصرف. عاود سبستيان المحاولة، لكن بلا جدوى. وراح ينظر إلى الماء الذي اتخذ لوناً أبيض وقد أوشك أن يفيض من حوض المرحاض.

12

قال سانتوس معاتباً:

-تأخّرت في فتح الباب حتى بدأ يساورني القلق!

- لم أسمع الجرس.

أفسحت له ليدخل، لكنه تسمّر في مكانه لمّا رأى حال الشقة.

- ماذا وقع؟ هل عصف إعصار بهذا الصالون؟

فاجأها السؤال، فلم تعرف جواباً. شعرت بدقات قلبها تتسارع بينما تلألأت قطرات العرق على جبينها.

- كنت... أنظّف المنزل.

- أتسخرين منّي؟! أأنت جادّة فيما تزعمين يا نيكي؟

فقدت رباطة جأشها. فشلت في إقناعه بكلامها بالنظر إلى الحال الذي كان عليه الصالون.

قال بإلحاح:

- ماذا جرى؟

وجاء صوت سبستيان من السلم ليخلّصها من الورطة:

- لقد تشاجرنا. إنّه أمر يحدث أحياناً، أليس كذلك؟

التفت سانتوس مذهولاً ليكتشف القادم الذي بالغ في تمثيل دور الزوج السابق الغيور؛ ذلك أنّ سبستيان اتّخذ سحنة عدوانية.

ردّ الشرطي وهو يومئ بأصبعه إلى الصالون:

- أتسمّي هذا شجاراً؟

شعرت نيكي بالانزعاج، فقدّمت الرجلين لبعضهما بعضاً.

اكتفيا بإشارة من رأسيهما للتحية، وحاول سبستيان أن يخفي اندهاشه، لكن مظهر سانتوس فاجأه قليلاً في الحقيقة. كان أطول منه بعشرين سنتمتراً تقريباً، قوي البنية، دقيق القسمات، من الملوّنين، ولم يكن يبدو عليه شيء من نموذج الشرطي المتغطرس الفظّ. ثمّ إن بذلته المقدودة على مقاسه -التي قد يكون صرف عليها نصف راتبه- وشعره المقصوص، وحلاقة ذقنه الأنيقة، كلّ ذلك يجعل مظهره أدعى إلى الثقة.

قال وهو يحدّق في الأبوين:

- ليس لدينا وقت نضيّعه. لا أريد إثارة مخاوفكما، لكن اختفاء مراهق لثلاثة أيام من دون أن تصل أخباره، أمر لا تنبغي الاستهانة به.

مضى يفكّ أزرار سترته بطريقة آلية وأضاف بنبرة متعالمة:

- إنّ قضايا الاختفاء تتكفّل بها السلطات المحليّة إلا إذا تعدى التحقيق حدود الولاية الواحدة أو إذا تعلّق الأمر باختفاء قاصر. في هذه الحالة يتدخّل مكتب التحقيقات الفيدرالي عبر مكتب الـ(Child Abduction Rapid Deployment) (CARD).

أعرف أحدهم هناك، وقد اتّصلتُ به وأخطرته باختفاء جيريمي. إنهم بانتظارنا بمركز القيادة العامة بميدتاون، في ميتلايف بويلدينغ.

قالت نيكي بلهجة حاسمة:

- حسناً، سنتبعك.

فعلّق سبستيان بنبرة هادئة:

- سأركب سيارتي.

- لا داعي لذلك، فقد أتيت بسيارة خدمة. ستساعدنا على تفادي الازدحام بفضل الفانوس الدوّار.

نظر سبستيان نظرة خاطفة إلى نيكي.

- سنلحق بك هناك، يا لورونزو.

ردّ بنبرة ساخرة:

- حسناً، إنها فكرة رائعة. لنضيّع مزيداً من الوقت إذن!

لمّا أدرك أنّه لن ينجح في إقناعهما بتغيير رأيهما، توجّه نحو الباب ثمّ قال وهو يصفقه:

- هو ولدكما على كل حال!

لم يخفّف خروج الشرطي من توتّرهما ولا من ارتباكهما. بقي سبتستيان ونيكي بمفردهما وألفيا نفسيهما في حيرة شديدة. وجدا صعوبة، وقد استبدّ بهما الخوف، في تحليل المعلومات التي اكتشفاها: فرار جيريمي، شغفه بالبوكر، واكتشاف المخدرات...

صعدا إلى غرفة ابنهما. حاول سبستيان جاهداً أن يزيل ما علق بأنبوب الصرف بواسطة عصا مكنسة، لكن رغم محو أثر المخدرات، فلا شيء يمنع من أن تأخذ الأمور منحى سيئاً.

راحا يتفحّصان حقيبة الألمنيوم ومحتوياتها بحثاً عن قرينة. لم تكن تحمل تبطيناً ولا كتابة خاصة، لا على أوراق اللعب ولا على أقراص السيراميك. مرّر سبستيان يده على جدارها، لم يكن به شيء. كان فارغاً... باستثناء قاعدة كؤوس من الكرتون. وجهها عبارة عن إشهار لنوع من الجعة، وظهرها رسمت عليه شفرة معقوفة، وهي علامة إحدى الحانات:

حانة بوميرانغ

17، شارع فريديريك، بوشويك

صاحب الحانة: دريك ديكر.

ناول نيكي قاعدة الكأس.

- أتعرفين هذا المكان؟

حرَّكت رأسها نافية، فقال ملحّاً:

- لعلّه يلعب البوكر في هذا المكان، أليس كذلك؟

حاول أن يحدّق في عينيها، لكنّها أشاحت عنه.

كانت عيناها تائهتين تنظران في الفراغ، وبدت كما لو أنّها استسلمت.

صاح بها:

- نيكي!

خرجت فجأة من الغرفة، فلحق بها في السلم وتبعها إلى الحمام حيث تناولت دواء مضاداً للقلق، وأمسك بكتفها.

- اجلسي من فضلك.

حاول أن يبسِّط لها مخطّطه بصوت هادئ:

- اسمعي ما سنفعله. سنركب دراجتك النارية الثلاثية العجلات إلى منهاتن حالاً. ينبغي أن تعترضي كامي وقت خروجها من المدرسة.

نظر إلى ساعته.

- ستنهي دروسها عند الثانية بعد الظهر. إن ذهبتِ الآن يمكن أن تصلي في الوقت المحدّد. لا يمكن الوصول في الموعد إلا بالدراجة.

- لماذا تقلق عليها؟

- أَنصِتي، لا أدري ماذا تصنع تلك المخدرات بغرفة جيريمي، لكن أصحابها أرادوا استرجاعها. هذا أمر واضح.

- هم يعرفوننا؟

- أجل، يعرفون عنوانك، ولا شكّ في أنهم يعرفون عنواني أيضاً. ومن ثمّة فنحن جميعاً في خطر. أنا وأنت وجيريمي وكامي. أتمنى أن أكون مخطئاً، ولكن يَحسن بنا ألا نخاطر.

وبدا كما لو أنّ هذه المخاطر رفعت من معنوياتها.

- إلي أين تريدني أن آخذها؟

- إلى محطة القطار. أودعيها قطار شرق هامبتون وأرسليها...

- ... إلى بيت مأمن.

13

كانت بناية مدرسة القديس يوحنا المعمدان أشبه بمعبد إغريقي: ذات بنية هندسية متناظرة تماماً، تزيّن واجهتها الرخامية السوداء أقواس ثلاثية وأعمدة دورية منحوتة بعناية فائقة. وعلى واجهتي سلم ضخم، نُقش في الحجر شعار المؤسسة: **المعرفة قوة**، وهو ما أضفى على الثانوية هالة أشبه بهالة معبد، لكن ما خفّف من هذه البرودة المعدنية هو شدو العصافير وأشعة الشمس المتسللة بين أوراق أشجار استحال لونها بنيّاً. كان المكان بطابعه الأرستقراطي يشي بالهدوء والثقافة والمعرفة، ويجعل من الصعب تصديق أنه في قلب منهاتن، تفصله بضع منازل عن مركز تايم سكوير الشعبي الصاخب.

غير أنّ هذا الهدوء الروحاني ما لبث أن تعكّر في غضون ثوانٍ. نزلت تلميذة بمفردها أدراج المدخل، ثمّ تبعتها تلميذات أخريات في مجموعات صغيرة، وتناثرن على الرصيف. تعالى صراخهن وضحكاتهن. لم تكن الأحاديث بينهنّ تدور حول مواضيع جادة رغم بذلتهن المدرسية: كنّ يتحدّثن عن الأولاد والخرجات والتسوّق والحمية وتويتر وفيسبوك.

حدّقت نيكي وقد اعتمدت على سرج دراجتها النارية لعلّها ترمق

ابنتها كامي بين جحافل الفتيات. والتقطت من دون قصد نتفاً مما يدور بينهنّ من أحاديث. وخطر لها على نحو عابر أن هذا الجيل يختلف عن جيلها في صياغاته ولغته.

لاحت لها ابنتها أخيراً، فشعرت بالارتياح.

سألت كامي وهي تحملق فيها:

- ماذا تفعلين هنا يا ماما؟ لاحظت أنّك تركت لي رسالة.

- ليس لدي الوقت لأشرح لك الأمر يا عزيزتي. أليست لديك أخبار عن جيريمي؟

- كلا.

وأطلعتها نيكي على اختفاء أخيها، ولم تُشِر إلى ما حدث للشقة ولا إلى اكتشاف المخدرات.

- في انتظار نهاية هذه الحكاية، يرغب بابا في أن تذهبي إلى جدّتك لقضاء بضعة أيام.

- أجُننت؟ لديّ كثير من الاختبارات هذا الأسبوع! ثمّ إنني قرّرت أن أخرج مع صديقاتي.

وحاولت نيكي إقناعها:

- اسمعي يا كامي، ما كنت لآتيك إلى هنا لو أنّني لم أشعر بأنّك في خطر.

- أيّ خطر؟ أخي هرب، أين هي المشكلة؟ ثم إنّ هذه ليست هي المرّة الأولى التي يهرب فيها.

تنهّدت نيكي وهي تنظر إلى ساعتها. سينطلق قطار إيست هامبتون في أقل من نصف ساعة، وهو الأخير قبل الخامسة والنصف مساء.

مدّت خوذة لابنتها وقالت آمرة:

- ارتدي هذه!

- ولكن...

- ليس هناك «لكن»، أنا أمّك، إذا أمرتك بشيء ينبغي أن تمتثلي بدون نقاش.

قالت نيكي متبرّمة وهي تجلس في المقعد الخلفي للدراجة:

- ما أشبهك ببابا!

- لا تشتميني من فضلك!

امتطت نيكي دراجتها وغادرت آبر إيست سايد. تسلّلت عبر ليكسينغتون، وتوغّلت بين أخاديد الإسمنت المسلح والزجاج. كانت تقود بأقصى سرعة تستطيعها وهي مركّزة على السياقة. **لا ينبغي أن تتعرّض لحادثة سير، ولا سيما الآن...**

لم تكن علاقتها بكامي علاقة متينة بسبب الطلاق. كانت تحبّها كثيراً، لكن الفرصة لم تواتها لكي تنسج معها علاقة حميمة. وهي تلقي باللائمة في ذلك على ظروف الانفصال العبثي الذي فرضه عليها سبستيان، لكن بسبب حاجز خفي أيضاً. كانت الاستقامة تفرض عليها أن تعترف بأنّها تشعر بعقدة اتجاه ابنتها. فقد كانت كامي فتاة متألقة، شغوفة بالثقافة الكلاسيكية. ذلك أنّها التهمت وهي صغيرة مئات الكتب، وشاهدت معظم الأفلام الشهيرة. من هذه الناحية، حرص سبستيان على تربيتها تربية قويمة. فبفضله نشأت في وسط راقٍ، إذ كان يصطحبها إلى العروض المسرحية والحفلات الموسيقية والمعارض...

كانت فتاة طيبة، بسيطة ومتواضعة، لكن نيكي كثيراً ما كانت تشعر بنفسها متجاوَزة لمّا يجرّهما الحديث أحياناً إلى مواضيع تتّصل بالثقافة «العالِمَة». تحسّ بأنها أمّ متخلّفة عن ابنتها، وأدنى منها.

وكانت كلّما فكّرت في هذا الأمر، اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها كانت تبذل ما في وسعها لكي لا تبدي حزنها.

تجاوزت غراند سانترال بسرعة فائقة، وألقت نظرة على المرآة قبل أن تُقبل على تجاوز شاحنة مطافئ.

كانت تعشق هذه المدينة بمقدار ما كانت تمقتها.

كان ازدحامها وحركتها التي لا تفتر تصيبانها بالاختناق والدوار.

تتقدّم الدراجة الضئيلة بسرعة وهي محاصرة بين الواجهات العمودية والممرّات الضيقة وسط دوّي صفّارات الإنذار والدخان المتصاعد وسيارات الأجرة النافرة وأصوات الأبواق والصياح.

خفّفت من سرعتها، وانعطفت لتلتحق بالشارع 39، ثم ذابت وسط حركة السير بـ«فاشين أفنيو». وتوالت الصور أمام عينيها: الحشود المتزاحمة، والإسفلت المتصدّع وعربات الهوت دوغ، والضوء المنعكس على واجهات البنايات المعدنية، صورة مكبّرة تعرض ساقين نحيلين، معلّقة على إحدى الواجهات.

ولمّا بلغت بنسيلفانيا بلازا، نجحت في ركن دراجتها النارية بين سيارتين. ذلك أنّ نيويورك كانت تمثّل جحيماً بالنسبة إلى الدراجات: الأرصفة محفورة، ومنع ركن الدراجات في كلّ مكان.

- إنّها المحطة الأخيرة، ينبغي أن ينزل جميع الركاب!

قفزت كامي على الرصيف، وساعدت أمّها على إقفال دراجة البي إم دابليو.

الثانية بعد الزوال وأربع وعشرين دقيقة.

سينطلق القطار في غضون عشر دقائق.

- أسرعي يا عزيزتي!

عبرتا الشارع وسط حركة سير مزدحمة، واندفعتا داخل البناية التي تأوي محطة «بين ستايشن».

فقد كانت هذه المحطة في الماضي، إذا صدّق المرء الصور القديمة المعروضة في بهوها، بناية فخمة، مزينة بأعمدة من الصوان الوردي، تعلوها ظلّة من زجاج. وكانت ردهتها بحجم ردهة كاتدرائية، بِمَيازيبَ ونوافذ زجاجية ضخمة، وتماثيل من الرخام.

لكنه زمن ولّى. فقد جرى هدم البناية تحت ضغط المستثمرين وصنّاع التسلية في بداية الستينيات ليُشيّد مكانها مركّب بلا روح، مكوّن من مكاتب وفنادق وقاعات فرجة.

شقّت نيكي وكامي طريقهما بصعوبة وسط الزحمة لتبلغا شباك التذاكر.

- بطاقة ذهاب إلى إيست هامبتون من فضلك.

استغرقت الموظفة التي تشبه في مظهرها بوذا وقتاً طويلاً لطبع التذكرة. كانت المحطّة تعجّ بالمسافرين. إنّها المحطة الرابطة بين واشنطن وبوسطن، كما تربط بين عدد من محطات نيوجرسي ولانغ أيسلاند.

- أربعة وعشرون دولاراً. سينطلق القطار بعد ستّ دقائق.

أخذت نيكي فكّتها، وأمسكت بيد ابنتها لكي تقودها إلى الطابق تحت أرضي حيث توجد سكة الحديد.

كان الناس في السلم يتدافعون. الزحمة خانقة: صراخ الأطفال، تشابك الأكتاف، اصطدام الحقائب بالسيقان، روائح العرق.

- الرصيف رقم 12، من هنا؟

سحبت نيكي ابنتها من يدها وصعدتا جاريتين إلى المقطورة المناسبة. أعلن المراقب: «سينطلق القطار بعد ثلاث دقائق».

- اتّصلي بمجرّد وصولك!

حرّكت كامي رأسها موافقة.

حين مالت نيكي على ابنتها لتقبّلها، لاحظت ارتباكها.

- أنت تخفين عنّي شيئاً، أليس كذلك؟

بمقدار انزعاجها من ضبطها متلبّسة، شعرت بالراحة وهي تتخلّص من عبء كان يثقل كاهلها، وانتهى بها الأمر أن باحت لأمها:

- جيريمي... لقد انتزع منّي وعداً بألا أخبرك، ولكن...

خمّنت نيكي:

- ألَقيْته مؤخّراً؟

- نعم. لقد جاء يبحث عنّي يوم السبت عند الساعة الثانية عشرة زوالاً، عند فراغي من درس التنس.

يوم السبت، يعني قبل ثلاثة أيام...

استرسلت كامي قائلة:

- كان يبدو قلقاً ومستعجلاً. كان واضحاً أنّه يواجه مشاكل.

- هل أخبرك ما هي؟

- قال لي فقط إنّه بحاجة إلى المال.

- أأعطيته مالاً؟

- رافقني إلى البيت لأنني لم أكن أحمل معي مبلغاً ذا بال.

- كان أبوك موجوداً في البيت؟

- كلا، كان يتناول الغذاء مع ناتاليا.

كان القطار يهمّ بإغلاق الأبواب، والمسافرون المتأخرون يجرون للّحاق به، وصعود المقطورات.

استطردت كامي وقد استعجلتها أمّها:

- منحت جيريمي مائتي دولار كانت بحوزتي، لكنها لم تكن كافية، فحاول فتح خزينة بابا.

- أتعرفين رقم الخزينة السري؟

- إنّه أمر في غاية السهولة: تاريخ ميلادنا!

وأعلنت إشارة صوتية عن انطلاق القطار.

قالت كامي موضحة وهي تقفز إلى المقطورة:

- كانت تحتوي على خمسة آلاف دولار، وقد وعدني بأن يعيدها قبل أن ينتبه بابا لذلك.

بقيت نيكي على الرصيف وقد شحب لونها بشكل أفزع كامي.

- أتظنّين أن مكروهاً حلّ به يا ماما؟

أُغلق الباب من دون أن تلقى جواباً عن سؤالها.

14

تلبّدت السماء بالسحب فجأة. في غضون بضع دقائق حجبت غيوم سوداء الأفق. تسير السيارات ببروكلين كوينز إكسبرس متلاصقة. كان سبستيان في طريقه إلى العنوان الذي دلّه عليه سانتوس، وكان باله مشغولاً برسم خطّ بين ما سيبوح به لمكتب التحقيقات الأميركية وما سيسكت عنه. لم يكن الاختيار سهلاً. فمنذ أن امتطى سيارته وهو يحاول استجماع قطع الصورة التي فُقِدَت كثير من عناصرها. وكان سؤال يؤرقه: لماذا يخفي جيريمي كيلوغراماً من الكوكايين في البيت؟ وهو سؤال لم يجد له غير جواب واحد: لأنّه سرق. لعلّه سرق صاحب حانة البوميرانغ. ولمّا وجد نفسه متورّطاً، لا بدّ أنه ذعر، وفرّ لكي يفلت من بائع المخدرات.

لكن، كيف تراه تورّط في هذا الكابوس؟ فابنه لم يكن غبياً، ومتاعبه الأخيرة مع العدالة لم تكن إلا بسبب سرقة صغيرة وجنحة لا خطورة فيها. لم يكن في سلوكه ما يدلّ على أنه من كبار المنحرفين.

وفجأة انسابت حركة السير، ودخل سبستيان في نفق طويل قبل أن يخرج إلى الهواء الطلق من جديد في الجانب الآخر من أحواض إيست ريفر.

اهتزّ هاتفه بغتة في جيبه. إنه جوزيف.

- آسف أن أخبرك بأننا فوّتنا العقد. فورتينبورغ هي التي ستجري الخبرة لبيرغونزي.

تقبّل سبستيان الخبر بلا تبرّم. كل هذا لا قيمة له الآن. استغلّ اتصال جوزيف ليطلب منه من دون مقدمات:

- هل لديك فكرة عن ثمن كيلوغرام من الكوكايين؟

- عفواً! أتمزح؟ ماذا جرى لك؟

- إنّها قصة طويلة، سأحكيها لك فيما بعد. قل لي، هل لديك فكرة؟

- لا علم لي بذلك البتّة. عندما كنت في العشرين من عمري، كنت أستعمل السنغل مالت ويسكي...

- لا وقت لدي للمزاح يا جوزيف.

- حسناً. يتوقّف ذلك على جودة البضاعة ومصدرها...

- هذه معلومات يمكن أن أخمّنها دون حاجة إليك. هل يمكن أن تبحث على الإنترنت؟

- انتظر، سأفتح محرّك البحث غوغل. هيّا، ماذا سأكتب؟

- تدبّر الأمر، لكن بسرعة.

بلغ سبستيان منطقة بها أشغال والهاتف ما زال ملتصقاً بأذنه، وأومأ له عامل مكلّف بتنظيم حركة السير بأن ينعطف على منعرج حادّ قاده نحو الجنوب حيث كانت سيارات متزاحمة عند مخرج الطريق المنحرف.

استأنف جوزيف بعد هنيهة:

- عثرت على مقالة قد تفيدك. اسمع: «**تسعون كيلوغراماً من**

الكوكايين بقيمة 5,2 مليون دولار ضبطت بأحد مواقف السيارات بواشنطن هايتس».

وراح سبستيان يقوم بعملية حسابية ليعرف ثمن الكيلوغرام الواحد:

- إذا كان تسعون كيلوغراماً بمبلغ 5,2 مليون، فثمن الكيلوغرام الواحد هو. . .

بادره جوزيف قائلاً:

- أقل من 60000 دولار بقليل. هل يمكن أن تشرح لي الآ. . .

- سأشرح لك فيما بعد يا جوزيف، ينبغي أن أنهي المكالمة الآن. شكراً لك.

التمعت في عيني سبستيان بارقة أمل. تبادرت إلى ذهنه خطّة. لا شك في أن هذا المبلغ مبلغ ضخم، لكنّه ليس باهظاً. بإمكانه أن يتدبّره نقداً بسرعة. سيتصرف هكذا: يذهب إلى حانة بوميرانغ ويعرض على المدعو دريك ديكر صفقة «لا يمكن أن يرفضها»: سيسدّد له ثمن المخدرات كاملاً مع عمولة بقيمة 40000 دولار تعويضاً عن الإزعاج، مقابل أن يعده بنسيان جيريمي.

كثيراً ما كان أفراد عائلته يردّدون: «المال هو القوّة الوحيدة التي لا تناقَش أبداً»، وهي عبارة اقتبسها جدّه عن أحد الكتب ليجعل منها تعويذة. شعار عائليّ يرفعه آل لارابي منذ عقود.

لطالما احتقر سبستيان هذا الأسلوب في التفكير، لكنّ الدور جاء عليه اليوم ليعمل به. هو الآن واثق كل الوثوق بالمستقبل. سيسوّي الأمر بالمال، سيعوّض بائع المخدرات حتى يبعد الخطر عن أسرته. وبعد زوال الخطر، سيستعيد ابنه، ويسهر على تربيته ومراقبة

رفقته. لم يفت الأوان بعد. لعلّ هذه الحادثة ستكون هي سبيل الخلاص!

اتّخذ قراره إذن، ولم تعد لديه دقيقة يضيعها.

بلغ مفترق الطرق المؤدّي إلى منهاتن بريدج، وعوض التوجه نحو الجسر، عاد أدراجه إلى بروكلين قاصداً البوميرانغ.

15

- ابتعد أيّها النذل!

تناهت هذه الشتيمة لمسامع سبستيان بينما كان يمرّ بمحاذاة جماعة من المشرّدين كانوا يفتشون في قمامة بيتزا هوت تقع في فريديريك ستريت. كانوا يحتسون علب بيرة يخفونها في أكياس كرافت ويرسمون حدود مناطق نفوذهم بشتم المارّة وسائقي السيارات الذين يجرؤون على التحديق فيهم.

- يا وجه الجرذ!

تكسّر كوب على واقية السيارة الأمامية، فأغلق سبستيان زجاج النافذة وشغل المسّاحات.

رائع...

هذه هي أوّل مرّة تطأ فيها قدمه هذا الجزء من المدينة، وتمنّى لو تكون الأخيرة. كانت تفوح في الهواء المشبع بالدهون روائح مطبخ بورتوريكاني، وتتسلّل من النوافذ أنغام كاريبية، وتزيّن مداخل المنازل أعلام دومينيكية. لم يكن يخفى على أحد أنّ بوشويك إقطاعية لاتينية. كان الحي مترامي الأطراف، يضمّ عشرات المجموعات السكنية، وقد حافظ على طابعه الخشن. لم تكن جماعات البرجوازيين التي اجتاحت ويليامبورغ قد تدفّقت بعد على

هذه المنطقة. لا وجود هنا لأبناء الأغنياء والفنانين الجدد ومطاعم البيو. كلّ ما هنالك مستودعات ومنازل ذات سقوف صفيحية وعمارات طوب، وجدران مكسوّة بالخربشات، وقطع أرضية عارية غطّتها الأعشاب الطفيلية.

كان الشارع واسعاً وفارغاً تقريباً. أبصر سبستيان حانة بوميرانغ، لكنّه فضَّل ركن سيارة الجاغوار بزقاق موازٍ. أقفل سيارته، وتوجَّه إلى فرديريك ستريت بينما بدأت تسقط قطرات المطر الأولى، مُضفيَة على بوشويك جوّاً مظلماً وكئيباً.

لم تكن بوميرانغ حانة مريحة وعصرية، بل مكاناً حزيناً وقذراً، يقدّم أرخص أنواع الويسكي وسندويشات لحم رخيصة. أُلصِقت على الستار الحديد لافتة تعلن أنّ الحانة لا تفتح أبوابها إلا عند الخامسة مساء، ومع ذلك كانت ثلاثة أرباع الستار الحديد مفتوحة، تسمح بالوصول إلى باب المحلّ.

بينما كان المطر يشتدّ، نقر سبستيان على الزجاج غير الشفاف، لكن لم يُجِبْه أحد. تشجّع ورفع الستار الحديد تماماً ثمّ حاول فتح الباب، فانفتح. تردّد لحظة وقد بلّله المطر. كان المكان كئيباً وغارقاً في العتمة. وقرر أخيراً أن يدخل. أغلق الباب خلفه حتى لا يراه المارّة.

هتف وهو يتقدّم:

- هل من أحد ها هنا؟

ما كاد يخطو بضع خطوات في الحجرة حتى رفع يده إلى فمه، فقد خنقته رائحة كريهة تبعث على الغثيان. كان المكان يفوح برائحة صدأ نفّاذة. . .

رائحة الدم.

راودته الرغبة في الهرب، لكنه سيطر على خوفه. تراجع إلى أن بلغ الجدار، وتحسّسه بحثاً عن مفتاح الإنارة. لمّا انتشر الضوء الشاحب في الغرفة، انخلع قلبه.

كانت الحانة مطلية بالدم، تكسو أرضيتها بقع سوداء لزجة، ويلطخ جدرانها المبنية بالطوب سائل أرجواني، كما أن أثاثها الخشبي كان ملوّثاً. حتى الرفوف المحمّلة بالقناني خلف الكونتوار وصلتها البقع.

كان المكان أشبه بمجزرة. في أقصى الغرفة اضطجع رجل في بركة من الدم.

دريك ديكر؟

ارتعب سبستيان، ولم يعد يتحكم في دقّات قلبه. لكنه تقدّم نحو الرجل رغم الذعر والقرف. كان مستلقياً على ظهره، جثته الضخمة المشوهة لا تزال تنزف. بدا البلياردو الذي يرقد فوقه القتيل كمذبح شعائري نصب لتقديم قربان غريب. كان الرجل فارع الطول، أصلع وذا شارب، يتجاوز وزنه المائة كيلوغرام. بدا بكرشه المنتفخة وجسده المكسو بالشعر كأحد أعضاء الدببة (Bears)، وهم فئة من المخنثين يبالغون في إظهار علامات الفحولة. كان سرواله الكاكي مشبعاً بالدم الأسود، وقميصه مفتوحاً يكشف عن جذعه كاملاً، وقد خرجت الأحشاء من بطنه، واختلطت أمعاؤه وكبده ومعدته فيما يشبه سائلاً لزجاً.

لم يستطِع سبستيان المقاومة، فأحنى وشرع يتقيأ سائلاً أصفر يصعد من معدته الفارغة. مكث على هذه الحال بضع ثوانٍ، وقد قطع أنفاسه.

سيطر على فزعه، ولمح حافظة نقود بارزة من جيب القميص، فسحبها وتفحص رخصة السياقة: إنه دريك ديكر.

وبينما كان يعيد المحفظة إلى مكانها، عبرت جسد دريك حركة متشنجة، فانتفض سبستيان. شعر بطنينٍ في رأسه. أهي حركة ما بعد الوفاة؟ انحنى على الوجه الدامي.

فتحت «الجثة» عينيها بغتة، فجفل سبستيان وأطلق صرخة:

اللعنة!

كان دريك يحتضر، لكن أنفاسه كانت تمتزج بخيط الدم الرفيع الخارج من فمه.

ما العمل؟

اختلط الخوف بالدوار والاختناق.

أخرج هاتفه النقال، وركّب رقم الطوارئ. طلب بعث سيارة إسعاف إلى 17، فريديريك ستريت، لكنه رفض الإفصاح عن هويته.

أنهى المكالمة وجاهد لكي يلقي نظرة أخرى على وجه دريك وجسده.

الظاهر أنهم عذبوا الدبّ بلا رحمة، حتى أن الدم نفذ من خلال الثوب الصوفي السميك الذي يغلف أرضية البليياردو، وجرى من خلال الجوانب المثقوبة حتى بلغ أسفل الطاولة. كان الرجل في هذه الأثناء قد فارق الحياة.

شعر بسائل حمضي لاذع يحرق بلعومه. كان فمه جافّاً، وساقاه ترتعشان، والتبست الأفكار في ذهنه. كان عليه أن يعجّل بمغادرة المكان، ويؤجّل التفكير إلى وقت لاحق. وبينما كان يتأكّد من أنّه لم يترك شيئاً خلفه، لاحظ على الكونتوار زجاجة ويسكي أميركي (بوربون) موضوعة بجانب كأس امتلأ نصفه، تطفو بداخله قشرة

برتقال وقطعتان كبيرتان من الثلج. توقف عند هذا التفصيل. مَن شرب من هذا الكأس؟ لعلّه «السفاح» الذي عذّب دريك، لكن، بما أن قطعتَي الثلج لم تذوبا بعد، فهذا معناه أنه لم يمضِ وقت طويل على مغادرة المعتدي للمكان. أو لعلّه لا يزال في الصالة...

بينما كان سبستيان يتّجه نحو الباب، سمع طقطقة، فتجمّد في مكانه. ماذا لو كان جيريمي مسجوناً هنا؟

التفت فرأى طيفاً يتسلّل خلف ستار خشبي، ثمّ لاح من خلف الألواح الخشبية رجل عظيم الجثة ارتمى عليه. كان موشوم الوجه، مفتول الذراعين، يحمل في يده مدية ذات شفرة بحدين. تجمّد سبستيان في مكانه من الخوف. لم يقوَ حتى على رفع يده للاحتماء لمّا أهوى عليه الرجل بالمدية.

16

صاحت نيكي وهي تقتحم القاعة على حين غرّة:

- أَلْقِ ما بيدك!

تسمّر العملاق في مكانه من أثر المفاجأة. ارتمت عليه نيكي مستغلّة ذهوله، ووجّهت له ركلة أصابت خاصرته، لكنها لم تُفقده توازنه مع ذلك. استعاد المجرم تيقّظه على الفور. لم يبدُ عليه الخوف من مواجهة خصمين. يخيّل لمن يلمح الابتسامة السادية التي ارتسمت على محياه أنّ مجيء نيكي أضفى على المواجهة شيئاً من الإثارة.

اغتنم سبستيان فرصة شدوه الماوري لكي يلوذ بالجزء الخلفي من القاعة، لا جُبناً، بل لعجزه عن تدبير هذا النوع من المواقف. فهو لم يتشاجر قطّ، ولم يوجِّه طيلة حياته لكمة لأحد، ولم يتلقّ من أحد لكمة أبداً.

ظلّت نيكي تنازل المجرم بمفردها. تلافت طعنة أولى بحركة رشيقة، ثم طعنة ثانية، ومضت تراوغ وتداور وتخاتل، مستعملة كلّ ما تعلّمته في دروس الملاكمة، لكن العملاق سيصيبها لا محالة. ينبغي أن تنزع سلاحه مهما كلّفها الأمر.

كان عليها أن تتجاهل رائحة الدم، وتنسى شبح الموت المخيّم على المكان، وألا تفكر إلا في جيريمي.

ليس من حقي أن أموت قبل العثور على ابني.

التقطت عصا بلياردو كانت موضوعة على الطاولة. ورغم أنها لم تكن في خطورة المدية، إلا أنها جنّبتها الإصابة. مضت تلوّح بها في الهواء، وأردفت الهجمات على الماوري برشاقة حتى إنّها أصابته مرّة، مما زاد من سخطه. زمجر من الغضب، كما لو أنه زعق من هذه اللعبة التي طالت أكثر من اللازم، فصوّب لها ضربة دائرية بمديته، كسرت عصا البلياردو نصفين.

ارتبكت نيكي، فلم تجد بدّاً من رميه بنصفَي العصا على وجهه، لكنه اعترضهما بحركة من ذراعه.

شعر سبستيان وهو يرى نيكي في خطر كما لو أنّ قوّة جديدة دبّت في أوصاله، فالتقط طفاية حرائق معلقة على الجدار، وأزال حلقتها لتتطاير رغوتها على وجه غريمه، ثم صاح به:

- خذْ هذه أيها النذل!

بوغت القاتل، فحمى عينيه بيديه من دون أن يرخي سلاحه. واغتنمت نيكي إغلاق عينيه، فسدّدت له ركلة بين فخذيه بينما أهوى عليه سبستيان بالقارورة بكل ما أوتي من قوّة.

أصابت إحدى الضربات رأس الماوري، ممّا جعله يستشيط غضباً. أفلت منهما، ورمى نيكي بالمدية، كادت تصيبها، لكنها ارتطمت بالجدار.

نسي سبستيان خوفه، وتملّكه شعور بالنشاط والخفّة، فقرّر أن يواجه الماوري وجهاً لوجه، غير أنّ قدمه زلقت في بركة الدم. همّ بأن يقوم وقد شدّ قبضته لكي يوجّه لخصمه لكمة، لكن الأوان كان

قد فات. فقد بادره الماوري بلكمة قوية قذفت به خلف الكونتوار. حاول سبستيان التشبّث بأحد رفوف الحانة لكي يخفّف من سقطته، لكنّه سحب معه الزجاجات والمرآة العريضة، فتكسرت جميعها محدثة ضجة تصمّ الآذان. بقي مستلقياً على الأرض من أثر الصدمة، لا يقوى على الوقوف. أمّا الماوري، فاغتنم الفرصة لكي يجهز على نيكي. أمسك برقبتها حتّى أسقطها على طاولة البلياردو، فوقع شعرها في بركة الدم اللزج، ممّا جعلها تصدر صرخة مرعوبة، لا سيما حين وجدت نفسها لا تبعد إلا بضعة سنتمترات عن جثة دريك.

انهال الماوري على وجهها باللكمات، حتى بدت كما لو أنها شرعت تفقد وعيها. مدّت ذراعها في محاولة أخيرة لكي تلتقط أيّ شيء تعثر عليه يدها، ولم يكن ذلك الشيء سوى نصف العصا المكسورة.

استجمعت قواها وقد أصابها الإرهاق، وسدّدت للماوري ضربة بالعصا ذات الطرف الحاد على وجهه، فانزلقت من جبينه إلى حاجبه، وفقأت عينه. صرخ صرخة رهيبة من شدّة الألم، فتحرّرت نيكي من قبضته. سحب العصا من عينه وراح يترنح وهو يدور على نفسه.

كان آخر ما رأى هو سبستيان يتقدّم نحوه مُشهراً قطعة من المرآة المكسورة. وإذا بتلك القطعة اللامعة الحادة تقطع شريانه السباتي.

17

- ينبغي أن نغادر هذا المكان يا نيكي!

كان الجو ثقيلاً وخانقاً.

كان الدم الفائر من عنق الماوري الذي خرّ قرب الكونتوار قد تجمَّع في بركة حمراء، محوّلاً الحانة إلى مجزرة رهيبة.

كان المطر يرتطم بزجاج النوافذ، والريح ينفخ، لكنه لم يكن من الشدّة بحيث يحجب صوت صفارة سيارة إسعاف تتقدّم في الشارع.

حثّ سبستيان نيكي قائلاً:

- قومي، لقد وصل الإسعاف، ولن تتأخّر الشرطة في الوصول.

ساعدها على الوقوف، ثمّ أمسك بها وقال:

- لا بدّ من أن يكون للحانة باب خلفيّ.

عثرا فعلاً على باب في خلفية الحانة، فخرجا منه، وعبرا فناء يقود إلى زقاق صغير. انتعشا وهما يستقبلان الهواء النقي والمطر المتساقط. كانا، بعد كل ما عاشاه في الحانة، بحاجة إلى حمام حتّى يغتسلا من الدمْ العالق بجسديهما.

قاد سبستيان نيكي إلى الجاغوار. شغّل المحرك وانطلق بسرعة

فائقة بينما كانت أنوار سيارات الشرطة الزرقاء تومض في عتمة بوشويك الكئيبة.

ابتعدا كفاية ليكونا في مأمن من الخطر، ثمّ ركن السيارة أمام سياج أحد الأوراش بشارع مقفر من شوارع بيدفورد ستويفسنت.

أطفأ المحرّك. كان المطر يسقط بغزارة حجبت الرؤية من داخل السيارة.

هتفت به نيكي وهي على حافة نوبة عصبية:

- اللعنة، ماذا كنت تصنع هناك؟ لقد اتّفقنا على أن نلتقي لدى الشرطة!

- أتوسل إليك أن تهدئي! خيّل إلي أنّني قادر على تسوية الأمور بمفردي، لكن تقديري كان خاطئاً... وأنت كيف عرفت...

- أردتُ أن آخذ فكرة عن المكان قبل أن أدلي بتصريحاتي للشرطة. لقد أحسنت صنعاً، أليس كذلك؟

كانت فرائص نيكي لا تزال ترتعد.

- من هم أولئك الأشخاص؟

- الملتحي هو دريك ديكر، والعملاق لا أعرفه.

أنزلت واقية الشمس، ونظرت إلى نفسها في المرآة. كان وجهها متورماً، وملابسها ممزقة، وشعر رأسها متلاصقاً بفعل الدم الذي جفّ عليه.

تساءلت بصوت مخنوق:

- كيف حشر جيريمي نفسه في كابوس كهذا؟

وبينما أغلقت عينيها، شعرت كما لو أنّ سدّاً بداخلها ينهار، وسرت في جسدها موجة، فانفجرت باكية. وضع سبستيان يده على كتفها ليواسيها، فأزاحتها.

تنهّد ودعك جفنيه. كان رأسه ثقيلاً، يضنيه صداع شديد. وكان يشعر بالرعشة داخل قميصه المبلل. لا يُصدّق أنّه ذبح شخصاً فأرداه قتيلاً. كيف ترك تلك الدوامة تسحقه بهذه السرعة؟

استيقظ ذلك الصباح بسكينة في بيته الفاخر، فوجد أشعة الشمس تغمر غرفته. وها هو الآن ملطخ اليدين بالدم، مهدّد بالسجن، ولا يعلم شيئاً عن ابنه.

رغم الصداع الذي كان يسحق رأسه، وشعوره بالغثيان، حاول ترتيب أفكاره. اجتاح ذهنه سيل عارم من الصور: لقاءه بنيكي، اكتشاف المخدرات، جثّة ديكر المشوّهة، وحشية الرجل الماوري، قطعة الزجاج الحادة التي غرسها في عنقه...

دوّى الرعد واشتدّ المطر. كانت الريح تهزّ السيارة الغارقة في الأمطار الطوفانية كمركب وسط العاصفة. مسح البخار المتجمّع على زجاج النافذة بكمّه. لم تكن الرؤية تتجاوز ثلاثة أمتار.

علّق قائلاً وهو يلتفت إلى طليقته:

- لم يعد بوسعنا إخفاء ما نعرف عن الشرطة.

هزّت نيكي رأسها.

- لقد قتلنا شخصاً، وبذلك تجاوزنا نقطة اللاعودة. لن نفصح عن أيّ شيء!

- إنّ الخطر الذي يتهدّد جيريمي أكبر ممّا كنّا نخشاه.

أزاحت خصلات كانت تخفي وجهها وقالت:

- لن تساعدنا الشرطة يا سبستيان. لا تكن واهماً. سيعثرون على جثتين، وسيكونون بحاجة إلى متّهم.

- إنّه دفاع شرعي عن النفس!

- سيكون من الصعب إثبات ذلك، صدّقني. والصحافة ستبتهج بخبر كهذا.

تأمّل حجّتها. كان يعلم في قرارة نفسه بأنّها محقّة. فما وقع في الحانة قبل وصولهما لم يكن تصفية حساب بسيطة بين تاجري مخدرات، بل مجزرة حقيقية. ورغم أنه ما زال لا يعرف كيف وصل جيريمي إلى هذا المستنقع، أدرك أنّ المشكلة صارت أعوص. لم يعودا يخشيان اعتقال ابنهما والزجّ به في السجن، بل صارا يخافان على حياته.

رنّ هاتفاهما في الوقت نفسه. سُمعت أنغام من هاتفه سوناتة باخ «بارتيتا»، وأنغام أغنية «ريف» من هاتفها. نظرت نيكي إلى شاشتها: إنّه سانتوس. نفد صبره وهو ينتظر بمقرّ خليّة مكتب التحقيقات الفيدرالي: الكارد. قررت ألا تردّ على المكالمة. ستُطلعه لاحقاً على ما حصل.

ألقت نظرة على هاتف سبستيان. كانت الأرقام الأولى تشير إلى أن المكالمة دولية. قوّس حاجبيه تعبيراً عن جهله بهذا الرقم، لكنّه قرّر، بعد تردّد قصير، أن يجيب عن المكالمة وقد شغّل مكبّر الصوت.

سأله صوت رجالي بلكنة أجنبية:

- السيد لارابي؟

- أنا هو.

- أتخيّل أنّك متلهّف لمعرفة أخبار ابنك.

شعر سبستيان بغصّة في حلقه.

- مَن أنت؟ وماذا صنعت بـ...

قاطعه الصوت قبل أن يتمّ كلامه:

- فرجة ممتعة يا سيد لارابي!

ثمّ أقفل الخط.

راح كلّ منهما ينظر إلى الآخر مصعوقين إلى أن سمعا رنّة حادة جعلتهما ينتفضان.

توصّلت نيكي برسالة نصيّة من عنوان مجهول. فتحتها فوجدتها فارغة إلا من مُرفقة استغرق تحميلها لحظة.

قالت:

- إنه شريط فيديو.

ضغطت على زرّ التشغيل وهي ترتعش.

مضت يدها تبحث بشكل لاإرادي عن ساعد سبستيان كما لو أنها تبحث عن شيء تتشبّث به.

وبدأ عرض الشريط.

كانت تنتظر الأسوأ، وكانت الأمطار الطوفانية لا تزال ترتطم بسطح السيارة.

18

كانت خليّة مكتب التحقيقات الفيدرالي المتخصّصة في اختفاء القاصرين قد اتّخذت مقرّها بالطابق السادس والخمسين من ميتلايف بلدينغ، وهي ناطحة سحاب تنيخ بهيكلها الهائل ذي الزوايا الحادّة على بارك أفنيو.

نفد صبر لورونزو سانتوس، فراح يتململ في مقعده بقاعة الانتظار، وهي عبارة عن ممرّ طويل من المعدن والزجاج، يشرف على شرق منهاتن.

نظر إلى ساعته بعصبيّة. لقد مضى ما يزيد على الساعة وهو ينتظر نيكي. أتُراها أعرضت عن التبليغ عن اختفاء ابنها؟ لماذا؟ هذا سلوك غير منطقي. إنْ فعلت ذلك ستجعله يبدو تافهاً في نظر صديقه الموظّف بمكتب التحقيقات الفيدرالي الذي طلب منه مقابلة عاجلة.

أخرج سانتوس هاتفه، وبعث برسالة أخرى إلى نيكي. كانت تلك محاولته الثالثة، لكن يبدو أنّها لا ترغب في الردّ على مكالماته، وهو ما يثير غضبه. كان واثقاً من أنّ ظهور طليقها لارابي لا يبشر بخير، وأنه هو السبب في ذلك.

اللعنة! لا يتصوّر نفسه قادراً على فقدان نيكي. لقد هام بحبّها منذ ستة أشهر، وكان يراقب أبسط تصرفاتها وتحركاتها، ويترصّد

أفكارها، ويحاول تأويل كلّ كلمة تصدر عنها. كان في حالة ترقّب مستمرّ، يعيش منذ أن تعلّق بها في الحرمان والخوف. حوّلته جاذبيتها إلى مدمن على حبّها.

شعر بموجة من القلق تندفع من بطنه، وأحسّ بالحرارة والتعرّق.

لم يكن حبّ نيكي من النوع الذي يُشعر المرء بالطمأنينة والسكينة، بل عاطفة جيّاشة تفقده الصواب، وتجعله متعلّقاً بملمسها ورائحتها ونظرتها. إنّ مفعول حبّها عليه أشبه بمفعول مخدرات قوية تقود إلى الإدمان القاسي، وتسبّب الآلام المبرحة. ترك نفسه يسقط في شِباكها، ويبدو ضعيفاً بلا شخصية. لقد فات أوان العودة إلى الوراء.

نهض من شدّة القلق والغضب، واقترب من النافذة. أعجبه سحر المنظر رغم برودة الغرفة وما تولّده في النفس من نفور. كان يظهر سهم كريزلير بلدينغ الحديد وتماثيل النسور التي تعلو البناية، وخلفها تلوح حبال جسر ويليامزبورغ والقوارب الطافية على إيست ريفر، ثمّ في البعيد، على امتداد البصر، تتراءى سقوف كوينز.

ندّت عن الشرطي تنهيدة موجعة. ودّ لو يتخلّص من إدمانه على هذه المرأة. لماذا يتعلّق بها على هذا النحو؟ لماذا هي بالذات؟ بماذا تتميّز عن غيرها من النساء؟

حاول كعادته أن يعود إلى رُشده، لكنّه كان يعلم أنّ محاولته لا جدوى منها، وأنه لن يستطيع إخضاع العواطف لصوت العقل. فنيكي أنثى يستحيل تدجينها وإخضاعها، تشعّ في أعماق عينيها شعلة تقول: «سأظل حرّة إلى الأبد. لن تسيطر عليّ قطّ»، هذه الشعلة بالذات هي التي كانت تصيبه بالخبل.

أغمض عينيه. كان المطر قد كفّ عن الهطول، والسماء تعبرها سحب زرقاء. أشعلت في بداية هذه الليلة المتوتّرة أضواء المدينة

تباعاً. وبدت نيويورك من علوّ مائتي متر فارغة وهادئة، كسفينة راسية تطوّقها هالة خياليّة.

شدّ قبضته ووضعها على الزجاج.

لم يكن عاطفياً ولا رومانسياً. لقد نجح في فترة وجيزة في أن يجد لنفسه مكاناً في صفوف شرطة نيويورك. كان يتّقد طموحاً، خبيراً بالميدان، يحافظ على النظام في حيّه. نجح في فكّ كثير من القضايا الهامة. كما أنّه لم يكن يتردّد في نسج علاقات بالمنحرفين من أجل إقامة شبكة مُحكمة من المخبرين. وقد كانت محاربة المخدرات شعبة صعبة وخطيرة، لكن كان يملك من الجَلَد ما أهّله لمخالطة هذه الشريحة التي لا يُنصح بالتعامل معها. كيف لشخص مثله أن يترك العواطف تعبث به؟ لم يكن من أولئك الذين يستلذون العويل، لكن لا مناص من الاعتراف بأنّ الخوف صار يلازمه اليوم، وهاجس فقدان نيكي لا يفارقه، وأدهى ما يخشاه هو أن ينتزعها منه رجل آخر.

انتفض وهو يسمع رنين هاتفه، ظنّ أنّ الفرج قد أهلّ، غير أن المتّصل لم يكن غير مساعده مازانتيني.

فتح الخطّ معلناً:

- سانتوس.

جاءه صوت مساعده ضعيفاً لا يكاد يُسمع، يغطي عليه أزيز حركة المرور وصفارات الإنذار.

- هناك طارئ يا سيدي: مقتل شخصين في بوشويك، وأنا متوجّه إلى مكان الحادث.

مقتل شخصين...

استيقظت في سانتوس على الفور غريزة الشرطي.

- أين؟

- في حانة تدعى بوميرانغ تقع بفريديريك ستريت.
- حانة دريك ديكر؟
- إنها مجزرة حقيقية حسب رجال الإسعاف.
- سألحق بكم.

أغلق الخط وخرج إلى الممرّ حيث ضغط على زرّ المصعد ليُنزله إلى المرآب التحت أرضي حيث ركن سيارة الخدمة.

الخامسة والنصف.

كان عليه أن يقضي ساعة جهنميّة في الطريق بسبب الازدحام، لكنه شغّل القنديل الدوّار وصفارة الإنذار حتى يفسحوا له الطريق.

يونيون سكواير، غرينيتش فيليج، ليتل إيطالي...

العثور على جثتين عند دريك ديكر...

منذ أن شرع سانتوس العمل ببوشويك، ألقى القبض على «غريزلي ديكر» مرات عديدة، لكنه لم يكن من مروّجي المخدرات الكبار. لم يكن يحتلّ في بنية تجارة المخدرات موقع الرؤساء الكبار، بل كان موزّعاً حذراً وجباناً إلى حدّ ما، وكثيراً ما كان يتحوّل إلى عميل للشرطة.

شغل هذا اللغز بال سانتوس قليلاً، لكن صورة نيكي سرعان ما عادت لتملأ عليه فكره. ألقى نظرة خاطفة على شاشة هاتفه، فلم يعثر بها على شيء.

عبر جسر بروكلين والقلق ينهشه، وأسئلة محيّرة تحاصر ذهنه. أين هي في هذه الأثناء؟ مع مَن؟ كان يتحرّق لمعرفة الجواب.

كان عليه بالطبع أن يركز على التحقيق في الجريمة، لكنّه ما إن وصل إلى الجانب الآخر من الجسر، حتّى قدّر أنّ الجثتين يمكنهما الانتظار، فغيّر وجهته صوب منزل نيكي.

19

بروكلين.

بعدما عاد سبستيان ونيكي إلى الشقة، جلسا في المطبخ خلف الكونتوار الخشبي حيث وُضع الحاسوب. وصلت نيكي الجهاز بالتيار وفتحت بريدها الإلكتروني لكي تشغّل الفيديو. بعد الخوف الذي خلّفته المشاهدات الأولى، حلّ التساؤل والبحث عن قرائن لمحاولة فكّ رموز الشريط، وهي عملية لم تكن ميسّرة على شاشة الهاتف الصغيرة.

حوّلت الشريط نحو برنامج خاص بمعالجة الأشرطة الرقمية، فسألها سبستيان وقد فاجأته سهولة معالجتها للكمبيوتر:

- أين تعلّمت كلّ هذا؟

- أمارس المسرح مع فرقة هواة من ويليامزبورغ، وأصوّر مقاطع لإدماجها في مسرحياتنا.

حرّك سبستيان رأسه. كان يعرف هذا التوجّه الجديد، لكنّه لم يقتنع يوماً بتوظيف السينما على خشبة المسرح، إلا أنّ الوقت لم يكن مناسباً لمناقشة هذا الموضوع.

شغّلت نيكي الفيديو على شاشة الحاسوب بمقاس سبعة عشر بوصة، لكن تكبير الصورة جعلها تبدو غير واضحة تماماً، فراحت

تضبط حجمها إلى أن حصلت على صورة لا بأس بها. كان الشريط بلا صوت، وتظهر عليه بعض البقع. كما أن صورته يطغى عليها اللون الأخضر، يبدو كما لو أنه صوّر بكاميرا مراقبة.

شاهدا الشريط مرّة أخرى بسرعة عادية. كانت مدّته تقلّ عن أربعين ثانية، لكن رغم قصره، كان المشهد مؤلماً. صوّر بكاميرا ثابتة، معلّقة في مكان عالٍ من أجل مراقبة رصيف محطة مترو أو أحد محطات قطار الضاحية. يشرع التسجيل بدخول القطار إلى المحطة. ما كادت الأبواب تنفتح حتى ترجّل صبيّ -جيريمي- واختفى بسرعة على الرصيف. ظهر وهو يتدافع ليشقّ طريقه وسط الزحمة قبل أن يظهر رجلان كانا يطاردانه. لم تتجاوز المطاردة ثلاثين متراً حتّى أمسكا به. طرحاه أرضاً على نحوٍ عنيف. وفي الثواني الأخيرة، استدار أحد الرجلين وحدّق في الكاميرا، ثمّ علت وجهه ابتسامة بغيضة.

إثر ذلك ابيضّت الشاشة معلنة عن نهاية الشريط.

شعرت نيكي بالخوف يشلّ أوصالها، لكنّها حاولت السيطرة على مشاعرها حتى تستطيع استنطاق الفيلم.

سألته:

- أين جرى هذا في نظرك؟

حكّ سبستيان رأسه.

- ليس عندي أدنى فكرة. يمكن أن يحدث هذا في أيّ مكان.

- حسناً، سأشغّل الشريط ببطء من جديد، وإذا لزم الأمر، سنشاهده لقطة بلقطة لنجمع أكبر عدد من القرائن.

حرّك رأسه موافقاً، وركّز انتباهه.

ما كادت نيكي تشغّل الشريط حتى أشار سبستيان بسبّابته إلى الشاشة. كانت ثمّة إشارة إلى التاريخ، موجودة أسفل يمين الصورة.

قرأ وهو يحدّق في الشاشة:

- الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأوّل.

- بالأمس...

بدا في مقدّمة الصورة القطار وهو متوقّف في الرصيف، فضغطت على زر «تثبيت الصورة» لكي تتفحّص العربة من كثب.

- هل تستطيعين تكبير الصورة؟

استجابت لطلبه. الظاهر أنّ الأمر يتعلّق بميترو من طراز قديم، ذي عربات ملونّة بالأبيض والأخضر الباهت، ومقابض بلون معدني براق.

- انظري! هناك شارة أسفل العربة.

عزلت المكان الذي توجد به الشارة بواسطة تقنية التراكباد، ثمّ ضبطت الصورة. لم يكن الشعار واضحاً، لكن كان بالإمكان تمييز وجه ينظر إلى السماء.

سألها:

- هل يوحي لك هذا بشيء؟

أومأت برأسها دلالة على النفي، ثمّ استدركت:

- لا أظنّ أنه...

ثمّ شغّلت الشريط. انفتحت الأبواب، فخرج مراهق يرتدي سترة من نوع «تادي»، مصنوعة من الصوف والجلد.

ثبّتت الصورة من جديد لكي تكبّرها. كان المراهق ينظر إلى الأرض ويضع على رأسه قبعة فريق ميتس للبيسبول.

قال سبستيان ملاحظاً:

- لسنا واثقين حتّى من أنّ الأمر يتعلّق بجيريمي.

- أنا متأكدة من أنّه هو. إنّها هيئته وقبّعته ولباسه.

راح سبستيان يحدّق في الشاشة بارتياب. كان المراهق يرتدي سروال جينز ضيق، وتي-شورت وحذاء رياضياً، على غرار سائر المراهقين في العالم...

أضافت نيكي:

- ثق بغريزتي الأمومية.

ولكي تستدلّ على كلامها، قطّعت نيكي الصورة قطعاً صغيرة لتُظهر في وسطها الـ«تي-شورت» الذي يرتديه الفتى. بذلت ما في وسعها لتوضيح الصورة المكبرة، فبدت تدريجياً كلمة «ذي شوترز» مكتوبة بحروف حمراء فوق خلفية سوداء على القميص القطني. فهتف سبستيان:

- إنّها فرقة الروك التي يهيم بها جيريمي.

أيّدت نيكي بحركة من رأسها كلامه، وتابعت عرض الشريط.

انطلق جيريمي خارج العربة بنوع من الاضطراب والارتباك شاقّاً طريقه وسط الزحمة للإفلات من مطارديه. وظهر الرجلان أخيراً في مجال تصوير الكاميرا. لعلّهما خرجا من عربة أخرى، لكنّهما لم يكونا يظهران إلا من الخلف.

شاهدا المقطع مرّات عديدة وعيونهما تحملق في الشاشة، لكن الصورة لم تكن واضحة بسبب الازدحام والبُعد.

ثم بلغا المقطع الأقسى، وهو الذي طُرح فيه ابنهما أرضاً أسفل سلّم الخروج. كانت الثواني الخمس الأخيرة هي الأكثر تأثيراً: بعد إلقاء جيريمي أرضاً، استدار أحد الرجلين وهو يبحث بعينيه عن الكاميرا ثمّ لاحت على وجهه ابتسامة هازئة.

صاح سبستيان:

- هذا النذل يعرف أنّ الكاميرا تصوّره، وهو يحاول أن يشمت بنا.

عزلت نيكي الوجه، وقامت بكلّ ما في وسعها لكي تجعله أوضح. كان ذا ملامح مثيرة: سحنة هازئة، لحية كثة، شعر دهني طويل، نظارات شمسية وقبعة تزلّج تغطي رأسه حتى أذنيه. وبعد قيامها بعمليات الضبط اللازمة، شغّلت الطابعة ذات الوضوح العالي لتطبع الصورة على ورق الصور الفوتوغرافية. وبينما كانا ينتظران أن تلفظ الطابعة الصورة، سأل سبستيان:

- ما القصد من موافاتنا بهذا الشريط؟ فهو لا يحتوي على تعليمات ولا على طلب فدية. إنه أمر غير منطقي.

- لعلّهم سيقومون بذلك لاحقاً.

تناول الصورة من علبة الطابعة ومضى يتفحّص الوجه باحثاً عن تفصيل قد يقوده إلى التعرف على صاحبه. كان يبدو كما لو أنه غيّر ملامح وجهه. أيعرفه؟ من الراجح أنه لا يعرفه، لكن من المستحيل عليه أن يجزم بذلك، لأن الصورة لم تكن واضحة، والرجل يرتدي نظارات وقبعة ويضع لحية لعلها مصطنعة.

شغّلت نيكي الشريط من جديد.

- لنركّز على المكان والديكور. ينبغي أن نتعرّف على المكان مهما كلّف الثمن.

قرّر سبستيان أن ينسى الوجوه والحركات لكي يركّز انتباهه على المحطة. كان الأمر يتعلّق بمحطة تحت أرضية، ذات قوس بيضاوي الشكل، بها سكّتان، وجدرانها مزينة بمربّعات خزفية صغيرة بيضاء، ولوحات إشهارية.

- هل يمكن تكبير هذه اللوحة الإشهارية؟

كبّرت نيكي اللوحة. كان الأمر يتعلّق بملصق ضاربٍ إلى الحمرة يعلن عن كوميديا «ماي فير لايدي» الموسيقية. وبضبط الصورة تمكّنت من أن تقرأ:

- شاتولي. مسرح باريس الموسيقي.

أصيب سبستيان بالخرس.

باريس...

- ماذا يفعل جيريمي بباريس؟ غير معقول!

ومع ذلك...

هو يذكر الآن أين رأى رمز الوجه الذي ينظر إلى السماء: خلال سفرته الأولى -والأخيرة- إلى باريس قبل سبع عشرة سنة.

فتح صفحة جديدة على الحاسوب، وشغّل محرّك البحث على الإنترنت، ثمّ كتب «ميترو باريس» على غوغل، وما هي إلا نقرتان حتّى ظهر على الشاشة موقع الشركة المستقلّة للنقل بباريس.

- إن الشعار البادي على العربة هو شعار وسائل النقل العمومي الباريسية.

قالت نيكي بوثوق وهي تركّز على لوحة زرقاء تبدو عليها حروف اسم المحطة مكتوبة باللون الأبيض ومقطّعة:

- سأتعرف على محطة المترو.

استغرقت العملية بضع دقائق. كان اسم المحطة طويلاً ومعقّداً، ولا يظهر في الشريط إلا لبضعة أجزاء من المائة من الثانية، وبشكل عرضي. وبعد بحث سريع على الإنترنت، استنتجت أن الأمر يتعلّق على الأرجح بمحطة «باربيس روشوارت».

إنّها محطة تقع شمال العاصمة الفرنسية.

أخذ قلق سبستيان يتزايد. أيّ طريق سلكه هذا الشريط لكي يصلهما؟ فشبكة المراقبة الباريسية توظف في ممرات المترو وأرصفته، على غرار نيويورك، آلاف الكاميرات، لكن ما تلتقطه ليس في متناول العموم. فهي موصولة بحواسيب الأمن، والأمن لا يسلّم الأشرطة إلا لمصالح الشرطة في إطار مسطرة قضائية صارمة.

اقترحت نيكي:

- حاول أن تركّب الرقم.

قصدت الأرقام التي ظهرت على شاشة الهاتف قبيل أن يهدّدهما الصوت المتوعّد قائلاً: «أتخيّل أنكما تتوقان لمعرفة أخبار ابنكما».

كانا قد حاولا الاتصال بالرقم مباشرة بعد التوصل بالشريط، لكن بلا جدوى. إلا أن الأمر مختلف هذه المرّة.

بعد رنّات ثلاث، فتح أحدهم الخط وقال بصوت مرح:

- «لونغ أو شا»، مرحباً!

لم يكن سبستيان يعرف من الفرنسية سوى بضع كلمات. فهِم من مخاطبه بشقّ الأنفس أن «لونغ أو شا» مقهى يقع بالمقاطعة الباريسية الرابعة. كان مخاطبه مجرّد عامل بالمقهى لا صلة له بهذه الحكاية، وأن مَن اتصل استعمل هاتف المقهى قبل ساعة، وهو ما استعصى على فهم الرجل وأثار غضب سبستيان.

- إنه يهزأ بنا! يسخر منّا!

فردّت نيكي:

- على كلّ حال، كل الطرق تؤدي إلى باريس.

نظرت إلى ساعتها ثمّ سألت:

- هل تحمل معك جواز سفرك؟

أجاب سبستيان بالإيجاب، لكنه لمّا فهم قصدها، فضل إثارة انتباهها:

- لا تقولي لي إنّك تنوين السفر إلى باريس اليوم؟

- هذا هو الشيء الوحيد الذي بوسعنا. أنت تفكّر كثيراً، لكنك لا تفعل شيئاً!

-انتظري، ألا تلاحظين أنّنا سنحرق المراحل إن قمنا بهذا؟ فنحن لا نعرف من هم هؤلاء الناس، ولا ماذا يريدون منّا، وبتصرّفنا كما يحلو لهم، فإننا نعرض نفسينا للخطر.

لكنّها كانت مصمّمة:

- افعل ما بدا لك يا سبستيان، أما أنا فسأسافر.

وضع رأسه بين راحتيه. صار الوضع خارج سيطرته. هو يعلم يقيناً أنّه لن ينجح في إقناع نيكي بالعدول عن السفر. ستسافر سواء أطاوعها أم لم يطاوعها. وما البديل الذي يستطيع اقتراحه عليها؟

قال مستسلماً وهو يبحث عن موقع ديلتا إيرلاينز:

- سأستشري بطاقتَيْ سفر.

أومأت إليه برأسها شاكرة، ثمّ صعدت إلى غرفتها لتحضير حقيبتها.

الرجاء التحقّق من معطياتك المصرفية.

لم يواجه سبستيان أيّ صعوبة في العثور على مقعدين في رحلة التاسعة وخمسين دقيقة مساء. دفع ثمنهما على الشبكة، وطبع الوصل والبطاقات. وبينما كان يتأهّب للحاق بنيكي، سمع رنّة جرس الباب فجفل. أغلق بحركة آلية شاشة الحاسوب المحمول، ثمّ اقترب من مدخل الشقة بخطوات لا تكاد تُسمع، ونظر من خلال ثقب الباب.

إنّه سانتوس.

لا ينقص غير هذا!

تناول بطاقات السفر من دون حسّ، ولحق بنيكي في الطابق العلوي. كانت تضع ملابسها في حقيبة رياضية كبيرة. قال لها بصوت خفيض وهو يضع أصبعه على فمه مومئاً لها بيده الأخرى أن تتبعه إلى غرفة جيريمي: «سانتوس».

بينما كان يقودها نحو النافذة، توقفت فجأة، وعادت أدراجها نحو المكتب لتلتقط آيباد ابنها الأحمر، ووضعته في الحقيبة.

رفع سبستيان عينيه إلى السماء.

- اسمع، أنا مصابة برهاب الطائرة. سأرتعب إن لم أستمع للموسقى.

فقال لها مستعجلاً:

- هيّا، أسرعي!

لحقت به، وساعدته في فتح النافذة. خرج هو أولاً، ثمّ مدّ لها يده ليساعدها على الإمساك بالسلم الحديد، ولاذا بالفرار تحت جنح الظلام.

20

- افتحي الباب يا نيكي!

كان سانتوس ينقر على الباب المعدني بمدخل الشقّة.

- أعلم أنّك هنا!

أهوى بعنف على الباب الحديد بقبضته من شدّة الغضب، لكنه لم يعمل إلّا على إيذاء يده.

اللعنة!

مضت ستّة أشهر على بداية علاقته بنيكي، ومع ذلك لم تقبل منحه نسخة من مفتاح الشقة.

لفتح هذا الباب يحتاج المرء مدفعاً...

نزل إلى الطابق السفلي، وقام بدورة حول البناية. كان الطابقان الأخيران مضاءين كما توقّع، فصعد عبر سلم النجدة ليصل إلى النوافذ. لاحظ أن إحداها تركت مفتوحة فتسلّل عبرها إلى غرفة جيريمي.

- نيكي؟

بلغ الممرّ، وطاف في الغرف الواحدة تلو الأخرى. كانت الشقّة فارغة، لكنّها متلفة. لقد خدعه ذلك الأبله، لارابي، لمّا ادّعى

أنهما تشاجرا! حاول استشفاف ما يكون قد وقع. إنّها سرقة ولا شكّ، وإلا لماذا حاولت نيكي أن تخفي عنه الحقيقة؟ ارتعد الهاتف المحمول في جيبه. مازانتيني مرّة أخرى، لقد عيل صبره. كان سانتوس واعياً بأنّ الوقت يضغط، وأنّ عليه الالتحاق بمسرح الجريمة بـ«بوميرانغ» على وجه السرعة، لكنّه قرر أن يتجاهل نداء مساعده.

شرع بتفتيش غرفة المراهق دون تحديد هدف معيّن. انساق وراء غريزة المحقّق. كان بادياً أنّ الغرفة فُتّشت بعناية فائقة. هل لهذا علاقة باختفاء الصبي؟ تفحّص حقيبة البوكر الموضوعة على السرير، ولم يفته اكتشاف أقراص السيراميك المزوّرة. أدرك، ودون أن يشتبه في الغاية من استعمالها، أنّها تشير إلى خيط ينبغي تقفّيه. وعند بلوغه الحمام، لم يتفاجأ لحالة الفوضى التي كانت تعمّه، وكذا أثر الأقدام والماء المحيط بحوض المرحاض. أحنى ولاحظ بقايا المسحوق الأبيض على الحافة. كان متيقّناً بأنّ الأمر لا يتعلق بمسحوق غسيل.

أهو الكوكايين...

أخذ من باب التحوّط عيّنة من بقايا المسحوق بواسطة عود تنظيف الأذن، ووضعه في كيس من أكياس البلاستيك التي لا تفارقه. كان واثقاً من أن التحاليل ستؤكّد حدسه.

منح نفسه خمس دقائق إضافية رغم استعجاله لمواصلة «التحريات». نزل إلى الطابق الأسفل، وفتّش الصالون. فتح الأدراج وتفحّص الرفوف. وبينما كان يهمّ بمغادرة البيت، لاحظ حاسوب نيكي المحمول موضوعاً على الكونتوار بالمطبخ. تقدّم، ورفع

الشاشة التي استنارت، فإذا به يرى صفحة موقع ديلتا إيرلاينز. نقّب أكثر، فعثر على مستند PDF يتضمّن بطاقتي سفر بالطائرة.

رمى بالحاسوب على الجدار وهو يلعن.

لقد اتفقت مع طليقها على السفر إلى باريس هذا المساء.

21

كان الليل قد خيّم.

تركت سيارة الجاغوار الطريق السريع لتتّجه إلى مطار جون كينيدي. تجاوزت مدخل موقف السيارات، وتقدّمت في المنحدر الحلزوني الذي يقود إلى الطوابق التحت أرضية الستة المخصصة لركن السيارات.

قال سبستيان وهو يركن السيارة:

- لا بدّ من أن تغيّري ملابسك.

كانا قد تركا المنزل على وجه السرعة من دون أن يتمكّنا من الاستحمام وتغيير ملابسهما. تفحصت نيكي ملابسها: كانت ممزّقة وملطّخة بالدّم. نظرت إلى نفسها في مرآة السيارة، فلاحظت كدمات على وجهها، وجرحاً على شفتها. كما أن شعرها لا يزال متلاصقاً.

- إذا تجوّلت وأنت بهذه الحال في المطار، لن يتأخر البوليس في إلقاء القبض علينا.

تناولت الحقيبة الرياضية الموضوعة على المقعد الخلفي، وغيّرت ملابسها بسرعة. ارتدت حذاء رياضياً، ثم سوّت شعرها وعقدته. إثر ذلك استقلا المصعد إلى منطقة المغادرة، واجتازا بلا

عراقيل إجراءات مراقبة الهوية وحواجز الأمان التي تفضي إلى مكان ركوب الطائرة.

وبينما كانا يصعدان الطائرة، اهتزّ هاتف سبستيان. إنّها كامي. كانت لا تزال في القطار الذي يقلّها إلى بيت جدّتها بلانغ إيسلاند. كان قطار لانغ إيسلاند متأخراً كعادته، لكن مزاجها كان رائقاً، وكان واضحاً أنّها لم تعُد غاضبة منه.

- إني متلهفة للكستناء الذي تشويه لي جدّتي في المدفأة!

التمعت ابتسامة خفيفة على وجه سبستيان من سعادته بسماع صوت ابنته وهي رائقة المزاج. وتذكّر للحظة خاطفة الأيام السعيدة التي قضتها الأسرة لما كان التوأمان ما زالا طفلين. كان هو ونيكي يأخذانهما إلى غابة «مين» لجني الكستناء. تذكّر النزهات التي كانوا يقومون بها في الهواء الطلق، وحرارة جمر المدفأة، وطقطقة المقلاة المثقوبة، والرائحة اللذيذة التي كانت تملأ الغرفة، والأصابع المسودة، والخوف الممتع من الاحتراق لحظة تقشير الكستناء المحمّر...

- هل لديكما أخبار عن جيريمي؟

أعاده سؤال كامي إلى الواقع.

- سنعثر عليه يا حبيبتي، لا تقلقي.

- هل أنت مع ماما؟

- نعم، سأناولها الهاتف لتتحدّث إليك.

ناول سبستيان طليقته الجهاز، وتقدّم في الممرّ الذي يتوسط صفوف المقاعد بطائرة الإيرباص. ولمّا بلغ المكان المخصّص لهما، وضع الحقيبة في صندوق الأمتعة، ثمّ جلس.

- لا تنسي إبلاغنا بأيّ خبر يصلك عن أخيك.

سألت كامي:

- أين أنتما بالتحديد؟

غمغمت نيكي:

- في الطائرة.

- معاً؟! إلى أين تذهبان؟

شعرت نيكي بالضيق، فسارعت إلى إنهاء المكالمة.

- أنا مضطرة لتركك يا حبيبتي. لقد أقلعت الطائرة. إنّني أحبك.

- ولكن يا أمّاه...

أغلقت نيكي الخط، وأعادت الهاتف إلى طليقها قبل أن تتسلّل إلى مكانها بجوار النافذة.

نظر إليها سبستيان وهي تغور في مقعدها وتتشبّث بمسنديه. كانت تخشى ركوب الطائرات منذ مرحلة زواجهما، ويبدو أن الخوف ما زال يلازمها رغم مرور السنين.

كان التوتّر بادٍ عليها وهي تحدّق في المضيفات. كانت تراقب بحذر من خلال النافذة الطيارين والحمالين ومئات الأنوار المحيطة بجنبات الممرّات. وكان أبسط ضوضاء، وأدنى تصرّف مريب يضاعف من توجّسها.

حاول سبستيان أن يهدّئ من روعها قائلاً:

- الطائرة هي أكثر وسائل النقل أماناً...

فنهرته وهي تتكوّم في مقعدها قائلة:

- هلاّ أرحتني من هذا الكلام!

تنهّدت وأغمضت عينيها. كانت ترزح تحت وطأة التعب

المتراكم والتوتّر والخوف على مصير ابنها، وكلّ ما عاشته في الأيام الأخيرة. هي بحاجة إلى أن تجري عشرين كيلومتراً أو أن تتسلّى بتوجيه ضربات قوية لكيس من الرمل عوض أن تواجه هذه التجربة المرعبة. شعرت بضيق في التنفس وبجفاف في الحلق. لم يسعفها الوقت بالطبع لكي تجلب معها دواء مضاداً للقلق. ولكي تنسى الواقع، وضعت على رأسها سماعات آيباد ابنها، واستسلمت لأنغام الموسيقى، فاستعادت شيئاً فشيئاً التحكم في تنفّسها. كانت قد بدأت تشعر بالهدوء لمّا طلبت منها إحدى المضيفات إطفاء الآيباد، فاستجابت للطلب على مضض.

بلغت طائرة الإيرباص الضخمة إلى بداية المدرج، ثمّ توقفت قليلاً قبل أن تنطلق.

أعلن قبطان الطائرة:

- الطائرة على وشك الإقلاع.

اهتزت أرضية المدرج تحت وزنها الهائل.

شعرت نيكي بنفسها تنخضّ وترتجّ وهي على وشك أن تُصاب بسكتة دماغية. لم تؤمن يوماً بأنّ رفع طائرة تزن خمسمائة طن في الهواء أمراً طبيعياً. لم تكن تطيق، مع أنها لم تكن تعاني من رهاب الأماكن المغلقة، أن تُشدّ إلى مقعد، وتُحرم من الحركة لمدّة ست ساعات أو سبع. إنّه قلق يمكن أن يتحوّل بسهولة إلى ذعر. كانت تشعر، بمجرد ركوب الطائرة، بأنّها تتنازل عن كامل حريتها، وأنها تفقد السيطرة على الوضع، هذا في الوقت الذي علمتها الحياة ألا تعتمد إلا على نفسها. لم تكن تقبل بتوكيل أمرها إلى طيار مجهول وغير مرئي.

لما بلغت الطائرة الضخمة نهاية المدرج، نزعت بصعوبة هيكلها

الحديد الثقيل من الأرض. راحت نيكي تتلوّى في مقعدها وهي تشعر بالضيق إلى أن بلغت الطائرة علو خمسة عشر ألف قدمٍ. وبمجرّد ما سُمح بتشغيل الآيباد التفّت في غطاء وسارعت إلى وضع السماعات على أذنيها. ولم تكد تمضي دقائق حتى غطّت في النوم.

لمّا تيقّن سبستيان من أنّها نامت، التفت نحوها وأطفأ المصباح الذي يعلو مقعدها، وخفّض من مكيف الهواء حتى لا تصاب بنزلة برد.

قضى بضع دقائق وهو يراقبها نائمة. كانت تبدو بالغة الضعف مع أنها دافعت عن حياتهما ظهيرة ذلك اليوم باستماتة. عرض عليه أحد مضيفي الطائرة أن يشرب شيئاً، فطلب كأس فودكا شربه بسرعة ثمّ طلب آخر. كان التعب بادياً في عينيه، وكان يشعر بألم حادّ متواصل في الجزء العلوي من رقبته. يشعر كما لو أنّ رأسه مضغوط داخل ملزمة.

دَعَكَ فوديه لتخفيف الألم. حاول أن يعثر على معنى هذا الموقف العبثي. ما الخطر الذي ينتظره؟ ومن هو العدو الذي سيواجهه؟ لماذا اعتدوا على جيريمي؟ لماذا ارتكب هذه الحماقة ولم يطلب مساعدة الشرطة؟ كيف لهذه المغامرة ألّا تنتهي بالسجن؟

لقد كانت الساعات الاثنتا عشرة الأخيرة من أصعب لحظات حياته، وأكثرها اضطراباً. هو من دأب على التخطيط لحياته، حتّى في أبسط تفاصيلها، واعتاد على تجنّب اللامتوقع، وحرص، حدّ الهوس، على جعل حياته تسير على سكة ثابتة مستقرّة، ها هو ذا يجد نفسه الآن غارقاً في المجهول.

اكتشف هذه الظهيرة جثّة مبقورة، وتقاتل في بركة من الدم،

وذبح رجلاً عملاقاً يبلغ ضعف طوله. . . وها هو هذا المساء متوجّه إلى أوروبا مع امرأة كان قد أقسم على أن يبعدها من حياته إلى الأبد.

نزع حذاءه وأغمض عينيه، لكنّه كان في حالة من الاضطراب منعته من النوم. وتزاحمت صور المذبحة في مخيّلته، متدافعة مع صور الاعتداء على جيريمي في الشريط، لكن تحت تأثير التعب وأزيز الطائرة المتواصل، أخذت تنتابه شيئاً فشيئاً إغفاءة هادئة. قادته أفكاره، من شدّة إصراره على فهم معنى ما يقع له، إلى أول لقاء له بنيكي. كان ذلك قبل سبع عشرة سنة، وكان لقاء صِدامياً. . . في يوم الرابع والعشرين من ديسمبر بنيويورك، قبل أعياد الميلاد بساعات. . .

سبستيان
قبل سبع عشرة سنة...

لماذا لم أباشر هذا الأمر من قبل؟

ماسيز عبارة عن كتلة منازل تقع بين برودواي وسيفنث أفنيو. كان «أكبر متجر في العالم» يوم الرابع والعشرين من كانون الأوّل غاصاً بالمتسوقين. لم يمنع الثلج، الذي شرع في السقوط بكثافة منذ الظهر، سكان نيويورك، وكذا السياح، من الإقبال على التسوق قبل سهرة ليلة الميلاد. كانت فرقة كورالية تعزف أناشيد عيد الميلاد أمام شجرة سرو عظيمة، بينما راح الزبائن والمتسكّعون يحتشدون في السلم الآلي قبل أن يتفرقوا على طوابق البناية العشرة، ليجِدَّ كلّ منهم في البحث عن بغيته من ملابس ومواد تجميل وساعات ومجوهرات وكتب وألعاب. . .

ماذا أفعل ها هنا؟

يدفعني طفل هائج، وتسحق قدمي امرأة عجوز، وتصيبني الزحمة بالدوار. ما كان عليّ أن أجازف بالمجيء إلى هذا المكان البغيض. راودتني فكرة العودة أدراجي، لكنّني لم أستسِغْ الذهاب إلى مأدبة ليلة الميلاد العائلية من دون هدية لأمّي. كنت متردّداً. أأهديها وشاح حرير؟ لقد قدّمت لها هذه الهدية السنة الماضية. أم

أهديها حقيبة يد؟ ثمنها باهظ! فلأهدها عطراً إذن؟ لكن كيف سأختاره؟

الأمر أيسر بالنسبة إلى أبي. كان بيننا تواطؤ خفي يخدمنا معاً: أهديه في السنوات الزوجية علبة سيجار، وفي السنوات الفردية زجاجة كونياك.

تنهّدت وأنا أنظر من حولي متحيّراً وسط هذا الحشد من الناس الذين حسموا اختياراتهم. رشّتني إحدى البائعات بحركة خرقاء بعطر نسائي فرُحْتُ ألعن. التقطت، بعد أن نفد صبري، أوّل قارورة سقطت عليها يدي، وسارعت إلى أقرب نقطة أداء.

لعنتُ وأنا في الطابور الموظّفة التي بلّلتني.

- ثلاثة وخمسون دولاراً يا سيدي.

وبينما كنت أخرِج حافظة نقودي لكي أدفع، لمحت شابة حسناء ذات قوام رشيق على بعد أمتار منّي. تتأهّب لمغادرة المكان المخصّص لمواد التجميل بخطى واثقة. كانت تتّشح بثوب صوفي وتتّخذ مظهراً بالغ الأنوثة والإثارة: قبّعة رمادية وتنّورة قصيرة ملتصقة بجسدها وحذاء ذو كعب، وحقيبة يد من «فاشيون».

- سيدي؟

بينما كنت أفتّش في جيب سترتي عن نظارتي، أعادتني موظفة الصندوق إلى الواقع. مددتُ لها بطاقة ائتماني دون أن أحوّل بصري عن تلك الحسناء المجهولة... فرأيتُ أحد الحراس يستوقفها. طلب منها الرجل، وكان يحمل جهاز تولكي وولكي، بحزم أن تفتح ثوبها. انتفضت عليه، وراحت تومئ بيدها، لكن طقم أدوات تجميل انزلق من تحت معطفها وسقط على الأرض، فانفضح أمرها وهي متلبّسة بالسرقة.

أحكَمَ الحارس قبضته عليها، وطلب بالراديو التعزيزات.

تناولتُ مقتنياتي واقتربتُ منها، فلاحظتُ بقع النمش على وجهها، وعينيها الخضراوين، وقفازيها الجلديين الطويلين. لم يكن من عادتي التحديق في النساء: فمنهاتن مكتظّة بالفاتنات، ثمّ إنّني لا أؤمن بالحبّ من أول نظرة، لكن الأمر هذه المرّة كان مختلفاً. إنها لحظة من تلك اللحظات التي يعيشها المرء مرّة واحدة في حياته. لحظة ينتابه فيها شعور كما لو أنّه على موعد. لم تكن أمامي غير ثلاث ثوانٍ لأحسم أمري ولا أفوّت الفرصة. إمّا أن أغتنمها الآن أو تضيع إلى الأبد. فتحت فمي وأنا لا أعرف ما سأقول، وخرَجَت الكلمات من تلقاء نفسها، كما لو أنّ أحداً يتحكّم فيها من بُعد. قلت لها وأنا أضربها بمرفقي على صدرها:

- أتظنين أنّك ما زلت في الريف يا ماديسون؟

نظرت إليّ كما لو هبطت عليها من كوكب آخر. والتفتُّ إلى الحارس وقلتُ له:

- إنّها ابنة عمي ماديسون، جاءت من كونتاكي.

ونظرتُ إلى طقم التجميل، وقلتُ:

- أهذا كّل ما عثرت عليه هديّة للعمّة «بيث»؟ يبدو أنك لم تُتعبي نفسك في البحث يا عزيزتي!

ثمّ قلت للحارس بنبرة متواطئة:

- باستثناء سلع «وولمارت»[1]، هي لا تعرف شيئاً. تظنّ أن نقط الأداء توجد دائماً في الطابق السفلي.

---

(1) شركة أميركية عالمية متخصصة في البيع بالمفرَّق، أسَّسها سام والتون (Sam Walton) سنة 1962 (المترجم).

لم يصدّق كلمة ممّا قلت، لكنّه لم يشأ أن يزعج نفسه في جوّ الابتهاج المخيّم في المتجر. اقترحتُ أن أؤدي ثمن طقم التجميل مقابل أن يضرب صفحاً عن الحادث. ثمّ بادرتُ المرأة الشابة قائلاً:

- ستؤدين لي المبلغ لاحقاً يا ماديسون!

وغمغم الحارس بنبرة متعبة:

- حسناً، حسناً!

شكرته على تفهّمه بابتسامة، وتبعته إلى أن بلغنا صندوق الأداء، فأدّيت ثمن الطقم بسرعة، لكنني لمّا التفتّ، كانت الحسناء المجهولة قد تبخّرت.

*

نزلت السلم المتحرّك في الاتجاه المعاكس وأنا أقفز على الأدراج رباعاً رباعاً، وعبرت الجناح المخصّص للعب، قبل أن أجد نفسي في الشارع الرابع والثلاثين. كانت ندف الثلج الضخمة تسقط. إلى أين اتّجهت؟ يميناً أم شمالاً؟

قرّرتُ أن أتّجه يساراً. لم يسعفني الوقت لارتداء نظارتي، ونظري قصير، وبذلك فمن الأكيد أنني لن أعثر عليها أبداً.

كان الصقيع قد شرع يتكون ممّا جعل الطريق زلقاً جدّاً، وكان من العسير عليّ العدوَ بسبب المعطف وما أحمله من علب. مشيتُ على حافة الطريق رغم ازدحام حركة المرور حتى أتلافى زحمة المارة، لكن سيل السيارات سرعان ما جعلني أندم على هذه الفكرة. فقد قفزتُ محاولاً العودة إلى الرصيف، لكن اندفاعي جعلني أزلق وأسقط على الأرض مصطدماً بعنفٍ بأحد المارة.

قلت له وأنا أنهض:

- آسف!

لمّا اعتدلت، فتّشت في جيب معطفي عن نظارتي، ووضعتها على عيني. . . إنّها هي!

قالت وهي تنهض:

- أهذا أنتَ من جديد؟ ماذا أصابك حتّى صرت تصدم الناس هكذا؟

- مهلاً! عليك أن تشكريني أوّلاً! لقد أخرجتك من ورطتك!

- لم أطلب منكَ ذلك. ثمّ، هل يبدو عليّ أنني قادمة من كونتاكي؟

فاجأتني وقاحتها. كانت ترتعش، ورحت أنظر إليها وهي تدعك كتفيها بيديها.

قالت وهي تبتعد:

- إننا نتجمّد من البرد. قد نلتقي يوماً.

- انتظري، هل يمكن أن نشرب كأساً معاً؟

قالت وهي تومئ برأسها إلى مدخل محطة هيرالد سكوار في الجانب الآخر من الشارع:

- ينبغي أن ألحق المترو.

- أدعوكِ لشرب كأس نبيذ رفيع في بريانت بارك كافيه، قريباً من هنا. سيُشعرك بشيء من الدفء.

وارتسمَت على محياها ابتسامة غامضة.

- حسناً، لكن لا تحاول أن تمضي بعيداً، فأنت لست من النوع الذي يستهويني. . .

*

يقع بريانت بارك كافيه خلف بناية الفنون الجميلة بمكتبة نيويورك.

تكون الحديقة صيفاً كجزيرة من الخضرة بين ناطحات سحاب ميدتاون، يرتادها حشدٌ من الطلبة والعمال في فترة الفسحة لكي ينصتوا إلى مقطوعة موسيقية أو قراءة جهرية، أو لكي يلعبوا الشطرنج، أو يستمتعوا بالتهام هوت دوغ، لكن في نهاية ظهيرة هذا اليوم الشتوي، كان المكان أشبه بمحطة تزلج. يظهر المارّة من خلف زجاج النافذة الضخمة ملفوفين في معاطفهم السميكة وهم يتقدّمون على الثلج بصعوبة كما يفعل الإسكيمو في المناطق القطبية.

- قبل أن تسأل عن اسمي، فأنا أدعى نيكي.

- تشرّفنا، وأنا سبستيان لارابي.

كان المقهى مزدحماً بالرواد، ومن حسن حظّنا عثرنا على مائدة غير مشغولة تطلّ على حلبة التزلج.

سألت وهي تضع كأسها:

- هذا النبيذ حرّيف، أليس كذلك؟

- حرّيف؟! إنه من نوع غريو-لاروز 1982...

- إنه رائع! لا داعي لأن تغضب...

- هل تعرفين ثمنه؟ وتنقيطه في دليل باركر؟

- كلا، ولا يهمّني أن أعرف. هل ينبغي أن أستطيبه لمجرد أنّه باهظ الثمن؟

حرّكت رأسي، وغيّرت الموضوع:

- أين تقضين ليلة الميلاد؟

أجابتني باستخفاف:

- مع بعض الأصدقاء. فنحن نحتلّ بناية بالقرب من الأحواض. نلتقي فيها لنكرع الكؤوس وندخن الحشيش ونتسلّى. يمكن أن تأتي إن شئت...

- لمنادمة متسكّعين يحتلون منزلاً مهجوراً؟! كلا، شكراً.

- حسناً. هل يُسمح بالتدخين هنا؟

- لا أظن...

- للأسف.

- ماذا تشتغلين؟ لعلّك طالبة؟

- أدرس المسرح، وأشتغل في التصوير لدى إحدى وكالات عارضات الأزياء. وأنت؟

- أنا صانع آلات موسيقية.

- صحيح؟

- أصنع آلات الكمان وأصلحها.

- شكراً، فأنا أعرف معنى صانع آلات موسيقية! مَن تظنني؟ امرأة متخلّفة من كونتاكي؟

رشفَت جرعة من كأسها.

- الواقع أن هذا النبيذ لا بأس به. لمن اقتنيت هذا العطر؟ لعشيقتك؟

- لأمّي.

- المسكينة. استَشِرْني في المرّة القادمة. هكذا ستتجنّب أخطاء الذوق.

- أجل، المرّة القادمة سأستشير سارقة.

- ما أسرعَك إلى الكلام البذيء!

- أجيبي بجدّ، هل أنت معتادة على هذا النوع من السرقات؟

قالت من دون أن تفقد أعصابها:

- هل تعرف ثمن أحمر شفاه؟ ثق بي: السارقات لسن دائماً كما نعتقد.

- قد يتسبّب لك هذا في مشاكل كبيرة.

ردّت وهي تومئ إلى حقيبتها:

- ولهذا السبب بالذات أجده في غاية الإثارة!

ذُهلت وأنا أنظر إلى حقيبتها المليئة بمواد التجميل التي نزعت عنها بعناية بطاقات الباركود.

- لا أفهم. ألا تكسبين حياتك بالعمل؟

- الحقيقة أن هذا لا صلة له بالمال. إنها رغبة لا تقاوم في السرقة، نزوة لا أستطيع مقاومتها.

- أهو مرض؟

- قد يكون هوساً بالسرقة.

هزّت كتفيها ثم استرسلت:

- ينبغي أن تجرّب المخاطرة والأدرنالين. شيء ممتع للغاية.

- قرأتُ في مكان ما أنّ علماء النفس يعتبرون هوس السرقة وسيلة للتعويض عن حياة جنسية غير مُرضِية.

ردّت وهي تضحك:

- فكرة تافهة. من هذه الناحية، أظنّك أخطأت الطريق يا صديقي.

لمحت داخل حقيبتها، بين علب مواد التجميل، جيباً دقيقاً قديماً مزيناً كتب عليه: **الحب في زمن الكوليرا**.

قلت بصدق:

- إنها روايتي المفضلة.

- أنا أيضاً أعشق هذا الكتاب!

عثرنا أخيراً، أنا وهذه الفتاة الغريبة، على قاسم مشترك بيننا. لكنها لم تدَعْ لحظة الوفاق هذه تدوم طويلاً.

- وأنت، ما برنامجك هذا المساء؟

- الميلاد عيد عائلي، سأستقلّ القطار بعد ساعة لألحق ببيت والديّ، وأقضي معهما هذه الليلة.

قالت وهي تقهقه:

- يا لك من ولدٍ وديع! ستضع نعالك بجوار شجرة الميلاد، وتحضّر كوب حليب ساخن لبابا نويل؟

حدجتني بنظرة ماكرة ولاحت على وجهها ابتسامة خبيثة، بادرتْ بالهجوم من جديد:

- ألا تريد أن تفكّ أزرار ياقتك؟ أتضايق من الرجال الذين يعقدون زرّ الطوق.

تنهّدت ورفعت بصري إلى السماء.

استطردَت:

- وحلاقتك غير مناسبة تماماً، بالغة الرزانة، عتيقة. ما أضجرها!

مرّرتْ أصابعها في شعري ونفشته. تراجعتُ إلى الخلف، لكنها لم تكفّ.

- وسترتك؟ ألم ينبّهك أحد إلى أننا لم نعد في سنة 1930؟ لماذا لم تضع ساعة جيب بما أنك تلبس بهذا الشكل؟

لم أعد أطيق انتقاداتها، فقلت:

- إذا كان مظهري لا يعجبك، لا شيء يجبركِ على البقاء.

أنهت كأسها وقامت.

- أخبرتكَ سلفاً بأنّ دعوتك لي ليست بالفكرة الجيدة.

- أجل. البسي رداء «باتمان» هذا وانسحبي! أكره مَن هم مِن فصيلتك.

فأجابت بنبرة غريبة:

- ما زلت لم ترَ شيئاً!

ثمّ زرّرت معطفها وغادرت المقهى.

رحت أنظر إليها من خلال زجاج النافذة الضخمة وهي تشعل سيجارة، وتسحب منها نفساً، ثمّ غمزتني واختفت.

*

بقيت جالساً إلى المائدة للحظة حتى أنهيت كأس النبيذ على مهل وأنا أتأمّل ما حدث. فككت زرّ طوق قميصي، ونفشت شعري، وفتحتُ سترتي التي كانت تشدّ صدري. الحقّ أنني صرت أتنفس على نحو أفضل.

طلبتُ الحساب وفتّشت في سترتي عن محفظة نقودي لكي أدفع. غريب... فتّشت مفزوعاً في كل جيوبي قبل أن أكتشف أخيراً أنّ تلك الآفة سرقت حافظة نقودي!

*

آبر إيست سايد،

عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً

استيقظت على ضجة تصمّ الآذان. فتحت عيني ونظرت إلى الساعة. كان أحدهم يضغط على زرّ جرس الباب بلا انقطاع. التقطت نظاراتي من فوق منضدة السرير وغادرت غرفتي. كان المنزل فارغاً وبارداً. ذلك أنني أخطأت موعد القطار إلى لانغ أيسلاند لمّا حاولت الإبلاغ عن حافظة نقودي المسروقة، واضطررت إلى قضاء السهرة بمفردي بمنهاتن.

مَن الطارق في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ فتحت الباب، فإذا بسارقتي منتصبة أمامي تحمل في يدها زجاجة خمر.

بادرتني متهكّمة ورائحة الفودكا تفوح منها:

- يا له من ولد مثير بهذه المنامة!

- ماذا تصنعين هنا؟ أتجرئين على طرق بابي بعد أن سرقت حافظة نقودي؟

أزاحته بحركة واثقة، وأفسحت لنفسها مدخلاً إلى الشقة وهي تترنح قليلاً. كانت ندف الثلج لا تزال لاصقة بشعرها. أين كانت تتسكّع في هذا البرد؟ عبرت الصالون وأعادت لي حافظة نقودي قبل أن تتهاوى على الأريكة.

قالت وهي تلوّح بزجاجة الفودكا:

- بحثت عن النبيذ الذي ذكرتَ لي، لكنني لم أعثر إلا على هذا.

اختفيت للحظة في الطابق العلوي وعدت بفوطة وغطاء. وبينما كنت أشعل النار، كانت تنشف شعرها وقد التفَّت في الملاءة، ثم لحقت بي أمام المدفأة.

وقفت إلى جواري ومدّت يدها لتلامس خدّي بأناملها. قمت ببطء. لاح في عينيها بريق غريب وفاتن.

طوّقتني بذراعيها، فقلت لها:

- كفّي، فأنت ثملى!

فقالت تستفزّني:

- بالضبط، اغتنم الفرصة إذن.

وقفتْ على طرفي قدميها وقرّبت فمها من فمي. كانت الغرفة معتّمة.

بدأت النار تتأجّج في المدفأة باعثة نوراً خافتاً ومتأرجحاً. تشمّمت رائحة بشرتها. تخلّصتْ من معطفها، فأبصرت صدرها النافر تحت القميص. شعرتُ بالانزعاج رغم الإثارة، فحاولتُ أن أقاوم للمرّة الأخيرة:

- أنتِ غير واعية بما تصنعين.

قالت وهي تقبّلني بلهفة:

- وساوسك تقزّزني.

ثم أسقطتني على الأريكة.

وامتزج ظلانا المنعكسين على السقف ليشكّلا ظلاً واحداً.

*

لمّا فتحت عينيّ في الصباح، شعرت برأسي ثقيلاً وجفنيّ متلاصقين، وفي حلقي طعم مقيت. كانت نيكي قد اختفت دون أن تترك عنواناً. قمتُ ومشيتُ بصعوبة إلى أن بلغت النافذة الزجاجية الضخمة. كان الثلج ما زال يسقط، محوّلاً نيويورك إلى مدينة شبحيّة. فتحت النافذة. كان البرد قارصاً، وأخذ الرماد يتطاير في المدفأة من الريح. أزلتُ زجاجة الفودكا الفارغة وأنا مشغول البال.

لمّا استعدتُ وعيي، اكتشفتُ رسالة مكتوبة بأحمر الشفاه على مرآة الصالون، وهي مرآة مذهبة قديمة كانت أمّي قد دفعت مقابلها مبلغاً باهظا في أحد المزادات. بحثتُ عن نظارتيّ، فلم أعثر عليهما. دنوت من المرآة وقرأت الرسالة: «أجمل لحظات الحياة هي تلك التي تظلّ راسخة في الذاكرة».

الجزء الثاني

وحيداً في مواجهة الجميع

«تتعلق النساء بك حين تشرعن في معرفتك. بعكس الرجال الذين يبادرون إلى تركك بمجرد ما يعرفونك».

جيمس سالتر، **أميركان إكسبرس**

22

يمنع الدخول إلى مسرح الجريمة

كان الشريط الأصفر الطويل الذي يطوّق المكان يرفرف من شدّة الريح تحت أنوار القناديل الدوّارة. شقّ سانتوس طريقه بين حشد الفضوليين ورجال الشرطة مشهراً شارة البوليس ليلتحق بمعاونه.

بادره مازانتيني وهو يرفع الشريط البلاستيكي الذي يحيط بمسرح الجريمة:

- سترى، إنّها مذبحة!

ما إن دخل سانتوس إلى الحانة حتّى شدَهته بشاعة المنظر. كان دريك ديكر ملقى على طاولة البلياردو مرعوب العينين، متصلّب الفم ومبقور البطن. وعلى بعد متر منه تقريباً، استلقت جثة أخرى. جثّة رجل ضخم، ذي وجه تعلوه وشوم، مذبوح بقطعة زجاج حادّة.

سأل وهو يقرفص بقرب الجثة:

- من هذا الرجل؟

فأجاب مازانتيني:

- لا علم لي. فتّشت الجثة، لكنّني لم أعثر على حافظة نقوده ولا على أوراقه، كل ما عثرت عليه هو هذا السكين في غمده.

تفحّص سانتوس الغمد. كان يحتوي على سكّين صغير ذي مقبض من الأبنوس وشفرة حادة.

أكد مازانتيني قائلاً:

- لم يستعمله، لكننا اكتشفنا شيئاً آخر.

تأمّل سانتوس هذا الشيء الآخر: إنه عبارة عن مدية KA-BAR حربيّة يستعملها جنود الجيش الأميركي، ذات مقبض عريض، مغشّى بدوائر جلدية، وشفرة فولاذية تتجاوز الخمسة عشر سنتمتراً، لعلّها استعملت في قتل ديكر.

قطّب سانتوس. فبالنظر إلى وضعية الجثتين، لا بدّ أن ثمة رجلاً ثالثاً كان محاصراً معهما في الحجرة.

- قلت لي إن أحدهم اتّصل بالرقم 911؟

- أجل، وأنا أنتظر موافاتي بالتسجيل. أجرِيَت المكالمة من هاتف محمول. والبحث جار للتّعرف على صاحبه. لن يتأخروا في إخبارنا بالنتيجة.

قال وهو ينتصب واقفاً:

- حسناً. اطلب من كروز أن يأخذ صوراً للوشوم الموجودة على وجه الضحية، وليحرص على أن تكون أوضح ما يمكن. قل له أيضاً أن يصوّر السكين الصغير. بمجرّد توصّلك بالصور، ابعثها لي عبر البريد الإلكتروني. سأعرضها على راينولدز بالمقاطعة الثالثة. ثمّة عالمة أنثربولوجيا تشتغل معهم، قد تساعدنا في فكّ اللغز.

- حسناً، سأتكفل بذلك.

ألقى سانتوس قبل مغادرة الحانة نظرة أخيرة على كلّ أرجاء الحجرة. كان تقنيو الشعبة العلمية يرتدون سترات بيضاء وقفازات من اللاتكس وهم منهمكون بصمت في عملهم. كانوا يجمعون كل

القرائن الممكنة وقد تسلّحوا بمصابيح الفليوريسنت وفَراشي إزالة الغبار.

قال كروز، وهو المسؤول عن الوحدة:

- هناك بصمات في كل مكان.

- حتى في قطعة الزجاج؟

- نعم، وعلى طفاية الحرائق أيضاً. وهي بصمات طرية وواضحة. يبدو أن من نفّذ العملية ليس محترفاً. إن كان مسجّلاً في قواعد بياناتنا، سنكشف عن هويته في غضون ساعات.

23

حطّت طائرة رحلة ديلتا إيرلاينز بمطار شارل ديغول الساعة الحادية عشرة صباحاً تحت شمس ساطعة. نام سبستيان ونيكي من تعبهما طيلة الرحلة تقريباً، وهو ما مكّنهما من استعادة قواهما لمجابهة يوم جديد بذهن أصفى من الليلة السابقة.

غادرا الطائرة، وانتظرا في طابور لاستكمال الإجراءات الجمركية.

سألت نيكي وهي تشغّل هاتفها:

- بماذا سنبدأ؟

- بالذهاب إلى محطة باربيس ربّما. سنسأل الناس هناك، ونحاول العثور على كاميرا المراقبة التي صوّرت الفيلم... إنّه الخيط الوحيد الذي بين أيدينا، أليس كذلك؟

حرّكت رأسها موافقة في صمت، وقدّمت جواز سفرها للشرطي، ثمّ اجتازا نقطة تفتيش الأمتعة، وبلغا باحة الركاب حيث وجدا حشداً من الناس خلف الحواجز: عائلات متعجّلة للقاء أقربائها، عشاق متلّهفون لرؤية معشوقيهم، سائقون يلوحون بلافتاتهم. وبينما كان سبستيان يتوجّه نحو سيارات الأجرة، أمسكت نيكي بذراعه:

- انظر!

كان ثمّة سائق يرتدي بذلة رائعة يرفع وسط الزحمة لافتة كتب عليها: السيد والسيدة لارابي.

تبادلا نظرة مشدوهة. لا أحد يعلم بسفرهما إلى باريس... باستثناء خاطفي جيريمي.

اتّفقا بإشارة من رأسيهما، وقرّرا التقدّم من السائق. لعلّه خيط قد يقودهما إلى ابنهما.

استقبلهما السائق بحرارة، وبلكنة أكسفوردية.

- مرحباً بكما في باريس، اسمي سبانسر. هلا تفضلتما بمرافقتي.

- انتظر، ما هذه التمثيلية؟ إلى أين ستذهب بنا؟

أخرج سبانسر من جيبه ورقة برزانة لا تخلو من غطرسة، فضّها ولبس نظارتيه:

- أُمرت بأن أتكفَّل بالسيدة والسيد لارابي، القادمين عبر رحلة دلتا من نيويورك، عند الساعة الحادية عشرة. أظنّ أنّني لست مخطئاً.

سألت نيكي:

- مَن حجز هذه السيارة؟

- لا أعرف يا سيدتي، ينبغي أن تطلبي هذا من كتابة لوكسوري كاب. كلّ ما يمكن أن أفيدكما به هو أنّ الحجز تمّ تأكيده لدى مؤسّستنا هذا الصباح.

- إلى أين ستأخذنا؟

- إلى مونمارت يا سيدي. إلى غراند أوتيل دو لابوت، وهو اختيار، إن سمحتما، مناسب لقضاء عطلة رومانسية.

نظر إليه سبستيان شزراً وقد استشاط غضباً.

لم آتِ إلى هنا من أجل قضاء عطلة رومانسية، بل للبحث عن ابني!

أومأت له نيكي بأن يهدأ، فالسائق لا يعدو أن يكون بيدقاً في خطة تتجاوزه، قد لا يكون له علم بها. يجدر بهما أن يرافقاه بلا ضجّة، ويريا إلى أين سيقودهما.

رافقاه إذن باستسلام وحذر.

انطلقت سيارة المرسيدس في الطريق السيار المتّجه شمالاً.

سوّى سبانسر المذياع على أثير موسيقى كلاسيكية، وراح يهزّ رأسه متابعاً إيقاع مقطوعة الفصول الأربعة لفيفالدي.

كان سبستيان ونيكي يجلسان في المقعد الخلفي وهما يراقبان اللوحات التي تحفّ بالطريق إلى العاصمة. لم يزورا باريس منذ سبع عشرة سنة. كانت ذكريات تلك الزيارة تتزاحم في رأسيهما، لكن القلق منعهما من الاستغراق فيها.

تجاوزت السيارة الشارع الجانبي، ثمّ انعطفت يميناً نحو شوارع الماريشالات قبل أن تصل إلى مونمارت القديمة. كانت الأشجار بشارع كولانكور وشارع جونو قد تزيّت بحلّتها الخريفية، واكتسى الرصيف بأوراق بُنيّة.

دخل سبانسر إلى طريق مسدود تحيط به منازل ظليلة. وبعد تجاوز بوابة حديد، توغلت السيارة في حديقة بريّة كثيفة، عبارة عن جزيرة ريفيّة في قلب عاصمة الأنوار. بلغت السيارة أخيراً أمام مدخل فندق عبارة عن بناية ضخمة بيضاء ذات مظهر بسيط لكنه لا يخلو من أناقة.

قال لهما السائق وهو ينزل أمتعتهما في المدخل:

- سيدي، سيدتي، أتمنى لكما مقاماً طيباً.

دخلت نيكي وسبستيان البناية وهما في غاية التوجّس. استقبلتهما أنغام جاز تعزفها فرقة مكوّنة من ثلاثة أفراد. كان المكان ودوداً وحميمياً، أشبه ببنسيون عائلي فاخر ومزيّن بعناية. وكان الأثاث بأشكاله الهندسية البديعة يذكّر بسنوات العشرينيات أو الثلاثينيات.

لم يكن أحد في الاستقبال. على يسار المدخل كان ثمّة ما يشبه صالوناً خاصّاً ينتهي بمكتبة تغري بالقراءة. وعلى اليمين، كونتوار طويل من الأكاجو يبدو أنه يُستعمل لعرض المشروبات. سمعا وقع كعوب على الأرض فالتفتا بغتة ليرمقا قوام المضيفة الرشيق الذي لاحَ في فتحة باب قاعة الطعام.

بادرتهما بإنجليزية فصيحة.

- لعلّكما السيد والسيدة لارابي؟ نحن بانتظاركما. مرحباً بكما في غراند أوتيل دو لا بوت. كانت تبدو بتصفيفة شعرها الرجالية وصدرها الضامر وقوامها الذكوري وفستانها اللامع الضيق الذي يصل إلى ركبتيها، كما لو أنّها خرجت من إحدى روايات فرانسيس سكوت فتزجرالد.

مرّت خلف الكونتوار وشرعت في شكليات التسجيل.

هتف سبستيان:

- انتظري، المعذرة، كيف تعرفيننا؟

- ليس لدينا سوى خمس غرف يا سيدي. كل غرف الفندق مشغولة. أنتما آخر من وصل.

- هل تعرفين من حجز غرفتنا؟

رفعت المرأة إلى فمها حامل سيجارة بلون كهرماني كانت تمسكه بين السبابة والوسطى.

نفثت نفساً من الدخان وردّت بنبرة واثقة:

- أنت من حجزت يا سيد لارابي!

- أنا؟

راجعت سجلّها على الحاسوب.

- تمّ الحجز قبل أسبوع بموقعنا على الإنترنت.

- هل دُفع ثمن الغرفة؟

- بالتأكيد. دُفع في يوم الحجز نفسه بواسطة ماستركارد في اسم السيد سبستيان لارابي.

مال سبستيان على الشاشة وهو لا يكاد يصدّق. كانت مراجع العملية تشير إلى جزء من أرقام بطاقة الأداء. يقيناً قُرصِن حسابه البنكي.

راح ينظر إلى طليقته بانزعاج شديد. ما هذه اللعبة القذرة التي جرّه إليها مَن استقدموه إلى هنا؟

- أهناك مشكلة؟

- كلا، كلّ شيء على ما يرام.

- أدعوكما إذن للالتحاق بغرفتكما، الغرفة رقم 5 في الطابق الأخير.

ضغطت نيكي على زرّ الطابق الأخير بالمصعد الضيق الذي يقود إلى الغرف.

- إذا كان الحجز يعود إلى أسبوعٍ خلا، فمعنى ذلك أنّ اختطاف جيريمي كان مخطّطاً له منذ فترة طويلة.

أيّد سبستيان قولها:

- هذا واضح، ولكن، لماذا جازفوا بقرصنة حسابي لكي يحجزوا هذه الغرفة؟

- ربّما لكي يطالبونا بفدية. بما أنّهم اطّلعوا على حساباتك فهم يعرفون بالضبط حجم ثروتك، والمبلغ الذي يستطيعون مطالبتنا به.

لمّا بلغا الطابق الأخير، دفعا باب الغرفة فاكتشفا أنّها عبارة عن جناح واسع، ذي سقف عالٍ.

علّقت نيكي لكي تتخلّص من توتّرها:

- يا لها من غرفة فاخرة!

سرير عريض وحوض استحمام مرتفع وجدران بألوان فاتحة.

كانت الغرفة مزيّنة بذوق رفيع، يخيّم عليها سحر ريفي أشبه بورشة فنّان بوهيمي:

أرضية عارية، «ميزانين»، مرآة بيضاوية ضخمة، شرفة صغيرة تطلّ على الحديقة.

كانت الإنارة رائعة. الأشعة المتسلّلة من خلال أغصان اللبلاب تبعث الدفء في المكان، بحيث يصعب على المرء أن يصدق أنّه في فندق. يخيّل إليه أن أصدقاء رفيعي الذوق أعاروه مأواهم السري ليقضي فيه عطلته.

خرجا معاً إلى شرفة مطلّة على حديقة، تبدو منها المآثر الباريسية في منظر رائع، ويسمع فيها شدو العصافير وحفيف الأوراق.

لكن سبستيان وطليقته لم يستسلما لسحر هذه المدينة المترامية تحتهما.

لم يكن لذلك الجو الخريفي اللطيف أن يهدِّئ من روعهما.

سأل سبستيان:

- والآن؟

- لست أدري. فهُم ما أتوا بنا إلى هنا إلا بغرض الاتصال بنا، أليس كذلك؟

مضيا يتفحّصان هاتفيهما ترقّباً لوصول رسالة محتملة، واتّصلا بالاستقبال ثمّ فتشا الغرفة، لكن بلا جدوى. وما كاد يمرّ نصف ساعة، حتى صار الانتظار لا يُطاق.

قال سبستيان بنبرة حاسمة وهو يتناول سترته:

- سأذهب إلى باريس.

- سأرافقك. لا يمكن أن أنتظر في هذه الغرفة!

- كلا، فأنت نفسك قلت إنّهم سيسعون لا محالة للاتصال بنا هنا.

فردّت مدافعة:

- لقد اتّفقنا على ألا نفترق!

لكن سبستيان غادر من دون أن يجيب.

24

نيويورك،
مفوضية الشرطة بالمقاطعة 87

جلب سانتوس كوب القهوة من الموزع الأوتوماتيكي. لم تكن الشمس قد طلعت بعد على بروكلين، لكنّه كان يحتسي فنجانه الثالث. قضى ليلة أخرى مضنية: سرقات وعنف زوجي ومتاجر منهوبة وعاهرات موقوفات... مضت عشر سنوات ووسائل الإعلام تقدّم صورة عن نيويورك كمدينة هادئة وآمنة. لربّما كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى قلب منهاتن، لكن الأمر لم يكن كذلك في الضواحي.

كان الممرّ الضيق الذي يوجد به موزّع المشروبات الأوتوماتيكي أشبه بمركز لإيواء اللاجئين. جلس فيه الأظنّاء مقيّدين إلى الكراسي المعدنية، والشهود متزاحمين على المقاعد المهترئة، والمشتكون ملفوفين في البطانيات، تضيئه مصابيح نيون شاحبة ضاجّة، وتفوح به رائحة كريهة، كما يعمّه ضوضاء يصمّ الآذان، وهو ما جعل كلّ مَن يوجدون به يبدون في أقصى درجات التوتّر.

غادر سانتوس هذا المكان القذر ليحتمي بمكتبه. كان يكره هذا المخفر الوسخ الصاخب، ولم يكن يفكّر في أن يقضي فيه كلّ مسيرته المهنية. ولم يكن مكتبه أحسن حالاً. فهو عبارة عن غرفة

بالغة الضيق، غير متناسقة، وغير معزولة عن صخب المحيط، تطلّ على فناء صغير مهمَل. رشف جرعة من القهوة المائعة، وقضم قضمة من حلوى وجد صعوبة في بلعها.

رفع هاتفه ليتّصل بمختبر التحاليل السميّة بعد أن تخلّص من الحلوى في القمامة. أكّدت النتائج المخبرية حدسه: المسحوق الذي عثر عليه في بيت نيكي هو مسحوق كوكايين. وضع هذا الملف جانباً، واغتنم الفرصة ليسأل عن هانز تانكر.

استطاع سانتوس بمرور الأيام أن ينسج شبكة ضخمة من العلاقات. يدين له كثير من المشتغلين في مختلف أسلاك إدارة شرطة نيويورك ودوائرها بمساعدة أدّاها لهم يوماً. وهي سجية كانت متأصّلة فيه: لا يتردّد في مدّ العون لكّل من طلب منه ذلك إن كان بمستطاعه. لم تكن لذلك أهمية على المدى القريب، لكن يأتي لا محالة يوم يجني فيه ثمار أياديه البيضاء.

- أنا تانكر، مَن المتكلّم؟

لا شكّ في أن تانكر، وهو مساعد مدير الشرطة العلمية، يعدّ من أهمّ معارفه. فقد ضبط رجال سانتوس بالصدفة قبل عامين، ابنه البكر، وقد كان في عزّ المراهقة، متلبساً بحيازة كميّة من الحشيش. كان واضحاً أنّ الولد لم يكن يكتفي باستهلاك المخدر في غرفته، بل كان يتاجر فيه بين رفاقه. وقد عمد سانتوس إلى غضّ الطرف وحفظ القضية. منذئذٍ، صار تانكر يحمل لسانتوس عرفاناً لا حدود له.

- مرحباً هانز، هل لديك أخبار جديدة عن جريمتي القتل؟

- إننا نتقدّم، لكن ببطء، إذ هناك مئات الآلاف من البصمات في مسرح الجريمة، ومن ثمّة ينبغي اللجوء إلى التحليلات الجينيّة.

- حسناً، الأمر واضح، لكنّني بحاجة ملحّة إلى معرفة صاحب

البصمات الموجودة على المدية وعلى قطعة الزجاج وكذا على مقبض عصا البلياردو.

- بخصوص هذه، فهي جاهزة، سأوافيك بالتقرير في غضون ساعتين.

- لا داعي لذلك، ابعث المعطيات الخام عبر بريدي الإلكتروني. أريد مقارنتها ببيانات النظام الآلي للتعرُّف على بصمات الأصابع في أقرب وقت.

نقر مازانتيني على الزجاج، وأدخل رأسه عبر فتحة الباب وهو يتأبط حاسوبه، فأومأ له سانتوس بالاقتراب. انتظر ريثما أنهى رئيسه المكالمة ليعلن له:

- هناك جديد يا سيدي. حصلت على تسجيل المكالمة التي أجريت على الخط 911. أنصت.

فتح حاسوبه، وشغّل مستنداً صوتياً. كان التسجيل قصيراً، يتردّد فيه صوت رجل يبدو عليه الرعب، رفض الإفصاح عن هويته، لكنّه طلب إيفاد سيارة إسعاف على وجه السرعة إلى عنوان البوميرانغ.

«ثمة رجل يُحتضر! يحمل طعنات سكين! أدركوه! أدركوه!»

علّق مازانتيني:

- الشيء المثير للاستغراب هو أنّه لا يذكر غير جثة واحدة!

لم يجب سانتوس. أين سبق له سماع هذا الصوت؟

استرسَل مساعده:

- لقد تتبّعوا مصدر المكالمة. صدرت من هاتف سبستيان لارابي، وهو صانع آلات موسيقية ثري، مستقرّ بآبر إيست سايد. راجعت سجلّه القضائي، فوجدته فارغاً، أو بالأحرى يكاد يكون

فارغاً: أدين مرّة واحدة بتهمة الإساءة إلى رجال الأمن أثناء مزاولة مهامهم لمّا أوقفوه بسبب تجاوز السرعة المسموح بها، وكان لا يزال طالباً بالجامعة. في رأيي أنّه يجهل حتى أنه مسجّل في بيانات الشرطة. انقبضت أسارير سانتوس.

- هل أبعث بفرقة لتلقي القبض عليه؟

وافق سانتوس بصمت. كان يعلم أنّ سبستيان موجود في باريس، لكنّه كان بحاجة إلى وقت للتفكير.

قال بنبرة حازمة وهو يغلق الباب خلف مازانتيني وبصره شاخص:

- حسناً، اذهب.

وقف بمحاذاة النافذة. فقد شدّهه هذا الخبر. ما صلة سبستيان لارابي بقضية دريك ديكر؟

أخرجه من استغراقه صفير قصير أعلن عن وصول رسالة إلكترونية. جلس أمام شاشة الحاسوب، وراجع بريده الإلكتروني. إنها رسالة تانكر بشأن البصمات.

كان تقنيو الشعبة العلمية قد قاموا بعملهم على أحسن وجه. فقد وضعوا بجانب كلّ دليل صورة واضحة للبصمات، جاهزة للاستعمال. سجّلها سانتوس في ذاكرة الحاسوب، وراجع مستند البصمات الآلي المدمج. ذلك أن محققي شرطة نيويورك بإمكانهم الولوج مباشرة إلى قواعد بيانات مكتب التحقيقات الأميركي، ولا سيما نظام التعرف الآلي على البصمات، وهو عبارة عن ذخيرة ثمينة تضمّ بيانات أكثر من سبعين مليون شخص أوقفوا أو أدينوا على الأراضي الأميركية. بدأ بالبصمات الموجودة على المدية. انطلق البرنامج في البحث بسرعة هائلة:

لا توجد معطيات بهذا الشأن

ها هي المحاولة الأولى تذهب سدى.

انتقل إلى البصمات الموجودة على قطعة الزجاج الدامية، وهي الأداة التي أُجهِز بها على الماوري فيما يبدو. كان حظّ سانتوس أوفر هذه المرّة، إذ أتى البرنامج بالجواب في أقل من ثانية. إنّها بصمات... سبتيان لارابي. في غضون ذلك، حاول المقارنة بينها وبين تلك التي عثر عليها بمقبض عصا البليياردو، فظهرت على الفور صورة امرأة شابة. ضغط سانتوس على زرّ طبع المستند بيدٍ مضطربة:

النسب: نيكوفسكي
الاسم: نيكي
مولودة يوم 24 أغسطس 1970 بالمضيق (ميشيغان)
طليقة السيد سبستيان لارابي

قُبض على نيكي سنوات التسعينيات مرّات عديدة بتهمة السرقة والسياقة في حالة سكر وحيازة المخدرات. وهي إن لم تكن سُجنت، فقد غُرِّمت مراراً، وأدّت عشرات من ساعات الخدمة ذات النفع العام. وتعود آخر مخالفة قامت بها لسنة 1999، ومنذئذٍ أصلحت سيرتها.

شعر سانتوس بخفقات قلبه تتسارع.

كيف حشرت نيكي نفسها في هذه الحكاية؟

بالنظر إلى ملفّها، ستُحمّل مسؤولية كلّ ما حدث، لكن من حسن حظها أن ملفّها بين يديه. وهو قادر، ببعض المناورات، أن يخرجها كالشعرة من العجين، ويتخلّص من لارابي إلى الأبد.

غضّ الطرف عن كلٍّ ما من شأنه أن يدين نيكي، وراح يجمع بعناية كلّ الدلائل التي تورّط سبستيان: اتصاله الهاتفي بالرقم 911، بصماته على أداة الجريمة، بطاقة السفر إلى باريس التي تثبت جنحة الفرار.

كان الملفّ ثقيلاً، ومن ثمّة قد يكون كافياً لإقناع أحد القضاة ببعث لجنة تحقيق دولية على وجه السرعة. وحتّى يصبّ الزيت على النار، سيترك بعض المعلومات ترشح لهيئات صحفية منتقاة بعناية. شخصية بارزة فرّت إلى باريس بعدما ارتكبت جريمة قتل بمكان مشبوه. خبر ستبتهج به الصحافة. ذلك أن آل لارابي أسرة نيويوركية عريقة ومحترمة، غير أنّ ذوي النفوذ، خلال فترة الأزمة هذه، لم يعودوا بمنأى عن الانتقاد. بالعكس، صار الغاضبون يجهرون، منذ ما يزيد عن السنة، بغضبهم من وول ستريت. فقد أغلقوا مراراً جسر بروكلين. كان غضب الطبقة الوسطى يتزايد ويتنامى في ربوع البلد.

لقد تغيّر الوضع.

لن يكون أقوياء الأمس هم أقوياء الغد.

هذا فضلاً على أن سبستيان ليس هارباً محترفاً.

سيقع في يد الشرطة بمجرد صدور الأمر باعتقاله.

25

باريس
الدائرة الثامنة عشرة

غادر سبستيان الفندق ونزل شارع جونو مشياً باتجاه ميدان بيكور. كان الجوّ لا يزال صيفاً رغم انتصاف فصل الخريف. كان السياح وسكان مونمارت يعرّضون وجوههم وأذرعهم العارية للشمس.

كان سبستيان مشغولاً بالتفكير في ابنه، ولم ينتبه لهذا الهدوء. كلّما توغل في المجهول، زاد اقتناعه بأن خطراً رهيباً يحيق به وبنيكي، خطر لا يستطيع تقدير حجمه. التفت مراراً ليتحقق من أنّ لا أحد يتعقّبه. ظاهرياً لا يلاحقه أحد، ولكن كيف له أن يتأكّد من ذلك؟

توقّف في الميدان عند أحد الشبابيك البنكية ليسحب النقود. كان أقصى ما تسمح بسحبه بطاقته البنكية السوداء (بلاك كارد) هو 2000 أورو. تناول نقوده وواصل المشي إلى أن بلغ محطة المترو لامارك غولينكور التي سبق أن شاهدها وهو قادم من المطار.

ذكّره مدخل محطة المترو المحاطة بسلّمين مميّزين لمونمارت بفيلم مصير إميلي بولان الرائع الذي شاهده على قرص رقمي مع

كامي. اشترى حزمة تذاكر، وراح يبحث في خريطة مترو باريس عن محطّة باربيس روشوار، الواقعة عند نقطة التقاطع بين الدوائر التاسعة والعاشرة والثامنة عشرة. لاحظ أنها لم تكن تبعد إلا ببضع محطات. وبما أنه كان مستعجلاً، ترك المصعد، واندفع عبر السلم الحلزوني الذي يقود إلى الأرصفة الموجودة على عمق يزيد عن خمسة وعشرين متراً. ركب أوّل قطار باتجاه ميري ديسي. نزل بعد محطتين، أيّ عند وصوله إلى بيغال، وركب مترو الخطّ الثاني قبل أن ينزل بباربيس روشوار، وهي المحطة التي اختُطف فيها ابنه...

اندفع على الرصيف مع حشد الركاب إلى أن بلغ الشباك. وبعد أن انتظر لدقائق في الطابور، سأل الموظفة عن جيريمي عارضاً عليها صورته وشريط الفيديو الذي سجّله على هاتفه المحمول.

- لا أستطيع أن أساعدك بشيء يا سيدي، اذهب إلى الشرطة.

ألحّ عليها، لكن الصخب وكثرة المنتظرين في الطابور جعلاه يعدل. لم تكن نوايا الموظفة سيّئة، لكنّها كانت تتحدّث إنجليزية سيئة، ولم تفهم مراده. كما أن توتّر مَن كانوا ينتظرون خلفه جعل صبرها ينفد. أفهمته بصعوبة أنّهم لم يتوصّلوا في الآونة الأخيرة بأيّ إبلاغ باعتداء باستثناء عمليات الخطف المعتادة.

ومضت تردّد:

- No agression, sir! No agression!

شكرها وقد اقتنع بأنه لن يفوز منها بطائل، ثم غادر المحطة عبر السلم الآلي.

باربيس...

بمجرّد ما وصل إلى الشارع، اكتشف باريس أخرى مختلفة عن

صور المدينة المسكوكة. لا وجود هنا لمجبنات ومخابز تقليدية عند منعطف كلّ شارع. مكان لا صلة له بباريس برج إيفل أو قوس النصر. إنها باريس متعدّدة الأعراق، خشنة وملوّنة ذكّرته بملتينغ بوت النيويوركية.

تجاوزه شخص عن قرب، ودفعه آخر بينما شعر بيدٍ تتحسّسه.

نشّال!

وبينما كان يتراجع إلى الخلف ليتفادى سرقة جيوبه، بادره أحد الباعة المتجوّلين عارضاً عليه علب سيجارة رخيصة.

«مارلبورو! مالبورو! ثلاثة أورو! ثلاثة أورو!»

خطا بضع خطوات ليتخلّص منهم، وعبَر الشارع، لكن الأمر لم يكن يختلف عن الجانب الآخر. كان المكان حاشداً بباعة السجائر المهرّبة.

«لوغران! مالبورو! ثلاثة أورو! ثلاثة أورو!»

لم يكن للشرطة من أثر...

قصد كشكاً للجرائد موجوداً تحت أعمدة المترو المعلّق، وأخرج من جيبه صورة ابنه لكي يعرضها على صاحب الكشك.

My name is Sebastian Larabee. I am American. This - is a picture of my son, Jeremy. He was kidnapped here two days ago. Have you heard anything about him? [1]

ينحدر صاحب الكشك من شمال أفريقيا، وهو يحتلّ هذا الكشك الواقع في ملتقى الطرق بين باربيس وروشوار منذ ثلاثين

---

(1) اسمي سبستيان لارابي. أنا أميركي وهذه صورة ابني جيريمي. لقد اختطف من هنا قبل يومين. هل سمعت عنه؟

سنة، وبذلك فهو يمثل ذاكرة حقيقية للحي. تعلّم الإنجليزية من كثرة احتكاكه بالسوّاح، وصار يتقنها.

- كلا، لم أسمع بهذه الحكاية.

رجاه سبستيان وهو يعرض عليه شريط الاعتداء المسجل على هاتفه:

- Are you sure? Look at the video[1]

مسح بائع الجرائد زجاج نظارتيه بطرف قميصه ثمّ سواهما على أنفه.

- الصورة غير واضحة. الشاشة بالغة الصغر.

- شاهد مرّة أخرى من فضلك please.

كان المكان مزدحماً، والجو مكهرباً وصاخباً. دُفع سبستيان مراراً. كان الباعة المتجوّلون محتشدين ومتزاحمين عند مدخل محطة المترو، يحتلّون الرصيف أمام الكشك. «مارلبورو! مالبورو! ثلاثة أورو! ثلاثة أورو!» كانت نداءاتهم تصيب بالصداع.

قال صاحب الكشك وهو يعيد له الهاتف:

- آسف، لا علم لي بهذا، لكن اترك لي رقم هاتفك. سأسأل مستخدمي كريم إن كان سمع بهذه الحكاية. هو من بقي في الكشك إلى وقت الإغلاق يوم الاثنين.

أخرج سبستيان حزمة أوراق نقدية ومدّ له ورقة من فئة 50 أورو لكي يشكره، لكن الرجل رفضها تعفّفاً. وقال له ناصحاً وهو يومئ برأسه إلى حشود المجرمين الذين يطوفون حول الكشك:

- أعد نقودك إلى جيبك يا سيدي، ولا تتجوّل بهذا المكان.

---

(1) أأنت متأكد؟ انظر إلى الشريط.

ناوله سبستيان بطاقة كتب عليها رقم هاتفه واسم ابنه وسنّه أيضاً.

وعلّق البائع:

- إذا كان الاعتداء على جيريمي قد صُوّر، فلا بد أن تكون فرقة شرطة شبكة المترو على علم بذلك.

- هل يوجد مخفر شرطة قريباً من هنا؟

- هناك مخفر «غوت دور» على بُعد مائتي متر من هنا، لكنّه مخفر لا يرحّب بزوّاره...

شكره سبستيان مرّة أخرى بحركة من رأسه. لا مجال للجوء إلى الشرطة الآن. وبينما كان يتأهب للعودة إلى الفندق، راودته فكرة.

«لوغران! مالبورو! ثلاثة أورو! ثلاثة أورو!»

لعلّ الباعة المتجولين يقفون لساعات طويلة في أسفل السلم الآلي كلّ يوم. أليس ذلك المكان هو أفضل موقع للاطّلاع على خبايا المحطة؟ عليه ربّما أن يستعين بهؤلاء عوض الشرطة!

ذاب سبستيان في الحشد إلى جانب مستعملي المحطة المعتادين وبعض السواح التائهين الراغبين في زيارة مونمارت.

«مالبورو! ثلاثة أورو!»

كان باعة السجائر يجوبون المكان، ويفتحون قمصانهم بسرعة لعرض سجائرهم الرديئة. كانوا يعرفون كيف يلحّون على رواد المحطة من دون تعنيفهم. يدفع عددهم ولا سيما نداءاتهم المرء إلى المسارعة بإخلاء المكان والتخلّص من هذه القذارة، لكنّ سبستيان ظلّ متمسّكاً بحدسه.

«مالبورو! ثلاثة أورو!»

أخرج من جيبه صورة جيريمي وأشهَرَها. وهي حركة كان قد اعتاد عليها.

- Have you seen this boy? Have you seen this boy?[1]

- اغرب من هنا ودعنا نعمل!

جال سبستيان على رصيف باربيس روشفور عارضاً صورة ابنه على كل بائع من الباعة المتجوّلين من دون أن يتسرب اليأس إلى نفسه. وبينما كان يهمّ بالانصراف، إذا بصوت يهمس خلفه:

- This is Jeremy, isn't it?[2]

---

(1) هل رأيتم هذا الولد؟ هل رأيتم هذا الولد؟

(2) أليس هذا جيريمي؟

26

التفت سبستيان ناحية الصوت الذي كلمه.

- This is Jeremy, isn't it?

أجابه متلّهفاً وكلّه أمل:

- Yes! That's my son! Have you seen him?[1]

كان الرجل الذي كلّمه مختلفاً عن بقية الباعة المتجولين. يرتدي قميصاً نظيفاً وسترة وحذاء ملمعاً رغم قِدَمِه. كان حريصاً على أن يبدو بمظهر لائق رغم عمله الشاق.

قال وهو يقدم نفسه:

- My name is Youssef. I'm from Tunisia

- Have you seen my son?

- Yes. I think so. Two days ago...

- Where?[2]

---

(1) بلى، إنه ابني؟ هل رأيته؟

(2) اسمي يوسف، أنا من تونس.

- هل رأيت ابني؟

- نعم. أظن أنني رأيته قبل يومين...

- أين؟

نظر الرجل حواليه بحذر، واستطرد يقول بالإنجليزية:

- لا أستطيع أن أكلمك الآن.

- أرجوك، الأمر في غاية الخطورة.

راح يوسف يشتم بالعربية زميلين له اقتربا منهما ليسمعا ما يدور.

قال له بتردّد:

- اسمع، اذهب وانتظرني بـ«حدوة الحصان». إنه مقهى صغير يوجد بشارع بيلوم، على بعد مائة متر، خلف بناية «تاتي» مباشرة. سألحق بك بعد ربع ساعة.

- حسناً، شكراً لك! شكراً!

انبعث الأمل في نفس سبستيان أخيراً. كان تصميمه في محلّه. لقد أمسك بشيء هذه المرّة، بخيط حقيقي.

عبر الشارع متوجّهاً إلى شارع باربيس، ومشى على طول واجهة متجر شاسع يحمل علامة «تاتي»، وهو محلّ تخفيضات كبرى، يخلق في الحي حركة نشيطة منذ خمسين عاماً، إذ يقصده الزبائن بحثاً عن صفقات مربحة. رأى عدداً منهم يفتشون في صناديق بلاستيكية مصطفّة على طول الرصيف: فساتين وسراويل وقمصان وحقائب وملابس داخلية ومنامات وكرات ولُعب...

في الرصيف المقابل، كان باعة متجوّلون آخرون يعرضون سلعهم: حقائب وعطور مزوّرة.

واصل سبستيان طريقه عبر شارع بيرفيك ليلحق بشارع بيلوم. كانت باربيس مزدحمة وحيّة: الحشود المتلاحمة وعمليات البيع والشراء الصاخبة. أربكت حركة الحي النشيطة وغليانه المستمرّ سبستيان. حتى الطرُز المعمارية كانت متعايشة: في صفّ المباني

نفسه يتجاور الطراز العثماني مع مباني الحجارة الكلسية ومباني السكن الاجتماعي.

وبلغ أخيراً المقهى الذي حدّده له يوسف. هو عبارة عن حانة ذات واجهة ضيقة، مضغوطة بين محلّ لبيع فساتين عرائس رخيصة وصالون حلاقة أفريقي. كانت الحانة فارغة، تفوح في أرجائها رائحة زنجبيل وقرفة وخضار مطبوخة.

جلس إلى إحدى الموائد قرب النافذة، وطلب كوب قهوة. تردّد في الاتصال بنيكي. كان متلهّفاً لإخبارها بما اكتشف، لكنّه قرّر أن ينتظر حتّى يتّضح له الأمر أكثر. شرب قهوته بجرعة واحدة، ونظر إلى ساعته، ثمّ مضى يقضم أظافره بعصبية وقد شعر بأن الوقت يمرّ ببطء. كان ثمّة ملصق موضوع على زجاج النافذة يعرض خدمات أحد الدجالين:

الدكتور جان كلود

إبطال السحر

إخضاع الأزواج الطائشين

إرجاع الأحبة إلى الأسر

قال في نفسه بينما تخطّى يوسف عتبة المقهى: **هذا ما أنا بحاجة إليه.**

جلس التونسي قبالته ولفت انتباهه قائلاً:

- ليس لدي كثير من الوقت.

فردّ سبستيان وهو يضع صورة جيريمي على المائدة:

شكراً على تفضُّلك بالمجيء. أأنت واثق من أنّك رأيت ابني؟

تفحّص يوسف الصورة باهتمام.

- أنا متيقّن. شاب أميركي في الخامسة أو السادسة عشرة من

عمره. قال إنّه يُدعى جيريمي. رأيته مساء أول البارحة عند منير، أحد «مصرفيينا».

- مصرفي؟

رشف يوسف جرعة من القهوة التي طلب.

- مئات علب السجائر المهربة تُباع يومياً في ملتقى باربيس روشوار. وتجارة التبغ منظمة على غرار تجارة المخدرات. يشتري باعة الجملة سلعتهم من مزودين صينيين، ويأتون كلّ صباح بمخزونهم إلى هنا ويضعونه حيثما اتّفق: في حاويات الأزبال والكوّات ومخابئ على الرفوف، أو في صناديق سيارات مركونة في أماكن استراتيجية. ونتكفّل نحن ببيع العلب في الشارع.

- و«المصرفيون»؟

- هم الذين يحصّلون الأموال.

- ولكن ما صلة جيريمي بمنير هذا؟

- لست أدري، لكن بدا لي كما لو أنّه مجبرٌ على البقاء معه.

- أين يقطن؟

- شارع كابلا.

- بعيداً من هنا؟

- ليس كثيراً.

- هل يمكن الذهاب إليه مشياً؟

- نعم، لكنّني لا أنصحك بذلك. فمنير ليس شخصاً ودوداً و...

- خذني من فضلك إلى مسكنه، وسأتحدّث إليه بمفردي.

- قلت لك إنّها ليست فكرة جيّدة!

بدا الرعب على التونسي. هل هو خائف من فقدان عمله؟ من مواجهة مجرم خطير؟ حاول سبستيان كسب ثقته:

- أنت يا يوسف شخص طيّب، رافقني إلى بيت منير. ينبغي أن أعثر على ابني.

قال مستسلماً:

- حسناً.

خرجا من المقهى متوجّهين إلى باربيس عبر شارع صوفيا. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف، والشمس في كبد السماء. ما زال الشارع يغلي حاشداً بالناس: شباباً وشيباً وأطفالاً... ترتدي بعض النساء الحجاب، بينما ظهرت أخريات بفساتين قصيرة.

- أين تعلّمت الإنجليزية يا يوسف؟

- بجامعة تونس. حصلت هناك منذ مدّة قصيرة على ماجستير في الأدب الإنجليزي، واضطررت إلى الفرار من بلدي منذ ستّة أشهر.

- كنت أظنّ أنّ الأمور تحسنّت بتونس...

هزّ يوسف رأسه وقال:

- لن يخلق سقوط بن علي والربيع العربي مناصب عمل بعصا سحرية. ما زال الوضع صعباً. حتى حَمَلَة الشهادات العليا من الشباب ليست أمام معظمهم آفاق. فضّلت أن أهاجر إلى هنا بحثاً عن مستقبل أفضل.

- هل أنت في وضعية قانونية؟

- ليس لأيّ منّا هنا وضعية قانونية. كلّنا وصلنا عبر لامبيدوزا في فصل الربيع الأخير. بحثت عن عمل يتناسب مع مؤهّلاتي، لكن الأمر غير متأتٍّ في غياب الوثائق الإدارية. لستُ راضٍ عن هذه

الوضعية، لكن هذه التجارة المحظورة هي كلّ ما عثرت عليه. على المرء هنا أن يتدبّر معيشته، وألا يعتمد إلا على نفسه. عليك أن تجد مكانك بين النشالين وباعة المخدرات وسُرّاق الهواتف ومزوّري الوثائق وتجّار السجائر المهربة.

- والشرطة؟

ضحك التونسي:

- يُجري البوليس تفتيشاً كلّ عشرة أيّام وذلك حتى يصفّوا ذمّتهم. تقضي ليلة في الحجز، وتدفع غرامة، ثمّ تعود إلى مكانك على الرصيف في اليوم الموالي.

حثّ يوسف الخطى مستعجلاً الانتهاء من هذه المهمة، ووجد سبستيان صعوبة في مسايرته. كان كلّما تقدم في السير، زاد قلقه. لماذا جاء ابنه إلى هنا لكي يتيه في متاهة مهرّب سجائر على بعد ستة آلاف كيلومتر من نيويورك؟

لمّا بلغا ميداناً صغيراً مشمساً، انتحى به مرافقه إلى زقاق ضيق معتِمٍ يفضي إلى شارع لاشابيل، وقال له معتذراً وهو يسحب سكيناً من جيبه.

- ولكن. . .

صفّر التونسي، فإذا برجلين يظهران فوراً خلف سبستيان.

- لقد حذرتك قبل قليل، الناس هنا لا تهمّهم سوى مصلحتهم الخاصة.

همّ سبستيان بأنْ يصرخ، لكن ضربة قوية هزّت أحشاءه. حاول الدفاع عن نفسه، لكن يوسف بادره بلكمة على وجهه أسقطته أرضاً. أنهضه مرافقا التونسي وأحكموا قبضتهم عليه، ثمّ انهالوا عليه باللكم

والركل والصفع والشتم. لم يكن أمام سبستيان إلا أن أغمض عينيه واستسلم للضربات المترادفة. كانت محنة حقيقية. . .

وقع في الشرك كالمغفل. يستحقّ ما حلّ به لقاء تجاسره على إخراج النقود أمام الملأ. بطبيعة الحال لم يرَ يوسف جيريمي قط. قد يكون التقط اسم ابنه عندما كان يتحدّث إلى بائع الجرائد أمام الكشك. هزأ به التونسي، واستغلّ سذاجته، ولا عذر له في ذلك. لم يبدِ أيّ رباطة جأش أو رويّة. ألقى بنفسه إلى التهلكة عن طيب خاطر! بدا بحزمة نقوده وسترته ومظهره الأميركي كأكبر مغفل في الوجود.

بعد أن أوسعوه ضرباً وسلبوه ما معه، أومأ يوسف لشريكيه فأطلقا سراحه واختفيا في لمح البصر.

وجد سبستيان صعوبة في استعادة وعيه بعد أن تهشم حاجبه وتورمت شفتاه وانتفخ جفناه. حاول أن يفتح إحدى عينيه، فلمح على نحوٍ غير واضح تحلّق الناس حوله، وأبعد منهم قليلاً، تراءى له سيل من السيارات في الشارع. وقف بصعوبة ومسح الدم النازف من فمه وأنفه بطرف كمّه.

لقد سرقوا كلّ ما كان بحوزته: حافظة نقوده وماله وهاتفه وجواز سفره وحزامه وحذاءه. حتّى الساعة التي تعود لجدّه لم تسلم منهم.

اغرورقت عيناه بالدمع من شدّة شعوره بالضيم والحنق. ماذا سيقول لنيكي؟ كيف يمكن أن يكون مغفلاً لهذا الحدّ؟ ألديه القوة اللازمة للعثور على ابنه رغم ما يملك من إرادة؟

27

كانت نيكي مستندة إلى درابزين الشرفة المطلّة على حديقة الفندق. حاولت أن تهدّئ من روعها وأن تستسلم لخرير النافورة الرخامية القديمة. يحيط بالبناية طوق كثيف من العشب الأخضر يخترقه صفّا سرو يضفيان على المنظر طابعاً توسكانياً. ثمّ هناك كروم تتسلق الجدار متزاحمة مع عروش الياسمين التي تفوح أزهارها البيضاء برائحة قوية تصل حتّى الغرفة.

ظلت تتقلّب على أحرّ من الجمر منذ أن غادر سبستيان. لو لم تكن في هذه المحنة، لاستمتعت بشاعرية المكان، لكن القلق ينهشها، يشدّ عضلاتها ويثقل على قلبها.

لمّا شعرت بأنها عاجزة عن تهدئة نفسها، عادت إلى الغرفة بنيّة الاستحمام. بينما كان حوض الحمّام يمتلئ بالماء الساخن دنت من آلة إلكتروفون عتيقة موضوعة على رفّ خشبي باهت اللون. كان عبارة عن فونوغراف على شكل حقيبة، يعود إلى سنوات الستينيات، ذي غطاء يمكن فصله، وهو في الآن ذاته مكبّر الصوت. رُتّبت على منضدة مجموعة من الأسطوانات، تناهز خمسين أسطوانة، قلّبت نيكي أغلفتها بسرعة. كانت تقتصر على ألبومات شهيرة لبوب ديلان ودافيد بوفي وبينك فلويْد. . .

وقع اختيارها على ألبوم «أفترماث»، وهو أحد أجود ألبومات رولينغ ستون أيّام كانت هذه الفرقة لا تزال حقّاً رولينغ ستون. وضعت الأسطوانة على الجهاز، ووضعت إبرته على ثلومها، وما هي إلّا ثوانٍ حتى صدحت الأنغام وراحت تهزّ الغرفة. يُقال إنّ مؤلف كلمات الأغنية، ميك جاغر، كتبها بغرض تصفية حساباته مع عشيقته آنئذٍ، عارضة الأزياء كريسي شريمبتون. عدا أنّ دعاة المساواة بين الجنسين لم يستلطفوا كلمات تلك الأغنية التي تشبِّه المرأة بـ«كلبة لعوب» تارة، وبـ«قطة سيامية» أخرى.

أما نيكي، فكانت تجد المقطوعة أكثر تعقيداً، تتحدّث عن النزوع إلى الهيمنة في العلاقة الزوجية، وعن الرغبة في الانتقام لمّا يتحوّل الحب إلى كراهيّة. انتصبت أمام المرآة الكبيرة البيضاوية وتعرّت تماماً، ثمّ مضت تتفرّس صورتها. داعبت بعض أشعة الشمس المتسلّلة من الخارج رقبتها، فأغلقت عينيها لثوانٍ، وعرّضت وجهها للضوء. شعرت ببشرتها تنتعش بالحرارة. مع مرور السنوات، أخذ جسدها يفقد نضارته، لكن إدمانها على الرياضة حافظ على عضلاتها مشدودة، وعلى صدرها نافراً، وقوامها رشيقاً وساقيها مستدقتين، وبطني رجليها صلبتين. استعادت ثقتها بنفسها وهي تتأمّل صورتها. **ما زالت لك حظوظ في الفوز بمسابقة ملكة جمال أسد الجبال يا سيدة روبنسون. . .**

أغلقت الصنبور، وانزلقت في الماء الدافئ، فانتابتها قشعريرة خفيفة. حبست أنفاسها كما كانت تفعل قديماً، وغاصت برأسها في الماء. كانت قادرة على حبس أنفاسها لدقيقتين، تستغلّهما لإعادة ترتيب أفكارها.

عشر ثوانٍ. . .

كان هذا التوق إلى المحافظة على الشباب ينغّص عليها حياتها. مرّت سنوات وهي ترهق نفسها لكي تتأكّد من قدرتها على الإغراء. والحقيقة أن تلك الثقة ما كانت لتقوم لولا جسدها. كانت تثير إعجاب الرجال لأنّها «جذابة وفاتنة». أوّل ما يلفت نظرهم إليها هو جسدها وليس ذكاءها وخفّة روحها أو ثقافتها...

عشرون ثانية...

لكن شبابها أخذ يضمحلّ. رغم ما تروّج له المجلات النسائية من أن المرأة الأربعينية تبدو اليوم كما لو أنّها لا تزال في الثلاثين، فذلك مجرّد هراء. يطلب العصر من المرأة أن تكون غضّة وشابّة. وهي قد أخذت تشعر أنّها لم تعُد تلفت نظر الرجال في الشارع بالحدّة نفسها سابقاً. قبل ذلك بشهر، في أحد متاجر غرينتش، سرّها اهتمام صاحب المتجر بها، وهو شاب وسيم، لكنّها اكتشفت أنّه لم يكن يقصدها هي، بل كان يقصد كامي...

ثلاثون ثانية...

كانت تجد صعوبة في الإقرار بأنّ مشاعرها تحرّكت عند لقائها بسبستيان. فهو ما زال لا يُطاق، غامضاً وجائراً ومتعصّباً لأفكاره، لكنها كانت واثقة من أنّه سيقف بجانبها في هذه المحنة.

أربعون ثانية...

خلال حياتهما الزوجية، لم تشعر قطّ بأنّها في مستواه. كانت مقتنعة بأنّ حبّهما قائم على مغالطة، وأن سبستيان سينتهي به الأمر، طال الزمن أم قصر، إلى اكتشافها، فيراها من ثمّة على حقيقتها. عاشت معه مسكونة بالخوف من أن يتركها.

خمسون ثانية...

كانت القطيعة بينهما تبدو لها حتمية، لحدّ أنّها عجّلت بها.

اتّخذت العشّاق، وارتمت في دوامة مدمّرة وعبثيّة سرّعت بتصدّع العلاقة بينهما، مؤكّدة بذلك هواجسها. لكنّها شعرت من جانب آخر براحة متناقضة: الآن وقد فقدته، لم تعُد تخشى فراقه...

دقيقة...

استمر العدّ التنازلي. كانت الحياة تُفلت من بين أصابعها. بعد سنتين أو ثلاث، سيسافر جيريمي إلى كاليفورنيا لمتابعة دراسته، وستبقى وحيدة. أجل وحيدة. إنّه الخوف نفسه من الهجران. ما مصدر هذا الجرح؟ الطفولة؟ وآثرت ألا تفكّر في هذا الأمر.

دقيقة وعشر ثوان...

شعرت برعشة أسفل بطنها. هي الآن بحاجة إلى الأكسجين. كانت أنغام أغنية رولينغ ستون تبلغها محرّفة وممزوجة بأنغام أغنية لجيمي هاندريكس!

هاتفي يرنّ!

أخرجت رأسها من الماء بسرعة وتناولت الهاتف. إنّه سانتوس. ترك لها منذ الليلة السابقة عدداً لا يحصى من الرسائل المفعمة بالغضب والحبّ. فضّلت في غمرة الأحداث الأخيرة عدم الردّ على مكالماته. تردّدت لحظة. لقد صار سانتوس في الأيام الأخيرة عشيقاً مزعجاً، لكنّه أيضاً شرطي بارع. ماذا لو أنّه اكتشف خيطاً يقود إلى جيريمي؟!

أجابت وهي تلهث:

- من؟

- نيكي؟ أخيراً أجبت! منذ ساعات وأنا أحاول الاتصال بك. اللعنة! ماذا أصابك؟

- كنت مشغولة يا لورونزو.

- ماذا تصنعين في باريس؟

- كيف عرفت بوجودي في باريس؟

- دخلت بيتك، وعثرت على بطاقات الطائرة.

- من الذي أعطاك الحقّ في اقتحام منزلي؟

- لحسن حظك أنني أنا من اقتحمته وليس غيري. لقد عثرت أيضاً على الكوكايين في الحمام!

لزمت الصمت وهي تكاد تموت خوفاً. لقد انفضح أمرها.

- استيقظي من غفلتك يا عزيزتي! لقد عثروا على بصماتك وبصمات زوجك في مسرح جريمة شنعاء. أنت في ورطة!

قالت مدافعة عن نفسها:

- لا دخل لنا في كلّ ذلك. لقد وجدنا دريك ديكر ميّتاً عند وصولنا. أما الشخص الآخر، فقد قتلناه دفاعاً عن النفس.

- ولكن ماذا كنت تصنعين في ذلك الجحر القذر؟

- ذهبتُ إليه بحثاً عن ابني. اسمع، سأفصّل لك الأمر بمجرّد ما تُؤاتي الفرصة. أليست لديك أخبار عن جيريمي؟

- كلا. اعلمي أنّني الوحيد مَن يستطيع مساعدتك.

- كيف؟

- يمكن أن أؤخّر التحقيق في مقتل ديكر، ولكن شريطة أن تعودي إلى نيويورك في أقرب وقت.

- ...

- موافقة يا نيكي؟

- موافقة يا لورونزو.

ثمّ قال مهدّداً:

- لا تتركي سبستيان يؤثّر عليك.

صمتت قليلاً، فقال ملاطفاً بنبرة متكلِّفة:

- اشتقت إليك يا حبيبتي. سأبذل ما بوسعي لأحميك لأنني أحبّك.

انتظر سانتوس أن يسمع «وأنا أيضاً»، لكن نيكي عجزت عن النطق بها.

أخبرتها إشارة صوتية بأنّ أحداً يحاول الاتصال بها، فاغتنمت الفرصة لتُنهي المكالمة.

- أنا مضطرة لتركك الآن. هناك من يحاول الاتصال بي. سأوافيك بالمستجدّات لاحقاً.

بمجرّد ما قطعت الخط مع سانتوس، سارعت للجواب على المكالمة الثانية.

- آلو؟

- السيدة لارابي؟

- أنا هي.

بادرها صوت بالإنجليزية:

- معك شركة الجولات الباريسية. اتّصلت بك لمعرفة ما إذا كنتما تؤكّدان حضوركما للسهرة.

- أيّ سهرة؟

- حجزكما لعشاء «الفخامة» هذا المساء عند الساعة الثامنة والنصف مساء على سفينتنا «الأميرال».

- ألَنتِ متأكدة من أنّك لم تتصلي بي خطأ؟

- لدينا حجز منذ أسبوع باسم السيد والسيدة لارابي. هل أفهم من كلامك أنّكما تعدلان عن العشاء؟

فقالت نيكي مؤكّدة:

- كلا، سنحضر. قلتِ عند الساعة الثامنة والنصف؟ أين توجد سفينتكم؟

- بجسر «آلما»، بالمقاطعة الثامنة. يستحبّ أن تحضرا بلباس السهرة.

قالت نيكي وهي تحاول أن تحفظ العنوان في ذاكرتها:

- حسناً.

كان ذهنها في غاية التشويش والفوضى. ما معنى هذا الموعد الجديد؟ أتراهم سيتصلون بهما أخيراً في هذا المكان؟ ويعيدون لهما جيريمي؟

أغمضت عينيها وغطست رأسها في الماء من جديد لعلّ الأمور تتوضّح أكثر. ودّت لو كان بإمكانها تحديث ذهنها كما يفعل الحاسوب.

كانت الأفكار السلبية والصور المرعبة الكابوسية تقصف دماغها. سيطرت على خوفها شيئاً فشيئاً بواسطة تقنيات التركيز التي تعلّمتها في حصص التأمّل، وشعرت بعضلاتها ترتخي. فهي تجد للغطس فائدة كبيرة، إذ يتهيأ لها أن الماء الدافئ المحيط بجسدها يشكّل شرنقة حامية. كما يلعب نقص الأكسجين دور مصفاة تمحو من ذهنها كل ما يكدّره.

ولم يفضل أخيراً في مخيلتها غير صورة واحدة، ذكرى قديمة مكبوتة، كبسولة مسجونة في الزمن، فيلم هواة باهت أرجعها سبع عشرة سنة إلى الوراء.

لحظة لقائها الثاني بسبستيان، ربيع سنة 1996 في باريس...

نيكي
قبل سبع عشرة سنة...

حديقة مصانع القرميد

باريس

ربيع 1996

- سنصور للمرة الأخيرة يا بنات! لِتعُد كلّ منكنّ إلى مكانها. انتباه. . . لقد بدأ التصوير!

كانت مجموعة من عارضات الأزياء تصوّرن للمرة الثانية مشهداً محكماً أمام قصر اللوفر.

وظفت دار تصميم الأزياء لتصوير هذا الشريط الإعلاني إمكانات ضخمة: مخرج شهير، أزياء باذخة، عدد كبير من الكومبارس تُحِطْن بالنجمة التي انتقتها الدار واتّخذتها رمزاً لها.

اسمي نيكي نيكوفسكي، عمري خمس وعشرون سنة، وأنا واحدة من هؤلاء الفتيات. لست عارضة الصفّ الأول، بل مجرّد واحدة من هؤلاء الفتيات النكرات اللواتي يستعرضن في الصف الرابع. نحن في أواسط سنوات التسعينيات حيث نجحت حفنة من العارضات -مثل كلوديا وسيندي وناومي- في أن تصرن نجمات وأن تكدّسن أموالاً طائلة. لكنّني لا أعيش معهنّ على الكوكب نفسه،

وهو أمر لم يتجشّم وكيلي مشقّة كبيرة لكي يُفهمني إياه: «ينبغي أن تعتبري نفسك محظوظة لأنهم اختاروك ضمن من ستسافرن إلى باريس».

لا أعيش حياة خرافية كتلك التي تعيشها العارضات الشهيرات، وتروّج لها مجلات الموضة. لم يكتشفني أحد مصوري وكالة «إيليت» وأنا لا أزال في سن الرابعة عشرة، على أحد الشطآن أو في أحد الأسواق التجارية، أو بينما كان يعبر قريتي بالصدفة. كلا، لقد بدأت عرض الأزياء متأخّرة، في سنّ العشرين، إثر وصولي إلى نيويورك. لم تروني قطّ على غلاف أحد أعداد مجلة إيل (هي) أو فوغ (موضة). وأنا إن كنت أظهر على المنصات أحياناً، فلِفائدة مصمّمين من الدرجة الثانية.

حتى متى سيصمد جسدي؟

تؤلمني قدماي وظهري. يتهيّأ لي أن عظامي ستتحطّم، لكن عليّ أن أركّز حتى أبدو في أحسن حال. تعلّمت كيف أتكلّف الابتسامة، وأجعل ساقي وصدري في غاية الشهوانية، وأمشي مشية مختالة، وأجعل كلّ حركة من حركاتي تقطر رشاقة.

لكن الرشيقة هذا المساء منهكة. وصلتُ هذا الصباح بالطائرة، وسأعود غداً. لم آتِ إلى هنا لقضاء عطلة! كانت الأشهر الأخيرة صعبة. أمضيت الشتاء متنقّلة لاجتياز اختبارات الانتقاء (الكاستينغ) وأنا أتأبط مذكّرتي. أستقلّ قطار الضواحي إلى منهاتن عند الساعة السادسة صباحاً، وأقضي حصص التصوير الفوتوغرافي في استديوهات باردة، وكذا حصص تصوير إشهارات رخيصة. كنت أواجه كل يوم هذه الملاحظة القاسية: لم أعُد شابة. لا أملك ذلك الألق الذي يسمح لي بأن أصير كريستي تورلانغتون أو كات موس.

لقد بدأت الشيخوخة تدركني. وها هي الحصة تنتهي! صاح المخرج:

- انتهى التصوير، حسناً يا بنات! تستطعن الآن الاستمتاع بباريس! فهي لكنّ!

أين هي المتعة؟

لقد نصبت إدارة التصوير مقصورات تحت الخيام. كان النور في فترة ما بعد الظهر لطيفاً، لكن البرد شديد. بينما كنت أزيل الماكياج في مكان معرّض لتيّار الهواء، نادتني إحدى متدربات جويس كوبر:

- آسفة يا نيكي، لم نعثر على غرف بـ«رويال أوبرا»، واضطررنا إلى تغيير الفندق.

وناولتني ورقة كتب عليها عنوان فندق يوجد بالمقاطعة الثالثة عشرة.

- أتسخرين منّي؟ لم تعثري إلا على هذا الفندق النائي؟! كان حريّاً بكم أن تحجزوا لي في إحدى الضواحي بما أنكم لم تعثروا إلا على هذا الفندق النائي!

- آسفة، إنها فترة العطلة المدرسية. كلّ الفنادق مليئة.

تنهّدتُ وغيّرت حذائي وملابسي. كان الجوّ حماسياً والفتيات في غاية الإثارة: هناك حفل بحديقة ريتز، سيحضره لاجيرفيلد وغاليانو.

لمّا بلغت عين المكان، لم أعثر على اسمي في لائحة المدعوين.

سألني أحد المصوّرين:

- هل ترافقيننا لنشرب كأساً يا نيكي؟

كان برفقته مصوّر آخر، قضى اليوم كلّه وهو يغمز لي. لم أشأ مسايرته في تفاهاته، لكنني لم أجرؤ على الرفض، لأنني كنت خائفة من الوحدة، وبحاجة إلى لفت انتباه الرجال، حتى ولو كانوا ممّن يقزّزونني.

رافقتهما إلى أحدى الحانات بشارع الجزائر، وأردفنا كؤوس كوكتيل فودكا وكوانترو وليمون أخضر. أشعرني الكحول بالدفء والراحة، وصعد بسرعة إلى رأسي. ضحكتُ ومرحت وتهلّلت، مع أنّي كنت أكره هؤلاء المصوّرين المنحرفين، المتوثّبين للانقضاض على اللحم الطري. أعرف حيلهم: يسكرون الفتيات، ويناولونهن شيئاً من الكوكايين، ثم يهجمون عليهن بلا هوادة، مستغلين تعبهن ووحدتهن وضياعهن. You're awesome! So beautiful! So glamorous...[1] يعتبرونني فريسة سهلة، وأنا لا أقوم بشيء لأكذّب ظنّهم. كانت الشرارة التي أقدحُها في عيون الرجال تُلهبني، حتّى لو كانوا مغفلين مثل هذين. كنت أقتات على رغبتهم كما يقتات مصاص الدم على النجيع.

لم يعد يغرّني لمعان عالم الموضة وبريقه. لم أجد فيه غير الإنهاك والتعب والتدافع. وأدركت أنني لم أكن غير صورة، امرأة ستنتهي صلاحيتها، منتوج على وشك أن يحلّ موعد نهاية صلاحيته. اقترب منّي الرجلان، وراحا يتمسحان بي، وأخذت حركاتهما تزداد جرأة. توهّما أنّني سأجاريهما في نزوتهما.

بدأ الظلام يخيّم، ورحت أنظر إلى الرجلين وقد بدأت تستبدّ بهما الشهوة وصار إلحاحهما لا يُطاق. كنت لا أزال أميّز قليلاً

---

(1) أنت مدهشة! بالغة الإثارة! في منتهى السحر!

فنهضت فجأة وغادرت الحانة وأنا أجر حقيبتي. سمعتهما يشتماني خلف ظهري: عاهرة... Business as usual.

كان من المستحيل إيقاف سيارة أجرة في شارع ريفولي، فتوجّهت نحو المترو، إلى محطة القصر الملكي. بعد إلقاء نظرة على الخريطة المعروضة في الرصيف، ركبت أحد قطارات الخط السابع: بون نوف، شاتولي... جوسيو... لي غوبلان...

لما وصلت إلى ميدان إيطاليا، كان الظلام قد حلّ. ظننت أنّ فندقي قريب، لكن كان عليَّ في الواقع أن أمشي لدقائق طويلة. وبدأ المطر يسقط. سألت عن الطريق، لكن لا أحد من المارّة رضي أن يدلّني عليه؛ لأنني لا أتحدّث الفرنسية. يا له من بلد غريب! سرت في شارع بوبيلو وأنا أجرّ حقيبتي التي لم تعد عجلاتها تدور. وكان المطر يشتدّ أكثر فأكثر.

شعرت بنفسي ذلك المساء ذابلة وضعيفة، وأحسستُ بوحدة لم أشعر بمثلها قط. بلّل المطر سائر جسدي، وتحطّم كل شيء بداخلي. فكّرت في المستقبل. ألديّ مستقبل؟! لم أدّخر ملّيماً واحداً! بعد خمس سنوات من العمل، لم أوفّر دولاراً واحداً! والسبب هو النظام الذي يفرضونه عليك، والذي يحرص على أن تظل تابعاً. وكالات عرض الأزياء تتقن هذه اللعبة بحيث إنني لم أكن أعمل في غالب الأحيان إلا لكي أسدّد عمولتهم وأغطي مصاريف الأسفار.

لمّا صعدت فوق الرصيف، تكسّر كعب حذائي. هكذا وصلت إلى فندق بوط-أو-كاي كسيرة وفردة حذائي في يدي.

لم يسبق لي أن سمعت بهذا الحي المشرف على باريس. كان المكان حينئذٍ ما زال شبيهاً بقرية صغيرة تقع خارج الزمن. لا وجود

هنا لشوارع كبيرة ومبانٍ فخمة. كلّ ما هنالك أزقّة ضيّقة مرصّفة ومنازل ريفية. تخيلت نفسي «أليس» «تسقط في الجانب الآخر من المرآة».

كان فندقي عبارة عن بناية قديمة ضيقة، ذات واجهة مهترئة، تقع في درب الألماسات الخمسة. دخلت إلى الباحة المستطيلة البالية وأنا منهكة ومبلّلة، وناولت صاحبة الفندق بطاقة الحجز.

قالت من دون أن تناولني المفتاح:

- الغرفة 21 يا آنستي. لقد وصل قريبك قبل ساعة.

- My cousin? What are you talking about?[1]

أنا لا أعرف إلا بضع كلمات فرنسية وهي لا تتحدّث الإنجليزية رغم وجود إعلان يشهد بخلاف ذلك. بعد خمس دقائق من الكلام الغامض، فهمتُ على نحوٍ ملتبس بأنّ أميركياً استولى على غرفتي مقدّماً نفسه بوصفه قريبي. طالبتها بغرفة أخرى، فأجابتني بأنّ كلّ الغرف محجوزة. طلبت منها أن تنادي على البوليس، فقالت إنّ الرجل أدّى ثمن الغرفة.

ما معنى هذه الحكاية الغريبة؟!

استشطت غضباً، فارتقيتُ السلم إلى الطابق الثاني تاركة حقيبتي وسط الممرّ، وطرقت باب الغرفة 21.

لم يُجِب أحد.

لم يثبط ذلك عزيمتي. خرجتُ إلى الشارع ودُرت حول الفندق عبر الزقاق المسدود المرصّف. تعرّفت على نافذة الغرفة 21 فرميتها بحذائي، لكنني أخطأتها. رميتها ثانية بالفردة الثانية، وفي هذه المرّة

---

(1) قريبي! عن ماذا تتكلمين؟

كسرتُ الزجاج. مضت بضع ثوانٍ قبل أن يفتح رجل النافذة ويطلّ برأسه.

قال متبرّماً:

- أأنتِ من تسبّب في هذه الضجّة؟

لم أصدّق عينيّ. إنه سبستيان لارابي، صانع الآلات الموسيقية بمنهاتن. لم أستطع كظم غيظي.

- ماذا تصنع في غرفتي؟

- تصوّري... كنت أحاول النوم قبل أن تتسببي في هذه الجعجعة.

- أرجو أن تُخلي الغرفة!

أجاب بدم بارد:

- لا أظن أنني سأفعل.

- قل لي، ماذا تصنع في باريس؟

- جئتُ للقائك.

- للقائي؟ ما المناسبة يا ترى؟ وكيف اهتديت إلى هذا المكان؟

- بعد تحقيق بسيط.

تنهّدت، وقلت في نفسي هذا شخص أبله. لقد وضعني نصب عينيه. ليست هذه هي المرّة الأولى التي أصادف فيها هذا النوع من المغفلين، مع أنه يبدو عادياً ولطيفاً وطيّباً...

تظاهرتُ باللامبالاة وقلت:

- ماذا تريد منّي على وجه التحديد؟

- الاعتذار.

- حسناً، ولماذا أعتذر؟

- أوّلاً لأنك سرقت حافظة نقودي قبل ثلاثة أشهر.

- لكنّني أعدتها لك، لم تكن غير لعبة! وسيلة لمعرفة عنوانك.

- كان بالإمكان أن تطلبيها منّي بكل بساطة.

- صحيح، ولكن الأمر كان سيفقد طرافته.

أضاء مصباح عمومي أرضية الزقاق المبللة. ونظر سبستيان إليّ وعلى محيّاه ابتسامة شماتة.

- ثمّ إنني آخذ عليك فرارك من دون أن تتركي لي عنوانك.

حرّكت رأسي وقلت:

- ولماذا سأترك لك عنواني؟!

- يبدو أننا نمنا معاً تلك الليلة.

فأجبت بنيّة استفزازه:

- وبِمَ يُلزمني ذلك؟ فأنا أنام مع جميع الرجال.

فقال بلهجة حاسمة وهو يغلق النافذة:

- حسناً، ستنامين هذه الليلة إذن في العراء.

كان الظلام مخيّماً والجو بارداً. كنت مرهقة لكنّني مندهشة. على كلّ حال لن أترك هذا الأخرق يعاملني بهذا النحو.

- حسناً، سنرى!

كانت ثمّة حاوية قمامة بلاستيكية عند زاوية الزقاق. ورغم ما كنت أشعر به من إرهاق، صعدت فوقها، وتسلّقت قناة المزراب، ولما بلغت الطابق الأول، استرحتُ قليلاً فوق حوض أزهار، ثم واصلت تسلّقي. وبينما كنت أنظر إلى الأعلى، لاح لي وجه سبستيان من خلف الزجاج وقد علاه الارتباك. كان ينظر بعينين واسعتين من أثر الفزع. فتح النافذة فجأة وصاح بي:

- ستكسرين عظامك!

باغتني كلامه، فقمتُ بحركة إلى الخلف أفقدتني توازني، وبينما

كنت على وشك السقوط، تمسكت في اللحظة الأخيرة باليد التي مدّ لي.

صاح بي وهو يرفعني إلى حافة النافذة:

- أأنت واعية بما تفعلين؟

وحين شعرتُ بزوال الخطر، أمسكتُ بخناقه ورحت أضربه بشدّة على صدره.

- أأنا مَن لا تعي ما تفعل أيها النذل؟! كدت تقتلني!

حاول أن يتخلّص من قبضتي بما وسعه من قوة وقد فاجأته بذاءتي، ثمّ أمسكت بحقيبته المفتوحة الموضوعة عند أسفل السرير وأنا في غاية الغضب، وتراجعت إلى الخلف لكي أقذف بها بعيداً عبر النافذة. شدّني ليشلّ حركتي، وطوّقني بذراعيه وهو يقول متوسلاً:

- اهدئي!

لم يكن وجهه يبعد عنّي إلا ببضعة سنتمترات. كانت نظرته صادقة يشعّ منها شعور إنساني يدعو إلى السكينة. وكانت تفوح منه رائحة زكية؛ رائحة عطر كان يستعمله الرجال المجايلون لغاري غرانت. وشعرت فجأة بإثارة شديدة، فعضضتُ شفته، ودفعته على السرير وفككت أزرار قميصه.

*

استيقظت في صباح اليوم الموالي فزعة على رنين الهاتف. كان الليل قصيراً، والنوم ما زال يغالبني. أمسكت بالهاتف واستندت إلى الوسادة، فجاءني صوت صاحبة الفندق وهي تغمغم ببضع جمل بالإنجليزية.

نظرتُ بعينين نصف مغلقتين، فرأيت نوراً هادئاً ينفذ من خلال ستائر نافذة الغرفة الصغيرة. وبينما كنت أستعيد وعيي، فتحت باب الحمام بقدمي. لم يكن يوجد به أحد. . .

أيكون سبستيان لارابي قد تركني؟

طلبت من صاحبة الفندق أن تعيد ما قالت على نحو أوضح.

- Your cousin is waiting for you at the coffee shop just around the corner.(1)

حسناً، فلينتظر ما شاء له الانتظار.

قفزت من السرير واستحممت بسرعة، ثمّ لممت أغراضي، ونزلت السلّم. استعدتُ حقيبتي التي بقيت بالباحة ورأيت صاحبة الفندق جالسة خلف الكونتوار ثمّ أطللت في الشارع. كان المقهى يبعد بخمسين متراً تقريباً يساراً، فاتّجهت يميناً نحو محطة المترو. قطعت عشرين متراً تقريباً فلحقت بي صاحبة الفندق وهي تقول بصوت متكتّم:

- I think your cousin kept your passport...(2)

*

يبدو أنّ مقهى «النار الخضراء» ظلّ بمنأى عن تغيرات الزمن. يتهيّأ لمن يراه أنّه قطعة من سنوات الخمسينيات: كونتوار من الزنك، أغطية موائد فيشي، مقاعد من فرو الخلد، موائد من الفورميكا. كانت ثمة لوحة أردواز معلّقة على الجدار كتبت عليها الأطباق المقدّمة بالأمس: نقانق بالفستق، أقدام خنزير. . .

---

(1) قريبك ينتظرك في المقهى الموجود عند منعطف الشارع.

(2) أظن أن قريبك يحتفظ بجواز سفرك.

دخلت المقهى وأنا في منتهى الغضب، فلمحت سبستيان جالساً في أقصى القاعة. انتصبت أمامه وبادرته بنبرة متوعّدة:

- أعِدْ لي جواز سفري!

قال وهو يمدّ لي الجواز:

- صباح الخير نيكي. اجلسي من فضلك. لقد سمحت لنفسي أن أطلب لك الفطور.

كنت أشعر بالجوع، فاستسلمتُ وأنا أرى على المائدة ذلك الفطور الغني: قهوة بالحليب، هلاليات، قطع خبز مدهون، مربّى. رشفت جرعة قهوة ثمّ فتحت المنديل لأكتشف بداخله علبة حزمت بشريط.

- ما هذا؟

- هديّة.

رفعت عيني إلى السماء.

- ليس لأننا نمنا معاً مرّتين ستقدّم لي هدية... ذكّرني باسمك أوّلاً!

- افتحيه، أتمنّى أن يعجبك. لا داعي لأن تقلقي، لن تجدي بداخل العلبة خاتم خطوبة.

مزّقت الورق وأنا أتنهّد. إنه كتاب، طبعة محدودة من رواية الحب في زمن الكوليرا. نسخة مصوّرة ومسفّرة على نحو فاخر، وممهورة بتوقيع غابرييل غارسيا ماركيز.

شعرت بتأثّر شديد، وانتابتني قشعريرة غريبة. هذه هي أوّل مرّة يهديني فيها رجل كتاباً. أحسستُ بالدموع تترقرق في عينيّ، لكنّني غالبتها. لقد أثّرت فيّ تلك الهدية أكثر ممّا كنت أتوقع.

قلت وأنا أدفع الرواية:

- ماذا تدبّر على وجه التحديد؟ لعلّ ثمنها باهظ جداً. لا أستطيع قبولها.

- لماذا؟

- لأنّني لا أعرفك.

- يمكن أن نتعلّم كيف نتعارف.

اِلتفتُّ، كان ثمّة رجل وامرأة مسنّان يعبران الشارع، يعتمد أحدهما على الآخر من دون أن يُعرف من يسند الآخر.

- ماذا يدور في رأسك؟

مضى سبستيان يتحدّث بطيش طفولي بريء:

- منذ أربعة أشهر وأنا أستيقظ كل يوم على صورتك. أقضي كلّ وقتي أفكّر فيك. لم يعد يهمّني شيء آخر...

نظرت إليه مشدوهة، وأدركت أنّ كلامه لم يَكُن كلاماً معسولاً، وأنّه صادق.

لماذا هذا الرجل ساذج وجذّاب إلى هذا الحدّ؟

انتصبت واقفة لأنصرف، لكنّه أمسك بذراعي.

- امنحيني أربعاً وعشرين ساعة لأقنعك.

- بماذا ستقنعني؟

- بأنّ كلاً منّا خلِق للآخر.

- اسمع يا سبستيان، أنت رجل طيّب، وتحسن الجماع. سرّني تعلّقك بي، ووجدتُ لِحاقك بي إلى هنا شيئاً بالغ الرومانسية...

- لكن؟

- لكن لنكن واقعيين، لا نستطيع أن نبني شيئاً معاً. لست أؤمن بحكاية الراعية التي تزوجت الأمير الوسيم و...

- أتخيّلك راعية فاتنة.

- كن جاداً من فضلك! لا شيء يجمع بيننا: أنت أميركي بروتستانتي أبيض ومثقّف، والداك ثريان، تعيش في منزل مساحته ثلاثمائة متر مربع، وتخالط نخبة آبر إيست سايد...

قاطعني قائلاً:

- وما المشكلة في هذا؟

- المشكلة؟ هي أنني لا أعرف الصورة التي تحملها عنّي. أنا لست تلك التي تتخيّل. لا شيء يمكن أن يعجبك فيّ.

- ألستِ تبالغين قليلاً؟

- كلا. أنا متقلّبة وغير مخلصة وأنانية. لن تنجح في تحويلي إلى امرأة وديعة وملتزمة. كما أنني لن أقع أبداً في حبّك.

- امنحيني أربعاً وعشرين ساعة، أربعاً وعشرين ساعة فقط، نختلي فيها أنا وأنت وباريس.

- لقد أعذر من أنذر.

ابتسم ابتسامة بريئة. كنت متيقّنة من أنّه سرعان ما سيسأم. لم أكن أعلم عندئذٍ أنّني التقيت بالحبّ، الحبّ الوحيد الحقيقي الملتهب. الحبّ الذي يمنحك كلّ شيء قبل أن يسلب منك أكثر ممّا أعطاك. الحبّ الذي ينير حياة المرء قبل أن يدمّرها إلى الأبد.

28

شُدِهت مضيفة غراند أوتيل وهي ترى سبستيان يدخل إلى باحة الفندق لاهثاً، حافي القدمين، ممزّق اللباس وهو يتصبَّب عرقاً، فبادرته قائلة:

- ماذا أصابك يا سيد لارابي؟

- وقعت لي. . . حادثة.

رفعت سماعة الهاتف بقلق وهي تقول:

- سأتصل بالطبيب.

- لا داعي لذلك.

- صحيح؟!

أضاف بنبرة حازمة:

- اطمئنّي فأنا بخير.

- كما تشاء. سأحضر لك كمادات وكحول. إذا رغبت في أي شيء آخر، أنا في خدمتك.

- شكراً لك.

رغم ضيق تنفسه والآلام الحادة في بطنه، فضل صعود السلم بدل انتظار المصعد.

لما دخل الغرفة وجدها فارغة، تتردّد في أرجائها موسيقى رولينغ

ستون صاخبة، لكن نيكي لا أثر لها. بحث عنها في الحمام، فوجدها ممدّدة في حوض الاستحمام، وقد غطست بعينين مغمضتين.

أصابه الذعر، فسحبها من شعرها ليخرجها. باغتها ذلك فصرخت:

- آي، لقد آلمتني أيّها المتوحش!

ثمّ قالت وهي تخفي صدرها:

- كدت تنزع فروة رأسي!

- ظننتك تغرقين! اللعنة! ماذا تصنعين؟ لم تعودي صغيرة لتتسلّي بلعبة الحورية!

نظرت إليه بحنق، فلاحظت الجروح البادية على وجهه، سألته بقلق:

- أتشاجرت؟!

أجاب بانزعاج:

- بالأحرى ضُربت.

- أدِرْ وجهك، سأخرج من الحوض، ولا تستغلّ الفرصة لكي تمتّع بصرك!

- أذكّرك بأنّها ليست المرّة الأولى التي أراك فيها عارية.

- صحيح، ولكن في الأيام الخوالي.

أدار وجهه وهو يناولها رداء حمام لبسته وغادرت الحوض، ثمّ لفّت رأسها في منشفة.

- اجلس، سأعالجك.

بينما كانت تنظّف جراحه بالماء والصابون، راح يحكي لها ما وقع له في «باربيس». أخبرته بدورها بالمكالمتين اللتين تلقّتهما: مكالمة سانتوس ومكالمة شركة الجولات الباريسية الملغزة.

صرخ من الألم بينما كانت تضع مطهّراً على جروحه.

- كفّ عن الصراخ. أكره الرجال الذين يصرخون هكذا كالأطفال!

- ولكنّها تؤلمني.

- الأطفال الصغار هم الذين يتألّمون، أما أنت فرجلٌ راشدٌ فيما أظنّ.

كان يبحث عن ردّ لاذع حين سمعا طرقاً على باب الغرفة. جاءهما صوت الفرّاش من وراء الباب. همّت نيكي بالإسراع لفتح الباب، لكنه أمسكها من كمّها وهو يقول:

- لن تهبّي لفتح الباب وأنت بهذا اللباس!

- وما بال هذا اللباس؟

- أنت شبه عارية!

رفعت عينيها للسماء فقال معاتباً وهو يتجّه نحو الباب:

- الأكيد هو أنّك لم تتغيّري.

فصاحت به وهي تصفق باب الحمام:

- وأنت أيضاً!

وظهر خادم بلباس أحمر وأزرار مذهبة. كان من ضآلته لا يكاد يظهر تحت ركام علب تحمل علامات ماركات عالمية فاخرة: إيف سان لوران، كريستيان ديور، تزينيا، جيمي شو...

- لقد بعثوا لكم بهذه العلب يا سيدي.

- لعلّك أخطأت الغرفة، فنحن لم نطلب شيئاً.

- ليسمح سيدي أن ألفت انتباهه إلى أنّني لم أخطئ. الشحنة مبعوثة باسميكما.

تنحّى سبستيان عن الباب وقد ظهر عليه الارتياب ليترك الخادم

يضع العلب في الغرفة. وبينما كان يهمّ بالانصراف، راح سبستيان يفتش في جيوبه عن بقشيش قبل أن يتذكر أنّه سلب كلّ ما كان معه. وجاءت نيكي لإنقاذ الموقف، إذ ناولته ورقة خمسة دولارات، ثمّ أغلقت الباب.

بادرته ساخرة وهي تنظر إلى العلب:

- هل تسوّقت يا حبيبي؟

ساعدها مدفوعاً بالفضول في وضع العلب على السرير. عدّ في المجموع ستة أكياس مليئة بألبسة السهرة: بذلة للرجال، فستان، حذاء بكعب عال. . .

- لست أفهم الرسالة المقصودة من هذا.

علّقت نيكي وهي تتذكّر ما قالته لها المضيفة من أنّ عليهما أن يحضرا بلباس السهرة.

- بذلة للرجال وأخرى للنساء.

- ولكن لماذا يصرّون على أن نحضر بهذه الألبسة بالذات؟

- لعلّها مجهزّة بجهاز تجسّس، بجهاز إرسال يمكّنهم من تتبّع حركاتنا. . .

فكّر فيما قالته نيكي. . . كلام معقول، بل بديهي. تناول سترة ومضى يتحسّسها، لكنّه تنبّه إلى أنّ العمليّة عبثية: فهذه الأجهزة اليوم توجد بأحجام مجهرية. ثمّ لماذا عليهما أن يتخلّصا منها إن كانت ستيسّر اتّصال المختطفين بهما؟

لاحظت نيكي:

- أظن أنّه لم يبقَ أمامنا إلا أن نلبس.

حرّك سبستيان رأسه موافقاً. سارع أوّلاً إلى الحمام حيث بقي لحظة تحت دفق الماء الساخن، ومرّر الصابون على كلّ جسده حتّى

يتخلّص ممّا تعرض له من إهانة بباربيس، ثمّ ارتدى الملابس الجديدة. شعر فيها بالراحة: كان القميص على مقاسه تماماً، والبذلة كلاسيكية، لكنها أنيقة، وربطة العنق فاخرة، والحذاء من النوع الرفيع. ألبسة توافق ذوقه كما لو أنّه هو من اختارها.

لمّا عاد إلى الغرفة، كان الظلام قد خيّم، فلمح نيكي في الضوء الخافت وهي ترتدي فستاناً طويلاً أحمر يُظهر جزءاً كبيراً من ظهرها، ذا فتحة كبيرة تكشف عن صدر ورقبة مطوّقة باللآلئ.

- هلا ساعدتني من فضلك؟

مرّ خلفها بصمت، ومضى يربط، كما فعل لسنوات، عقداً حول رقبتها، فشعرت بقشعريرة تسري في جسدها من لمس يده لكتفيها. أمّا هو فانبهر وهو ينظر إلى بشرتها المخمليّة البيضاء، ووجد نفسه فجأة يضع يده على كتفها ويهمّ بمداعبته. رفع عينيه إلى المرآة البيضاوية فتراءت له صورة أشبه بصور أغلفة المجلات.

فتحت نيكي فمها لتقول شيئاً، لكن الريح صفق النافذة بقوة قوّضت سحر اللحظة.

ابتعدت عنه لتتخلّص من ارتباكها وراحت تلبس حذاء بكعب عالٍ. أما سبستيان فحشر يديه في جيبيه. عثر في جيبه الأيمن على بطاقة من الورق المقوى. سحبها ليرمي بها في القمامة، لكنه عدل عن ذلك في آخر لحظة:

- انظري!

لم تكن بطاقة، بل قطعة ورق مطويّة. تذكرة إيداع أمتعة بمحطة المترو، محطّة الشمال.

29

المقاطعة التاسعة عشرة.

كان حيّ أميركا، وهو حيّ لا يعرفه كثير من سكان باريس، يأوي مناجم الجبس ومحاجر الصوان. وهو يستمدّ اسمه من اعتقاد مفاده أنّ «حجر الجص» الذي كان يستخرج من هناك، استعمل في بناء تمثال الحرية والبيت الأبيض. لم يكن ذلك صحيحاً، لكن الأسطورة كانت ساحرة.

خلال «الثلاثين سنة المجيدة»(*)، هدم الجزء الأكبر من الحي ليفسح المجال لبنايات عصرية. لهذا يبدو شمال بلدية بيلفيل القديمة مشوّهاً بأشرطة بنايات كئيبة وأبراج بشعة. وقد ظلّ شارع «موزايا»، المحاصر بين حديقة بوت شومان وطريق المدار الحضري، يشهد على ذلك الزمن الخالي. كانت تتفرّع عن الطريق الرئيس الممتدّ على أكثر من ثلاثمائة متر أزقة مسدودة مرصّفة، محفوفة بمصابيح الإنارة العمومية، ومحاطة بدور صغيرة ذات حدائق ضيّقة.

في المنزل رقم 23 مكرّر من هذا الشارع، وهو منزل صغير مبني بالطوب، ذو واجهة حمراء، رنّ الهاتف للمرّة الثالثة في أقلّ

(*) الفترة الممتدة بين عامي 1945 و1973 والتي تميّزت بنمو اقتصادي عالٍ.

من عشر دقائق. لم ترد كونستونس لاغرانج رغم أنها كانت مستلقية على أريكة في الصالون. ذلك أن نصف زجاجة الويسكي التي شربت خلال الليل، جعلتها غير شاعرة بما يجري حولها من شدّة السكر.

كانت قد تلقَّت قبل ثلاثة أشهر من ذلك، يوم إتمامها السابعة والثلاثين من العمر، ثلاثة أخبار: خبران سارّان وخبر سيئ.

لما وصلت إلى العمل صباح يوم الخامس والعشرين من يوليو/ تموز، زفّ لها رئيسها المباشر، الرائد سوربيي، خبر ترقيتها إلى رتبة نقيب شرطة بالفرقة الوطنية للبحث عن الفارّين.

وعند الزوال، تلقّت مكالمة من مصرفها يخبرونها بأنّهم وافقوا على طلب القرض الذي تقدَّمت به، ممّا سيمكّنها أخيراً من شراء منزل أحلامها بشارع «موزايا»، الواقع بالحي الذي تحب.

قالت كونستونس في نفسها عندئذٍ بأنّ ذلك اليوم هو يوم سعدها، لكن طبيبها أخبرها عند المساء بأن الفحص بالأشعة الذي خضعت له كشَف عن إصابتها بورم في الدماغ في مرحلته الرابعة، وهو من أخبث الأورام، لا ينفع معه دواء ولا جراحة. وقيل لها إن أملها في الحياة لا يتعدّى أربعة أشهر.

اهتزّ الهاتف على الأرضية من جديد، وفي هذه المرّة استطاع الرنين أن يشقّ له طريقه إلى نومها المضطرب، المأهول بصور الخلايا السرطانية. فتحت عينيها ومسحت قطرات العرق المتلألئة على جبينها. بقيت منهكة القوى لدقائق، على وشك الغثيان، تنتظر أن يرنّ الهاتف مرّة أخرى لتلتقطه. نظرت إلى الرقم الظاهر على الشاشة، فوجدته رقم سوربيي، رئيسها السابق.

فتحت الخط وتركته يتكلّم. قال وهو يصرخ:

- ماذا تصنعين؟ لقد مضت نصف ساعة وأنا أحاول الاتصال بك!

أجابت وهي تدعك عينيها:

- أثير انتباهك إلى أنّني قدّمت لك استقالتي.

- ماذا جرى، أأسرفتِ في الشرب؟ تفوح منك رائحة الكحول!

- لا تتحدّث هكذا. لا تنسَ أننا نتكلّم عبر الهاتف...

- لا أهمية لذلك. أنت مخمورة، ورائحة الكحول بلغت حتى هنا!

سألته وهي تنهض بصعوبة:

- حسناً، ماذا تريد؟

- سلطات نيويورك تطالب بتشكيل لجنة تحقيق دولية والقبض على أميركيين في أقرب وقت. رجل وطليقته. مجرمان من العيار الثقيل: المخدرات والقتل والفرار...

- لماذا لم يعهد القاضي لشرطة باريس القضائية بهذا الأمر؟

- لست أدري، ولا يهمّني ذلك. كلّ ما أعلم هو أن علينا أن ننجز المهمّة.

- هذا أمر موكول إليك، أما أنا فلم أعُد محسوبة على هذا القسم.

ردّ الرائد بنبرة غاضبة:

- كفّي، لقد أرهقتني بحكاية الاستقالة هذه. هل لديك مشاكل شخصية؟ حسناً: لقد تركتك ترتاحين لمدّة أسبوعين، لكن الآن ينبغي أن تدَعي هذه الحماقات!

تنهّدت وتردّدت للحظة في أن تكشف له عن الحقيقة: الورم الذي يلتهم دماغها، والأسابيع القليلة التي بقيت من عمرها، ودنوّ

أجلها الذي يرعبها، لكنها أحجمت. فقد كان سوربيي أحد آخر رجال الشرطة من «الطراز القديم»، أحد أولئك الذي لا يملك المرء إلا أن يكنّ لهم الإعجاب. لم ترُقها فكرة أن تستثير رأفته أو تشعره بالانزعاج. والحال أنّها لم تكن ترغب في البكاء أمامه.

- ابعث شخصاً آخر. لماذا لا ترسل الملازم بوتساري؟

- مستحيل. أنت تعلمين جيّداً أن الأمر يكون في غاية الصعوبة لمّا يتعلق الأمر بالولايات المتّحدة. لا أريد مشاكل مع السفارة. عليك أن تعثري على المتهمين، وتلقي عليهما القبض قبل فجر الغد، مفهوم؟

- لقد أجبتك بالنفي!

تجاهل سوربيي جوابها.

- لقد نقلت الملف إلى بوتساري، لكني أريد أن تكوني أنتِ من يشرف على العملية. سأبعث لك بنسخة على هاتفك.

صرخت به وهي تغلق الخط:

- فلتذهب إلى الجحيم!

جرجرت نفسها إلى أن بلغت الحمّام. تقيأت في الحوض سائلاً أصفر. كم مضى عليها من الوقت لم تأكل شيئاً؟ أكثر من أربع وعشرين ساعة على كلّ حال. أغرقت مساء الأمس خوفها في الكحول، مع أنها لم تأكل شيئاً، وذلك حتى يظهر تأثيره عليها منذ الكؤوس الأولى. شربت كمية كبيرة من الخمر في وقت وجيز، وهو ما جعلها تسافر إلى عالم الأحلام لخمس عشرة ساعة.

كان ضوء خريفي خافت ينير الصالون في فترة ما بعد العصر.

كانت كونستونس قد حلت بالبيت قبل ثلاثة أسابيع من ذلك، لكن أغراضها لا تزال على حالها في علب الكرتون المتناثرة في أرجاء الغرف الفارغة.

ما فائدة استخراج الأغراض؟

عثرت في إحدى الخزانات على علبة غرانولا مفتوحة، فتناولت البسكويت، وجلست على مقعد بالمطبخ، وأرغمت نفسها على التهام بعض القطع.

كيف السبيل لقتل الوقت بانتظار أن يقتلنا؟

لمن هذه المقولة؟ لسارتر؟ أم بوفوار؟ أم أرغون؟ خانتها الذاكرة. والواقع أن ضعف الذاكرة هذا هو الذي دفعها لزيارة الطبيب. كانت قد لاحظت قبل ذلك بعض الأعراض الأولية: الغثيان، القيء، الصداع، لكن، مَن يا ترى لم يسبق له أن عانى من هذه الأعراض؟ لم يكن حرصها على صحتها شديداً، لذلك لم تقلق لذلك. وشيئاً فشيئاً بدأت تنتابها حالات من الغيبوبة العابرة وفقدان الذاكرة بحيث صارت تؤثر على حياتها المهنية. أصبحت سريعة الغضب، وأخذت تفقد التحكم في انفعالاتها. ثمّ أجبرها الدوار على زيارة طبيب مختصّ.

كان التشخيص سريعاً وقاسياً. على الكونتوار الخشبي وُضِع ملفّ صحي سميك يقدّم صورة عن مضاعفات مرضها. فتحته للمرة الألف، ونظرت بهلع لصورة دماغها بالأشعة السينية. يظهر على الصورة بوضوح الورم الضخم والأماكن التي اجتاحتها الخلايا السرطانية من الفصّ الجبهي. كانت أسباب هذا المرض غامضة، ولا أحد يستطيع أن يشرح كيف تكاثرت الخلايا فجأة على نحو فوضوي، مدمّرة بذلك دماغها.

أعادت الصورة إلى الملف وهي تشعر بالحنق، ثمّ ارتدت لباسها الجلدي وخرجت إلى الحديقة.

كان الجوّ لا يزال جميلاً. يهبّ نسيم عليل على أوراق الأشجار فيُسمع لها حفيف لطيف. زرّرت سترتها ثمّ جلست على كرسي وشبكت قدميها على طاولة خشب الساج العتيقة. برّمت سيجارة وهي تنظر إلى الواجهة الملونة. كان المنزل يبدو كبيت دُمى ويدرج مدخله ذي الجوانب الحديد. شعرت بالدموع على وشك أن تملأ عينيها. كانت شديدة التعلّق بهذه الحديقة، بما فيها من أشجار: شجرة التين وشجرة المشمش ووشيع الليلك، وشتلات الفورسيثية وعروش الوستيريا. أدركت منذ الثواني الأولى من زيارة المنزل برفقة الوكيل العقاري، وحتى قبل دخوله، أنه المكان الذي طالما تمنّت أن تعيش فيه... ومن يدري، ربّما تربّي فيه ابناً. كانت تحلم بأن تجعل منه ملجأها، ملاذاً يحميها من التلوث والخرسانة وجنون البشر.

شعرت بقسوة الحياة، فراحت تنتحب. رغم اعترافها بحتمية الموت، وأنها جزء من الحياة، فقد كان من الطبيعي أن تنهار أمامها.

اللعنة! لا ينبغي أن تأتي في هذا الوقت المبكر!

لا ينبغي أن تأتي الآن!...

خنقها دخان السيجارة. ستموت وحيدة، ككلب ضالّ، من دون أن تجد أحداً يمسك بيدها. وبدا لها الموقف سريالياً. لم يكلّفوا أنفسهم حتّى أن يحتفظوا بها بالمستشفى. كل ما فعلوا هو أن قالوا لها:

«انتهى الأمر. لا نستطيع فعل شيء: لا علاج كيميائي ولا

علاج بالأشعة». اكتفوا بأن وصفوا لها أدوية مضادة للألم. أجابت بأنها مستعدة للكفاح، لكنّهم أفهموها بأنّ المعركة خاسرة سلفاً. «لن تعيشي سوى بضعة أسابيع يا آنسة».

لا أمل في الشفاء.

استيقظت ذات صباح، قبل خمسة عشر يوماً، فوجدت نصفها مشلولاً، وبصرها ضعيفاً وغير واضح، وغصّة في حلقها. أدركت أنّها لم تعد قادرة على الوفاء بمهامها في العمل، فقدّمت استقالتها.

عرفت ذلك اليوم المعنى الحقيقي للخوف. وصارت تشعر منذئذٍ بخدر عام تارة، بحيث تجد صعوبة في تنسيق حركاتها، ويخفّ أثر هذا الشلل تارة أخرى، فيما يشبه الاستراحة، لكنها كانت تعلم أنّها استراحة وهمية.

اهتزّ هاتفها المحمول معلناً عن وصول عدد من الرسائل النصية. فسوربيي مصرّ على ألا يتركها وشأنها. بعث لها بملفّ الأميركيين. فتحت ما توصلت به من وثائق على مضض، وراحت تقرؤها. يدعى الهارب سبستيان لارابي وتدعى طليقته نيكي نيكوفسكي. أمضت ربع ساعة مستغرقة في قراءة تقرير هروبهما قبل أن ترفع بصرها فجأة عن هاتفها. أليست لها أمور أهمّ تفعلها؟ ألا تستطيع أن تتمتّع بما بقي لها من أيام قلائل لكي ترتّب أغراضها، وتزور لآخر مرّة أحبابها، أو أن تقضي ما فضل من حياتها في تأمّل معنى الحياة؟

هراء!

كانت، ككثير من رجال الشرطة، متعلّقة بعملها إلى حدّ الإدمان، والمرض في واقع الأمر لم يغيّر شيئاً من ذلك. كانت

بحاجة إلى جرعة أخيرة من الأدرينالين. كانت تبحث عن شيء يخلّصها من الخوف الذي يحاصرها من كلّ جانب.

سحقت عقب السيجارة، ودخلت إلى البيت وكلّها تصميم. تناولت سلاح الخدمة من أحد الأدراج. لمست في نفسها من جديد، وهي تداعب مقبض المسدس، أحاسيس مألوفة ومريحة. وضعت السلاح في غمده، وتناولت ملقّماً إضافياً ثم غادرت المنزل.

كانت قد تخلّت عن سيارة الخدمة، لكنها لا تزال تملك سيارة السباق RCZ التي اشترتها بما ورثته عن جدتها. جلست وراء المقود وهي لا تزال متردّدة. أهي قادرة على الإشراف على آخر تحقيقاتها؟ أتراها تستطيع الصمود؟ أم ستنهار على بُعد مائة متر من بيتها بفعل التعب والشلل؟ أغمضت عينيها لثوانٍ وتنفست بعمق، ثمّ شغّلت محرّك السيارة، فتبدّدت هواجسها.

30

كانت حركة السير سلسة.

توجّهت كونستونس لاغرانج على متن سيارتها نحو مونمارت. اتّصلت ببوتساري هاتفياً، فعلمت أنّه لم ينتظر وصولها لكي ينطلق في البحث. استناداً إلى ما توفر له من معلومات، استُعملت بطاقة سبستيان لارابي الائتمانية بعد ظهر ذلك اليوم في شباك أوتوماتيكي بميدان بيكور، وهو مكان تعرفه كونستونس: حديقة صغيرة ظليلة تقع بين شارع جونو وشارع لابان أجيل، على مرمى حجر من مونمارت السياحية.

قالت في نفسها وهي تتجاوز درّاجة نارية: **الاختباء في هذا المكان لا يخلو من غرابة.**

إلى أين لجأ الأميركي وطليقته يا ترى؟ إلى مخبأ منعزل؟ أم إلى بناية مهجورة؟ أم تراهما حجزا بفندق...

اتّصلت من جديد ببوتساري لتتأكّد من أنّه وجّه مذكّرة بحث إلى شركات التاكسي وشركات تأجير السيارات، فأخبرها بأنّه فعل، لكن الإجابات تَفِدُ ببطء شديد.

- إنّني أنتظر أيضاً صور كاميرات مراقبة مطار رواسي.

أغلقت كونستونس الخط وأدخلت في نظام تحديد المواقع

العالمي على هاتفها الآيفون المعطيات المتعلّقة بميدان بيكور لتحصل على لائحة الفنادق القريبة. كان من المتعذّر زيارتها واحداً واحداً لكثرتها، لكنّها قرّرت مع ذلك أن تحاول أمراً: أن تركّز على رولي مونمارت، الواقع بشارع كونستونس، الذي يشبه اسمها...

كانت من أولئك الذين يؤمنون بالأبراج والمصادفات وعجائب الاتفاقات وتصرّف الأقدار. قالت في نفسها وهي تركن سيارتها أمام الفندق: إن صدق حدسي، سيكون أمراً جيّداً على كلّ حال...

لكن لا ينبغي الاستغراق في الأحلام: غادرت الفندق بعد عشر دقائق وهي لا تلوي على شيء. ثمّ عرّجت على فندق تيموتيل الواقع بميدان غودو. بدا لها المكان قادراً على نيل إعجاب الأميركيين. لكنها لم تخرج منه بشيء. وبينما كانت تتأهّب للمغادرة، بلغتها مكالمة من بوتساري:

- اسمعي! يؤكّد أحد سائقي لوكسوريكاب أنه حمل لارابي وطليقته من المطار هذا الصباح، وأوصلهما إلى غراند أوتيل دو لابوت الموجود بجوار ميدان بيكور. وهي رواية تتناسب تماماً مع المعطيات المتوفّرة لدينا!

- لا تبالغ في الحماس يا بوتساري.

- أأبعث فرقة إلى عين المكان؟

- كلا، اترك هذا الأمر لي. سأذهب إلى هناك للاستقصاء، وسأطلعك على المستجدات.

عادت كونستونس أدراجها عبر شارع دورانتان، ثمّ شارع لوبيك لتصل إلى شارع جونو. ثمّ دخلت إلى الطريق المسدود المؤدّي إلى الفندق. كانت البوابة الحديد مفتوحة، وعمال البستنة يغادرون. اغتنمت الفرصة لتلج الحديقة من دون استئذان. شقّت السيارة

الرياضية طريقها عبر الحديقة قبل أن تتوقف أمام البناية البيضاء الضخمة.

فتّشت وهي ترتقي السلم في جيب سترتها عن بطاقة الشرطة، ثمّ قدمت نفسها للمكلفة بالاستقبال: العميد لاغرانج، من فرقة البحث عن الفارّين الوطنية.

لم تكن موظفة الفندق ثرثارة، وكان ينبغي تهديدها لكي تنتزع منها بعض المعلومات. فعلاً، ينزل في فندقها سبستيان لارابي وزوجته، لكنهما غادرا قبل ساعة.

- تزعمين أنّهما حجزا هذه الغرفة منذ أسبوع؟

- نعم، بواسطة موقعنا الإلكتروني.

طلبت كونستونس أن تزور غرفتهما. وبينما كانوا يقودونها إلى الجناح، قالت في نفسها إنّ هذا العنصر لا يتناسب مع ما اطّلعت عليه في الملف. فالحجز المسبق يستلزم نية مسبقة، بينما تفاصيل التحقيق الأميركي توحي بأنّ لارابي وطليقته غادرا نيويورك على حين غرّة.

عندما دخلت إلى الغرفة الشاسعة، أعجبتها زينتها الفاخرة. لن تظفر من رجل بعطلة نهاية أسبوع في مكان كهذا...

لكن سرعان ما تغلّبت المحقّقة بداخلها على الأنثى. اكتشفت في الحمام قميصاً وسترة ملطخين بالدم، كما عثرت في الصالون على حقيبة وأكياس تسوّق تحمل علامات أشهر الماركات العالمية.

الأمور توغل في الغرابة...

كما لو أن لارابي وطليقته ليسا هاربين، كما لو أنهما يقضيان شهر العسل.

- كيف كان لباسهما وهما يغادران؟

ردّت موظفة الفندق:

- لم أعد أذكر.

- أتسخرين منّي؟

- كانا بلباس السهرة.

- ألا تعرفين إلى أين ذهبا؟

- كلا، لا علم لي.

دعكت كونستونس جفنيها. هي واثقة من أنّ هذه المرأة تكذب. ولكي تطلق لسانها، هي بحاجة إلى مزيد من الوقت، والوقت هو ما ينقصها. لم يبقَ أمامها غير أسلوب الترهيب... سحبت مسدسها من غمده بغتة، وأمسكت برقبة المرأة ثمّ وضعت فوّهته على صدغها وهي تصرخ:

- أين ذهبا؟

أغمضت موظفة الفندق عينيها وقد ركبها الفزع. أخذ فكاها يصطكّان، وقالت بنبرة مرتبكة:

- لقد طلبا منّي... خريطة.

- عماذا كانا يبحثان؟

- عن محطة الشمال... ثمّ جسر ألما فيما أظن.

- لماذا جسر ألما؟

- لست متأكّدة... تحدثا عن عشاء في سفينة. أظنّ أنهما حجزا لهذا المساء.

تركت كونستونس الموظفة ثمّ غادرت. اتصلت وهي تنزل أدراج السلم ببوتساري. أصابتها حكاية العشاء على المركب بالذهول. على أنّ منع لارابي وطليقته من ركوب القطار كان أمراً لازماً. ذلك أن السفر من محطة الشمال إلى إنجلترا أو بلجيكا أو هولندا متيسر.

أجابها جهاز الرد الأوتوماتيكي، فتركت لزميلها رسالة:

- نادِ على شرطة محطة شمال باريس. أبلغهم بتقرير لارابي، وأصدر الأمر لتعزيز مراقبة القطارات المتّجهة إلى الخارج. ابحث لي أيضاً عن الشركات التي تملك مراكب بجسر ألما، وتثبّت مما إذا كان لديهم حجز باسم الأميركيين. هيّا أسرع!

لمّا عادت إلى سيارتها، لمحت موظفة الفندق وهي تتابعها من نافذة الغرفة. كانت قد التقطت أنفاسها، وقالت حانقة:

- لا تظنّي أنّ الأمور ستقف عند هذا الحدّ! سأخبر رؤساءك بما وقع، وسأقدّم شكاية ضدّك. سيكون هذا هو تحقيقك الأخير أيّتها العميدة!

قالت كونستونس في نفسها: هذا أمر أنا متأكدة منه...

31

لا ينبغي التوقف عن الحركة.

لا ينبغي الثبات ولا التردّد.

كانت نيكي تلفت الأنظار، في أجواء محطة الشمال المكهربة، بكعبها العالي وفستان السهرة. راعهما مشهد الازدحام منذ أن أشرفا على فناء المحطة. تهيّأ لهما وهما في الزحمة كما لو أن موجة بشرية تجرفهما، كما لو أنّهما يجسّان نبض المحطة، كما لو أن معدة ضخمة ابتلعتهما وهي بصدد هضمهما.

كان سبستيان يمسك ورقة إيداع الأمتعة في يده، ووجد صعوبة بالغة في العثور على وجهته؛ ذلك أنّ المحطة تأوي مصالح متعدّدة: سكة الحديد الفرنسية، الشركة المستقلة للنقل بباريس، أوروستار، تاليز . . . هذا فضلاً على أنّها منصة متعدّدة الأذرع، تستقبل أناساً في غاية التنوع: عمال الضواحي، رجال الأعمال المتعجّلين، حشود من «الشباب» يقيمون بجوار واجهات المتاجر، المتشردون، دوريات الشرطة. . .

بدّدا وقتاً طويلاً في البحث عن مكتب إيداع الأمتعة الأوتوماتيكي قبل أن يعثرا عليه في الطابق التحت أرضي الأوّل.

كان عبارة عن مكان كئيب، بلا نوافذ، ذي إنارة شاحبة. غرفة مستطيلة أشبه بمتاهة، تفوح منها رائحة عطنة بسبب انعدام التهوية.

راحا يجولان على الصناديق الرمادية وعيونهما على الأرقام الثلاثة المكتوبة على البطاقة. يشير الرقم الأول إلى موقع العمود، والثاني إلى الخزانة، والأخير إلى مجموعة الأرقام التي تسمح بفتح الصندوق الحديد.

هتفت نيكي:

- ها هو!

ركّب سبستيان الأرقام الخمسة على لوحة المفاتيح الحديد، وسحب باب الصندوق، ثمّ تطلّع إلى ما بداخله بكثير من التوجّس.

كان يحتوي على حقيبة ظهر بلون أزرق شاحب، مزيّنة بعلامة «شوك تايلور».

صاحت نيكي:

- إنّها حقيبة جيريمي! أعرفها!

فتحت الحقيبة: كانت فارغة. قلّبتها من كلّ جوانبها، لكن بلا جدوى.

- ألا يوجد بها جيب داخلي؟

لم تلاحظ من شدّة استعجالها بطانة النايلون بظهر الحقيبة. إنها فرصتهما الأخيرة. سحبت السستة بيدين مرتعشتين لتكتشف...

- مفتاح؟

تفحّصت هذا الشيء اللامع قبل أن تناوله لسبستيان. إنّه مفتاح معدني ذو ساق محفورة، لكن، ماذا عساه يفتح؟

شعرا بالإحباط للحظة، وراودهما شعور بأنّهم أوقعوا بهما من

جديد. كلّما توهما أنهما أمسكا بخيط، انقطع. كلّما ظنّا بأنهما بلغا الهدف، راح مبتعداً عنهما. غير أن إحباطهما لم يدُم طويلاً. فقد استعادت نيكي قوّتها وقالت وهي تنظر إلى الساعة الجدارية:

- لا ينبغي أن نضيّع مزيداً من الوقت هنا. إذا تأخرنا في الوصول إلى جسر ألما، فالمركب لن ينتظرنا.

32

مضت ثلاثة أرباع الساعة على كونستونس لاغرانج وهي تجوب أرصفة محطة الشمال برفقة فرقة من رجال شرطة سكّة الحديد.

عُزّزت مراقبة المحطة، لكن لم يُعثر للارابي وطليقته على أثر. لعلّهما عدلا عن السفر نظراً إلى كثافة حضور رجال الشرطة.

اللهم إذا لم تكن لهما أصلاً نيّة السفر بالقطار.

اهتزّ هاتف كونستونس. إنّه بوتساري. قال بوثوق:

- عرفت وجهتهما. حجزا بمركب شركة رحلات باريس على الساعة الثامنة والنصف.

- أتسخر مني؟

- حاشا أن أسخر منك يا رئيستي!

- ألا يثير هذا استغرابك؟ لو كنت هارباً في باريس، فهل كنت ستفكّر في ارتداء أبهى حللك وتذهب لتتعشّى على مركب؟

- هذا مثير للاستغراب حقّاً.

- لا تقطع الخط.

اعتذرت كونستونس لرجال شرطة سكّة الحديد، وطلبت منهم أن يبقوا متيقظين، ثمّ توجّهت نحو موقف السيارات.

استأنفت المكالمة قائلة:

- بوتساري؟

- نعم.

- الحق بي عند رصيف جسر ألما.

- أأصطحب معي فرقة؟

- كلا، سنستقبلهما بهدوء. أنا وأنت فقط.

ربطت كونستونس حزام السلامة وهي تنظر إلى الساعة بلوحة القيادة.

- أظنّ أنّ الوقت متأخّر لاعتراضهما قبل الانطلاق، أليس كذلك؟

- يمكن أن أطلب من الشركة تأخير الانطلاق.

- كلا، إذا لاحظا تأخّر المركب، فلربّما تفطّنا إلى أننا نتعقّبهما، فيفلتان منّا.

- أأخبر فرقة الشرطة النهرية؟

- لا تخبر أحداً. انتظرني فقط، مفهوم؟

33

عبرت سيارة الأجرة شارع مونتيني وتوقفت أمام جسر ألما ليترجّل منها سبستيان ونيكي. كان الظلام مخيّماً، لكن الجوّ كان لا يزال دافئاً. ألفى سبستيان باريس أخرى هادئة، لا تمتّ بصلة لما عاينه في باريبس ومحطة الشمال: ضفتا نهر السين الوديعتان وبرج إيفل المنير.

بلغا الضفة اليمنى الممتدّة باتجاه جسر الأنفاليد مشياً على الأقدام. كانت أشجار كستناء عالية تحجب مرفأ لاكونفيرونس حيث ترسو مراكب شركة الجولات الباريسية.

لفظت المراكب الأولى التي صادفاها في طريقهما مجموعات من السائحين، فتوجّهوا إلى الحافلات السياحية المصطفة. حثّا الخطو ليبلغا الرصيف المخصّص للسفن المطاعم.

قالت نيكي وهي تشير بأصبعها إلى مركب ضخم ذي طابقين:

- هذه هي السفينة فيما أظنّ.

تقدّما من مكان رسو سفينة الأميرال، وأعلنا عن اسميهما، فرحّبت بهما مضيفة، وقدّمت لهما مطويّة من الورق المقوى، ثمّ قالت وهي ترافقهما إلى مائدتهما:

- المركب على وشك الانطلاق.

كان ظهر السفينة المغطى بالزجاج يأوي مائة مائدة تقريباً في جوّ رومانسي: ضوء خافت وسقف متلألئ وأرضية داكنة اللون، وشموع تتراقص شعلاتها، مبثوثة بين أواني الموائد. كل شيء مصمّم ليخلق جوّاً مفعماً بالحميمية، بما في ذلك وضع المقاعد بحيث يجلس الأزواج جنباً إلى جنب، وهو ما أشعر نيكي وسبستيان بالارتباك بعد أن جلسا متقاربين أمام الواجهة الزجاجية. خفض سبستيان بصره وراح يقرأ قائمة الطعام التي تعِدُ بـ«مطبخ مبتكر بنكهات رائعة، أعدّها رئيس طهاتنا بموادّ غاية في الطراوة».

هراء...

حيّتهما نادلة تعتمُّ بقبّعة أفريقية ضخمة محاطة بمنديل قائلة:

- مرحباً بك سيدتي، مرحباً بك سيدي.

ثمّ فتحت زجاجة موضوعة في دلو مليء بقطع الثلج، وصبّت لهما كأسين قبل أن تقترح عليهما أخذ طلباتهما.

جال سبستيان ببصره في قائمة الطعام باستعلاء. بادرت نيكي من باب اللياقة بتفحّص القائمة، وطلبت لها ولطليقها. أدخلت النادلة ما طلباه في جهازها الإلكتروني وتمنّت لهما سهرة سعيدة.

كان المركب يعجّ بالأميركيين والآسيويين والفرنسيين القادمين من مختلف المحافظات. كان ظاهراً أن بعضهم يحتفل بشهر العسل، وآخرين بذكرى زواجهم، وكانوا يبدون فرحين بوجودهم في هذا المكان. جلست أمامهما أسرة من بوسطن، مكوّنة من أب وأمّ وطفلين. وكانوا يتبادلون الدعابات بنبرة متواطئة، وخلفهما جلس رجل وامرأة يابانيان. كانا يتهامسان بعبارات غرامية.

قالت نيكي وهي تشرب كأس النبيذ بجرعة واحدة:

- أكاد أموت عطشاً!

ثمّ صبت كأساً آخر.

- ليس شامبانيا، ولكنه رائع!

وفجأة تعالى هدير المحرك، وتصاعدت من النهر رائحة فيول خفيفة، ثمّ غادر المركب رصيف ألما، تاركاً خلفه سرباً من الطيور البيضاء.

ألصقت نيكي وجهها بالواجهة الزجاجية. كانت المراكب على نهر السين في بداية المساء كثيرة: مراكب شحن البضائع، زوارق سريعة، زوارق فرقة الشرطة النهرية ورجال الإطفاء. لمّا بلغ المركب حدائق تروكاديرو، مرّ بمحاذاة مرفأ صغير تحمي رصيفه أشجار حور وجميز. رفع بعض الركاب كؤوسهم وهم يتناولون عشاءهم باتجاه ركاب سفن أخرى، فردّوا عليهم هؤلاء بإيماءات ودودة.

- سيدتي، سيدي، إليكما المقبّل: كبد إوزّ دسم ومربّى تين بروفانسي.

التهم سبستيان الكبد الدسم في بضع لقم، ذلك أنّه لم يأكل شيئاً منذ السمكة البغيضة النيّئة المنقوعة التي اشتراها في اليوم السابق أمام ثانوية جيريمي. ولم تكن نيكي أحسن حالاً منه. فرغم أن الخبز المحمّص كان بارداً، والسلطة ضئيلة، فإنها التهمتها بنهم لعلها تخفّف من جوعها، ثمّ أفرغت كأس النبيذ.

قال سبستيان وهو يراها تحتسي كأسها الرابعة ذلك المساء:

- لا تفرطي في الشرب.

- أراك لا تترك فرصة دون أن تنكدّ علي فرحي...

- هل تسمحين بأن أذكّرك بأنّنا هنا من أجل البحث عن ابننا، وأن أمامنا لغزاً ينبغي أن نفكّه؟

رفعت نيكي عينيها إلى السماء، ثمّ أخرجت من حقيبتها المفتاح الذي عثرا عليه بمستودع الأمتعة. قلّباه من كلّ جوانبه، ولم يجدا فيه ما يثير الانتباه. كانت عبارة "ABUS Security" منقوشة على حلقته، وهي الإشارة الوحيدة التي يحملها.

تنهّد سبستيان بعمق، ذلك أن لعبة الملاحقة هذه أخذت تنهكه. هذه الألغاز ترهقه ولا تترك له فرصة للتفكير المتأني. كما أنّها لا تترك فرصة لتقييم المنحى الذي أخذته الأحداث. كانت بضع ساعات كافية لأن تصيبه بالبارانويا، بحيث راح يتفرّس كل الخدم، ويرى في كلّ راكب خاطفاً بالقوّة. صار كلّ شيء يبدو له مريباً.

قالت نيكي بنبرة حازمة وهي تخرج هاتفها:

- سأقوم ببحث.

إذا كان هاتف سبستيان قد سرق، فنيكي لا تزال تحتفظ بهاتفها. شغّلت محرك البحث غوغل وكتبت عبارة "ABUS Security". كانت الصفحات الأولى تحيل كلّها على الموقع الإلكتروني نفسه. فكلمة "ABUS" هي اسم علامة ألمانية متخصّصة في الأمن، وهي تصنع أيضاً الأقفال والأجهزة المضادة للسرقة وأنظمة المراقبة بالكاميرا.

ولكن ما علاقة هذا المفتاح بهذه الجولة على نهر السين؟

- تبسّما للكاميرا! Smile for the camera! Lächeln für die Kamera!

كان مصور الشركة يتجوّل بين الموائد حاملاً آلة تصوير يلتقط بها صوراً للأزواج من مختلف الجنسيات تخليداً لهذه اللحظة. رفض سبستيان تصويره بالطبع، لكن «الباباراتزي» الذي يتكلم مختلف اللغات ألحّ قائلاً:

- You make such a beautiful couple![1]

تنهّد، ووافق على أن تؤخذ له صورة مع طليقته مكرهاً، متصنّعاً ابتسامة مغتصبة.

وبينما كانت النادلة تُخلي المائدة من الأطباق، قال لهما المصور:

- Thank you! Be back soon[2]

لاحت أعمدة حديد مترو بير-هكيم الهوائي في الظلام.

كان الجوّ على ظهر المركب يزداد ابتهاجاً شيئاً فشيئاً. في وسط الطابق السفلي ثمّة منضدة ضخمة تحيط بحلبة رقص مرتفعة قليلاً، جلس عليها عازفا كمان وبيانو، ومُطرِب مُتشبّه بميكائيل بوبلي، يغنّي بعض كلاسيكياته: الأوراق الميتة، طِرْ بي إلى القمر، الحياة الطيبة...

مضى السائحون يترنّمون بكلمات الأغنية بينما كان المركب يدنو من شاطئ جزيرة البجع. ألصقت على كلّ مائدة من موائد المطعم شاشة تقدّم معلومات وطرائف عن كلّ معلمة يمرّ بها المركب. ضبطت نيكي اختيارات الترجمة حتى تتابع التعليق مكتوباً بالإنجليزية أسفل الشاشة.

«تنتصب في مقدمة جزيرة البجع نسخة مطابقة لتمثال الحرية الشهير الموجود بنيويورك. هذه النسخة تصغر التمثال الحقيقي بأربع مرات، وهي تنظر نحو الولايات المتّحدة وترمز للصداقة الفرنسية الأميركية...»

---

(1) تبدوان كزوجين جميلين!
(2) شكراً! سأعود قريباً.

رسا المركب لمّا بلغ أقصى الجزيرة الاصطناعية لدقائق، متيحاً بذلك للركاب فرصة الاستمتاع بالمنظر، قبل أن يقفل راجعاً بمحاذاة الضفة اليسرى.

صبّ سبستيان لنفسه كأس نبيذ، وقال معترفاً لنيكي:

- ليس معتّقاً، لكنه طيّب مع ذلك.

ابتسمت له مبتهجة. استسلم مرغماً لمرح اللحظة وجمال المناظر.

مرّ المركب ببطء بجوار مرفأ سوفران ثمّ مرفأ بوردوني، وهما معاً يرسمان قوسين، ويخلقان ما يشبه خليجاً يتقدّم في الماء. كان المكان فضاء شاسعاً يمتدّ حتى برج إيفل، يرتاده المتنزهون. كان ساحراً، لا يستطيع حتّى المتبرّمون مثله أن ينكروا جماله. بالمقابل وجد الطعام سيئاً، والمغني لا يُطاق، لكن سحر باريس كان أقوى من كلّ شيء.

رشف جرعة من كأسه وهو ينظر إلى الأسرة البوستونية الجالسة إلى مائدة تتقدّم مائدتهما. كان الرجل والمرأة في مثل سنّهما تقريباً، بين الأربعين والخامسة والأربعين. وذكّره سنّ ابنهما وابنتهما، البالغين حوالي الخامسة عشرة، بكامي وجيريمي. أرهف سبستيان السمع فعلم أنّ الأب طبيب والأمّ معلمة موسيقى بمعهد موسيقي. كانوا يجسدون صورة الأسرة المتماسكة: التقبيل والربت على الأكتاف والدعابات والدهشة أمام المآثر.

قال سبستيان في نفسه بحزن: كان من الممكن أن نكون مكانهم. لماذا يستطيع البعض أن ينعم بهذه السكينة بينما يعيش آخرون في النكد؟ سلوك نيكي وطبعها هما سبب فشل أسرتهما.

التقت عينا نيكي بعيني طليقها، فخمّنت ما يجول في ذهنه.

- لا أظن أنهم يذكرونك بنا على كلّ حال؟

- بحالنا لو لم نفترق...

علّقت نيكي كما لو أنّها تفكر جهراً:

- ليست الاختلافات بيننا هي التي كانت مشكلة، بل أسلوبنا في التعامل مع تلك الاختلافات: عجزنا عن الاتفاق حول تربية طفلينا، رفضك أن نأخذ معاً القرارات المتعلقة بمستقبلهما، الكراهية التي نمت بداخلك نحوي...

- انتظري، لا تقلبي الأدوار من فضلك! هل تريدين أن أذكّرك بما عجّل بفراقنا؟

نظرت إليه مذهولة من عودته إلى هذه الحكاية، لكنّه استرسل بنبرة لا تخلو من فظاظة:

- أنسيتِ سهوك عن الذهاب لإحضار الأطفال لأنك كنت مشغولة مع عشيقك في الضاحية الأخرى من بروكلين!

قالت له آمرة:

- كفّ عن هذا!

فصرخ محتجّاً:

- كلا لن أكفّ! لأنّ هذه هي الحقيقة. لمّا لم تجدك كامي وجيريمي، قررا العودة إلى البيت مشياً على الأقدام. هل تذكرين ما ترتّب عن ذلك؟

- أنت جائر...

- غيبوبة كامي لمدّة يومين لأنّ سيارة أجرة صدمتها!

كان الغضب قد تمكّن من سبستيان، فلم يعد قادراً على ضبط نفسه:

- ولما لحقتِ بي في المستشفى، كانت رائحة الكحول تفوح منك! كانت نجاة كامي من تلك الحادثة معجزة. أشرفت على الموت بسبب خطئك، وهو أمر لن أغفره لك أبداً!

قامت نيكي فجأة. كان ينبغي أن تضع حدّاً لهذا الحديث، لم تعد تحتمل.

لم يحرك ساكناً لاستبقائها من شدة غضبه. تابعها ببصره وهي تغادر المائدة وتصعد السلم لتختفي في الطابق العلوي.

34

بعد أن نزلت كونستونس الطريق المنحدر المفضي إلى مرفأ لاكونفرانس، ركنت سيارتها الرياضية إلى جوار سيارة الخدمة. كان بوتساري واقفاً يدخن.

بادرته لائمة:

- ألم تجد مكاناً آخر أبرز من هذا تركن فيه السيارة؟! لم يفضُل غير أن تستعمل صفارة الإنذار والقنديل الدوار!

- لا تغضبي، انتظرت إلى أن تحرّك المركب قبل أن أركن سيارتي هنا.

نظرت كونستونس إلى ساعتها.

الثامنة وخمس وخمسون دقيقة.

- هل أنت متأكّد من أنّهما في المركب؟

- نعم، لقد أكّدت لي المضيفات أنّهما التزما بالحجز.

- لعلّهما بعثا شركاء لهما. أأنت واثق من أنهما هما من حضر؟

كان بوتساري متعوّداً على مبالغة لاغرانج في التحرّز، لذلك أخرج من جيبه صورتين فوتوغرافيتين مستمدّتين من الشريط الذي صورته كاميرا المراقبة، وناولها إياهما.

حدّقت في الصورتين. صورتا لارابي وطليقته حقّاً. هي ترتدي فستان سهرة وهو بذلة داكنة: يظهران كعارضي أزياء.

علّق بوتساري وهو يشير إلى نيكي:

- امرأة جميلة، أليس كذلك؟

لم تُجِب كونستونس، كانت مستغرقة في أفكارها. ثمّة شيء غريب في هذا التحقيق، وهي متلهّفة لاكتشافه.

ثمّ أضاف بوتساري:

- لقد استقصيت أخبار الجولة. تدوم ساعتين تقريباً، لكن المركب يتوقّف في منتصف الطريق. إذا سارت الأمور على ما يرام، سنلقي عليهما القبض بعد نصف ساعة.

أغمضت كونستونس عينيها، ودعكت جفنيها. لقد استطاعت الصمود حتى الآن، لكن صداعاً مفاجئاً كان يثقب جمجمتها.

- هل أنت بخير؟

فتحت عينيها وحرّكت رأسها دلالة على أنها بخير.

- الواقع أنّنا في المكتب قلقون عليك قليلاً.

زجرته قائلة وهي تلتقط سيجارة من علبته:

- قلت لك أنا بخير!

لكنّه كان يعلم، مثلما تعلم هي، أنها تكذب.

35

هبّ ريح على سطح المركب غير المسقوف الذي يسمح للمسافرين بمجال رؤية على نهر السين بسعة 360 درجة.

كانت نيكي مستندة إلى الحاجز المحيط بسطح المركب تدخن وهي واجمة، تحدّق في جلال جسر ألكسندر الثالث وجماله. فهو يعلو نهر السين من دون صواري ولا أعمدة، محمّلاً بتماثيل ونقوش مذهّبة.

لحق بها سبستيان. شعرت بوجوده خلفها، لكنّها خمنت أنّه لم يأتِ للاعتذار.

اعترفت من دون أن تلتفت:

- الحادثة التي تعرّضت لها كامي كانت بسبب خطئي، لكن لا تنسَ ملابسات تلك المرحلة. كانت علاقتنا على حافة الهاوية. كنّا نقضي كلّ وقتنا في الشجار. لم تكن تحترمني...

قاطعها قائلاً:

- لا شيء يمكن أن يغفر تصرفاتك.

انفجرت في وجهه:

- وتصرفاتك أنت، أتظنّ أنّها تقبل المغفرة؟

لفت صوتها العالي أنظار الحاضرين. كثيراً ما يكون مشهد الشجار بين زوج وزوجته مسلّياً...

استرسلت بالعدوانية نفسها:

- بعد طلاقنا لفظتني من حياتك، علماً بأنّ العلاقة بيننا كان من الممكن أن تستمرّ، ليس كعشيقين بالطبع، بل كوالدين على الأقل.

- كفّي عن استعمال لغة السيكولوجيين هذه. إما أن نكون أزواجاً أو لا نكون.

- كلا. كان من الممكن أن تبقى العلاقة بيننا طيبة. كثير من الناس تمكّنوا من ذلك.

- علاقة طيّبة؟ أتسخرين منّي؟

التفتت إليه. كانت لا تزال تلتمع في عينيه، خلف التعب والغضب، ذرّة حب.

قالت ملحّة:

- عرفت قصّة حبّنا لحظات جميلة.

فردّ على الفور:

- وكثيراً من الأشياء المؤلمة أيضاً.

- لكن اعترف بأنّك لم تتصرّف كراشد مسؤول عند فراقنا.

فأجاب بفظاظة:

- رمتني بدائها وانسلّت...

قالت نيكي مهاجمة:

- أظن أنّك ما زلت لا تقدّر عواقب أفعالك. فصلت بين توأمينا، وحرمتني من ابنتي، وقطعت علاقتك بابنك! يا لها من حقارة!

- لكنّك رضيت بهذا الاتفاق يا نيكي.

- لأنّني كنت مجبرة! كان بوسعك أن تستأثر بحضانة الطفلين معاً بالنظر إلى عدد المحامين الذين وكّلت، وملايين الدولارات التي أنفقت.

صمتت لثوانٍ، ثمّ صمّمَت على أن تواجهه بأمر لطالما كتمته عنه، سألته بصوت خافت:

- لم ترد أبداً في قرارة نفسك أن تحضن جيريمي، أليس كذلك؟

لزم سبستيان الصمت.

كرّرت بإلحاح بينما ترقرقت عيناها بالدموع:

- لماذا تنبذ ابنك؟ إنّه ولد لطيف، حساس ودمث. لطالما انتظر إطراء منك، أو أن تبدي اهتمامك به، لكنك لم تفعل أبداً. . .

تقبّل سبستيان مؤاخذات نيكي ولم يردّ، لكنّها كانت تتوق لأن تفهم:

- لماذا لم تسع قطّ للتعرف عليه؟

تردّد لحظة، ثمّ قال مستسلماً:

- لأنّ الأمر في غاية الصعوبة.

- أيّ أمر؟

قال وهو يحوّل بصره عنها:

- جيريمي يشبهك كثيراً، يستعمل عباراتك نفسها، ويحاكيك في الضحك والنظرة وطريقة الكلام. حين أراه أتذكرك، وهو أمر لا أطيقه.

لم تكن نيكي تنتظر هذا الجواب. شُدهت بما سمعت، وأضافت بصعوبة:

- استسلمت لغرورك على حساب حبّ ابنك!

- وفّيت بقسطي من الواجب اتّجاه كامي. فهي ناضجة وذكية ومهذّبة.

قالت وقد امتلأت عيناها بالدموع:

- أتريد الحقيقة يا سبستيان؟ كامي قنبلة موقوتة. نجحت في السيطرة عليها حتى الآن، لكن ذلك لن يطول. لمّا ستنتفض، قد تجعلك تعضّ على أناملك ندماً.

تذكّر سبستيان علبة حبوب منع الحمل التي عثر عليها في غرفتها.

اقترب من نيكي بعد أن هدأ، وطوّقها بذراعيه.

- أنتِ محقّة، أرجوك، لا داعي لأن نتشاجر الآن. لنبقَ متلاحمين في هذه المحنة. سأغيّر تعاملي مع جيريمي، وسأسمح لك بلقاء كامي كما تشائين. أعدك بأن تعود الأمور إلى نصابها.

- كلا، لقد فات الأوان. الضرر وقع، ولا مجال لتداركه.

فردّ بنبرة قاطعة:

- كلا، لا وجود لشيء لا يمكن استدراكه.

بينما كان المركب يمرّ تحت أقواس جسر الفنون والجسر الجديد، مكثا لحظة وقد احتضن كلّ منهما الآخر، ثمّ ابتعدا عن بعضهما.

مرّ المركب بمحاذاة الضفة التي يوجد بها باعة الكتب المستعملة عند رصيف سان ميشيل. كان يبدو طيف كاتدرائية نوتردام القوطية بأقصى جزيرة لاسيتي، وأبعد منها قليلاً تلوح في الظلام فنادق جزيرة سان لوي الفخمة.

اقترحت نيكي بعد أن سحقت سيجارتها الثالثة:

- لنحاول أوّلاً فكّ لغز هذا المفتاح. قد تكون ثمّة إشارة لم نهتدِ إليها. لا بدّ من أن تكون لترتيب الأمور بهذا الشكل دلالة. ينبغي أن نعثر على ما يفتحه هذا المفتاح...

جابا السطح الأعلى للمركب بحثاً عن قفل، لكن بلا جدوى. وهبّت ريح قوية باردة فأخذت نيكي ترتعش من البرد ممّا جعل سبستيان ينزع سترته ويضعها على كتفيها. رفضت في بادئ الأمر، لكنها طاوعته بعد أن ألحّ.

هتف فجأة وهو يشير إلى صفّ صناديق معدنية كانت تحوي سترات النجاة:

- انظري!

كان عددها اثني عشر صندوقاً تقريباً، مختومة كلّها بأقفال. راحا بحركات محمومة يحاولان فتحها بمفتاحهما، لكنهما لم ينجحا في فتح أيّ منها.

اللعنة...

شعرت نيكي بالإحباط، فأشعلت سيجارة أخرى دخناها معاً بصمت وقد استندا إلى الحاجز المعدني المحيط بسطح السفينة. كانت الضفتان حاشدتين بالناس، تعرضان فسيفساء من النماذج البشرية: أسر تتنزّه في جوّ من الابتهاج، عشاقٌ يتبادلون القبل، رجلٌ وامرأة عجوزان يرقصان عند جانب الماء كما لو كانا شخصيتين في أحد أفلام وودي آلين. في مكان أبعد جماعة من المتشردين يتسكّعون، مجموعات من الشابات تقهقهن وتقمن بإشارات بذيئة باتجاه المتنزهين على المراكب، مشرّد يدخن سيجارة حشيش ضخمة بطول ذراع، والكحول موجود في كل مكان، وبمختلف الأنواع.

همست:

- تعال ندخل، أشعر بالبرد.

وعادا إلى داخل المركب.

كانت البهجة في الصالون قد بلغت ذروتها. بعدما كان الخجل يسيطر على الحاضرين في بداية العشاء، راحوا الآن يرفعون أصواتهم بالغناء، بل طلب أحد السوّاح الأميركيين يد خطيبته بحيث جثا على ركبتيه أمامها على مرأى من الجميع.

رجع سبستيان ونيكي إلى مائدتهما فوجدا الطبق الرئيس قد قدّم: شريحة لحم عجل باردة في صحن سبستيان بجانب صلصة برنيز متجمّدة. أما صحن نيكي، فلم يكن به غير حبّتي جمبري يتيمتين تتدافعان فوق فطيرة أرز. وبينما كانا يلتهمان بلا شهية لقيمات من ذلك الطعام البارد، دنا منهما عازف كمان وشرع يعزف الأنغام الأولى من «نشيد الحب»، لكن سبستيان صرفه بلا تحفّظ.

قالت نيكي:

- اسكب لي كأساً أخرى من النبيذ.

- كفاك نبيذاً، ستسكرين. ثمّ إن الزجاجة فرغت.

- وما يضيرُك إن رغبت في أن أثمل؟ هذا شأني! هذه طريقتي الخاصة لمواجهة ما يحدث.

قامت نيكي وجالت ببصرها على كلّ الموائد باحثة عن زجاجة حتّى عثرت على واحدة مفتوحة على إحدى موائد الأطباق وأواني الأكل بالقرب من البار. جلبتها إلى مائدتها، وصبّت لنفسها كأساً أخرى تحت نظرات طليقها المشدوهة. أدار سبستيان وجهه نحو النافذة الزجاجية حنقاً. ووصل المركب إلى جسر شارل ديغول الفولاذي، وهو جسر أحدث من الجسور السابقة، أشبه بجناح طائرة

متأهبة للإقلاع. بعد قليل ستنير الضفة أضواء المركب القوية الساطعة، لتكشف عن منظر بئيس وغير متوقّع: مشردون وضعوا أمتعتهم أسفل الجسر، وضربوا خيامهم، وأشعلوا مواقدهم، وهو منظر أزعج السائحين، وكدّر أجواء البهجة المخيّمة على المركب حتّى هذه اللحظة. هذا جانب من مشاكل باريس. كلّ عام ترحّل السفارات عشرات السياح الذين يفقدون رشدهم بسبب هذا التفاوت الصارخ بين صورة باريس المثالية التي تسوّقها الأفلام وبين صورتها الفظة في الواقع. على أنّ هذا الكدر لم يدُم طويلاً. فقد واصل المركب طريقه نحو الأبراج الزجاجية، أبراج «المكتبة الكبيرة»، قبل أن يعود أدراجه عند بلوغ بيرسي حيث التحق بالضفة اليمنى، قاصداً باريس التاريخية، باريس الصور والكتيّبات السياحية. عندئذٍ صارت الموسيقى أكثر جاذبية، فتبدّد الانزعاج تماماً.

جرعة نبيذ أخرى.

شوّش النبيذ عقل نيكي، لكنّه أرهف شعورها. كانت متأكّدة من أنّها أخطأت شيئاً. لم تعُد تحاول حتّى أن تركّز. ليس بالتحليل المنطقي ستعثر على جيريمي، بل بغريزة الأمومة. في مثل هذه المواقف، يكون الذكاء العاطفي أبلغ من المنطق العقلي.

وعوض أن تلجم أحاسيسها، أطلقت لها العنان. تركت الدموع تترقرق والصور تتزاحم في رأسها، واختلط في ذهنها الماضي بالحاضر، لكن كان عليها بالمقابل أن تعثر على الحدّ المناسب. ينبغي ألا تدع الانفعالات تستبد بها. عليها أن تستعملها بطريقة بنّاءة تفيدها في استخلاص الرسالة التي تتضمنها. نظرت عبر النافذة الزجاجية بعيون محمومة. اختلط كلّ شيء في ذهنها لدرجة شعرت

معها بالغثيان. كانت الذكريات تدور في مخيلتها كدوّامة، وتتداخل حدّ الالتباس.

صدحت الموسيقى عالياً، ومن حولها راح الناس يتابعون إيقاعها بحركاتهم. وفي حلبة الرقص، انبرى الموظفون للتنشيط، ومضت النادلات والندّل يرقصون على إيقاع روسي.

Kalinka kalinka kalinka maya...

رشفت جرعة نبيذ أخرى. رغم الدفء السائد في القاعة، كانت نيكي ترتجف. وأصابها الضوء الوامض ولازمة الأغنية بالصداع.

Kalinka kalinka kalinka maya...

عاد المركب إلى نقطة انطلاقه. واستطاعت أن تميّز عبر الزجاج شرفات الجسر الجديد وزخارفه، ثمّ لاحت أطياف جسر الفنون في الأفق. نظرت إلى شباك ممرّ الجسر. أغمضت عينيها ثمّ فتحتهما فرمقت مئات، بل آلاف الأقفال مثبتة على طول الجسر، فهتفت:

- عرفت ما يفتحه هذا المفتاح!

وأومأت لسبستيان مشيرة إلى الشاشة المخفية المثبتة على المائدة. حدّقا في الشاشة الصغيرة التي ظهر عليها نصّ يتحدث عن إحدى طرائف الجسر:

«صار جسر الفنون منذ سنوات، على غرار جسر بيترا بفيرون أو جسر ليخوف بموسكو، مكاناً مفضلاً للعشاق، يؤمّونه ليعلّقوا عليه «قفل حبّ»، دلالة على أن علاقتهما لن تنفصم أبداً.

وما زال التقليد قائماً: فالزوجان يعلّقان قفلهما ويرميان المفتاح في نهر السين، ثمّ يختمان حبّهما بقبلة».

- ينبغي أن ننزل!

سألا أحد الخدم، فأخبرهما أنّ المركب سيقف وقفة قصيرة

عند جسر ألما بعد خمس دقائق. اقتربا من الدرابزين وقد استبدّ بهما الحماس، متأهبين للنزول بمجرّد ما يرسو المركب.

تجاوز المركب واجهة اللوفر ومرفأ الشانزيليزيه قبل أن يقف عند الرصيف بجسر ألما.

وبينما كانا يهمّان بمغادرة المركب، أمسكت نيكي بذراع طليقها.

- انتظر، انظر هناك، إنهم رجال الشرطة!

نظر سبستيان إلى الرصيف. كانت ثمّة امرأة تلبس سترة جلدية وشخص ذو مشية واثقة يستعدان لصعود المركب.

- أتظنّين...؟

- انظر، إنّها الشرطة!

لمحا من بعيد سيارة بوجو 307 رُسم عليها شعار الشرطة.

التقت نظرات سبستيان بنظرات المرأة الشابة، وأدرك الشرطيان أنّ المتّهمين تعرّفا عليهما، فاندفعا يجريان على ممشى السفينة.

عاد سبستيان ونيكي أدراجهما. وقبل أن يصلا إلى طابق السفينة الأعلى، التقط سبستيان سكيناً من إحدى الموائد.

36

عندما التقى نظر كونستونس لاغرانج بنظر سبستيان، أدركت أنه تعرّف عليهما. أشهرت مسدّسها، وصوّبته نحوهما ثمّ هتفت ببوتساري حين بلغا قاعة الاستقبال:

- لا تسارع بإطلاق النار!

حين رأى المسافرون الأسلحة النارية تُشهر، راحوا يصرخون. وانطلق الشرطيان يجريان عبر قاعة المطعم، فقلبا في طريقهما العديد من الموائد. ثمّ بادر بوتساري، تحت حماية كونستونس، إلى الصعود إلى الطابق العلوي، لكنه لم يستطع فتح الباب المعدني، فهتف:

- لقد أوصدا المنفذ.

عادت كونستونس أدراجها. فقد أبصرت منفذاً آخر في مؤخرة السفينة، سلّماً يفضي إلى الطابق العلوي. هكذا ألفت نفسها هناك في أقل من ثلاث ثوانٍ. أبصرت لارابي من بعيد وقد تسلّل إلى غرفة القيادة عبر باب ذي دفتين ومضى يهدّد الربان بسكين في يده لإجباره على أن يعود أدراجه. خطت بضع خطوات لتقترب من قمرة القيادة، لكنّها توقّفت منتظرة وصول بوتساري لكي يحمي ظهرها.

صاحت لمّا لاحظت اشتداد سرعة السفينة:

- توقّف!

فقدت توازنها وكادت تسقط لولا أنّها تشبّثت بكتف مساعدها. كان سبستيان قد صعد فوق قمرة القيادة، ومضى يحثّ طليقته على الالتحاق به.

- تمسّكي بي يا نيكي!

- لا أستطيع!

- لا خيار أمامنا، يا حبيبتي!

ورأته كونستونس يمسك بِيَد طليقته، ويرفعها بقوة فوق القمرة العالية.

كرّرت الشرطية تهديدها، لكن بلا جدوى. كانا في متناول مسدّسها، لكنّها تردّدت في إطلاق النار.

ماذا سيفعلان؟ فجسر «بينا» ما زال بعيداً، والمركب يقترب من ممرّ «ديبيلي»، وهو جسر على شكل قوس، مخصّص للراجلين، يربط بين شارع نيويورك ورصيف برانلي.

مهما يكن، فلن يجازفا بتعلّقه؟

لم يكن الممرّ بالغ العلو، لكنّ تسلّقه محفوف بالمخاطر مع ذلك، بل مستحيل، لا سيما وأن السفينة تُبحر بسرعة عالية. وتذكّرت كونستونس الأفلام التي شاهدتها في صباها حيث يظهر بيلماندو وهو يقوم بحركات خطيرة في باريس، لكن سبستيان لارابي ليس هو بيلماندو. فهو صانع آلات موسيقية بآبر إيست سايد، يلعب الغولف صباح كلّ أحد.

اقترح بوتساري:

- أستطيع أن أسدّد له رصاصة في الساق.

- لا داعي لذلك. لن يستطيعا التشبُّث بالجسر. فهو بالغ

العلو، والسفينة تسير بسرعة. كل ما سيقومان به هو أنهما سيسقطان في الماء. نادِ على شرطة النهر برصيف سان برنار. اطلُبْ منهم موافاتنا بتعزيزات حتّى التقاطهما من الماء!

كان المركب يقترب من جنبات الجسر المضاءة. وهو جسر مصنوع بكامله من الحديد باستثناء الأعمدة الخرسانية المركوزة قرب الضفتين، والأرضية الخشبية. وهو يعدّ، على غرار برج إيفل، من بين النماذج المعدنية التي شيّدت في فجر القرن العشرين. ورغم أنّه بني أول الأمر ليكون جسراً مؤقّتاً، إلا أنه نجح في الصمود طيلة القرن.

اندفع سبستيان بشكل غريزي وقفز للإمساك بهيكل الجسر، ثمّ تبعته نيكي بعد أن نزعت حذاءها ذا الكعب الطويل، وتشبّثت بخصره. وبقفزة واحدة، صعدت كونستونس فوق قمرة القيادة، لكن الأوان كان قد فات. كان المركب قد تجاوز الجسر متوجّهاً نحو حدائق تروكاديرو. راحت تلعن وهي تبصر في البعيد طيفَي الهاربين وهما يعتليان الجسر المعلّق.

37

مضى سبستيان ونيكي يعدُوان يداً في يد بالطريق السريع على الضفة اليسرى. تسلّلا بين السيارات، وشقّا طريقهما في الممرّ الخاص المحاذي لمتحف الفنون البدائية ليصلا إلى شارع الجامعة.

أمرها سبستيان:

- تخلّصي من هاتفك النقال، ومن كلّ ما من شأنه أن يدلّ على مكان وجودنا.

تخلّصت من هاتفها وهي تجري. كانت تعرج، ذلك أنّ فستانها تمزّق خلال هروبهما الخطير من فوق المركب، فاصطدمت قدمها اليمنى بالحاجز الحديد.

ما العمل؟ وأين الملجأ؟

التقطا أنفاسهما تحت شرفة بشارع الراب. لقد صارا هاربين يطاردهما البوليس. اتفقت لهما مجموعة من الصدف ليفلتا من اعتقال محتوم، لكن حتّى متى سينجحان في البقاء طليقين؟

كان عليهما حينئذٍ أن يصلا إلى جسر الفنون ليبحثا عن ذلك القفل الملغز. كما كان عليهما ألا يبتعدا عن نهر السين، وأن يظلا حذرين.

تجنّبا المترو والشوارع الكبرى بالمقاطعة السابعة، وتاها في

الأزقة الفرعية. كانا يعودان أدراجهما كلّما أبصرا شخصاً بزي رسمي، ويغيّران الرصيف كلّما شاهدا حشداً مثيراً للارتياب، حتى إنّهما قضيا ما يناهز الساعة لكي يصلا إلى مقصدهما.

كان يخيّم على جسر الفنون عبق صيفي رغم أنّ الفصل كان خريفاً. كان هذا الجسر الحديد المخصَّص للراجلين فقط يشرف على منظر فريد: بإمكان المرء أن يرى منه بنظرة واحدة أقواس الجسر الجديد وحديقة فير-غالان وأبراج نوتردام البيضاء.

تقدّمت نيكي وسبستيان على الجسر بحذر. كان الجو لا يزال دافئاً، أدفأ ممّا يكون عادة في منتصف أكتوبر. وكان ثمّة كثير من الشباب بألبسة خفيفة يجتمعون في حلقات صغيرة، خرجوا للنزهة واقتعدوا الأرض، يتبادلون أطراف الحديث أو يغنّون على أنغام غيثارة. خليط من الثقافات والأجناس، ومزيج من الوجبات «الشعبية»: رقائق بطاطس، ساندويشات، دجاج مشوي، قضبان شوكولاتة.

إنّه مشهد لا يمكن تصوّره في الولايات المتحدة الأميركية[1]: استهلاك الكحول علناً وبكميات كبيرة. كان ثمّة شباب، من بينهم قاصرون، يشربون علب البيرة وكؤوس النبيذ بسرعة مذهلة، لكن الأجواء كانت رغم ذلك رائقة.

تكسو الأقفال جانبي الجسر. كم عددها؟ ألفان؟! ثلاثة آلاف؟!

علّقت نيكي بنبرة آسفة وهي تخرج المفتاح من حقيبتها:

---

(1) يُمنع بيع الكحول للقاصرين كما يمنع استهلاكه في الأماكن العامة (المؤلف).

- لن نتمكّن أبداً من. . .

جثا سبستيان على ركبتيه عند درابزين الجسر، ولاحظ أنّ معظم الأقفال تحمل علامة مكتوبة بقلم لبدي لا يُمحى، أو منقوشة على المعدن. وكانت هذه العلامة في الأغلب عبارة عن حرفين أوّلين من اسمين أو اسمين كاملين متبوعين بتاريخ، من قبيل:

ط + ل - 14 أكتوبر 2011

أو

إليوت وإلينا - 21 أكتوبر

ابتسم سبستيان في قرارة نفسه. تستحقّ وعود الحب هذه الاحترام في حدّ ذاتها. ذلك أنّ إقفال قلوب العشاق بهذا النحو يجعلها تبدو كما لو أنّها ختمت إلى الأبد، لكن كم، من بين آلاف الوعود هذه، استطاع الصمود في وجه الزمن؟

جثت نيكي بدورها لكي تتفحّص أقفال الحب. كانت بمختلف الأحجام، بعضها ملوّن، وأخرى على شكل قلوب، مزيّنة بكتابات غير متوقّعة: عبارة «أحبك» مكتوبة باللغة الفرنسية والإيطالية والإسبانية.

ويستعمل آخرون صيغاً غير دارجة من قبيل:

ب + ف + أ

أو

جون + كيم + ديان + كريستين

أو عبارات مفعمة بالحنين:

يمضي الزمن وتبقى الذكريات. . .

أو عبارات حاقدة مثل:

سولانج سكورديلو أكبر عاهرة.

استدرك سبستيان قائلاً:

- لا ينبغي أن نضيّع الوقت!

وزّعا المهامّ بينهما. انطلق سبستيان يبحث عن الأقفال التي كتب عليها ABUS ويعيّنها لنيكي التي تجرّب فتحها بالمفتاح. لاحظت أنّ كل التواريخ حديثة ممّا يعني أنّ البلدية أو المحافظة تعمَدُ إلى إزالة الأقفال على فترات منتظمة.

غير أن صنيعهما كان مثيراً للريبة، إذ جذب إليهما الأنظار، هذا دون الحديث عمّا تبعثه العملية من ملل. كانت كلّ الأقفال من صنع ABUS تقريباً. يبدو أن تلك الشركة الألمانية التي لم يسمعا بها من قبل تستولي على سوق الأقفال: نصف عدد الأقفال يحمل علامة هذه الشركة!

قال سبستيان بنبرة متذمّرة بينما وصل شرطيان يلبسان الزيّ الرسمي إلى الجسر:

- حتى لو أمضينا الليل كلّه ها هنا، فلن نفرغ منها.

- حذار!

تراجعا معاً إلى الخلف، لكن الشرطيين لم يحضرا، فيما يظهر، إلّا لتذكير الشباب الموجودين هناك بالمرسوم الصادر عن المحافظة الذي يمنع استهلاك الكحول على الجسر. تظاهر الشباب بحسن النية، وأخفوا الزجاجات في حقائبهم عند مرور الشرطيين، ثم أخرجوها بمجرد ما أدارا لهم ظهريهما.

لم يكن الشرطيان مغفّلين، بل تظاهرا بذلك. فهما لا يملكان الإمكانات اللازمة، وقد لا يكونان تلقّيا تعليمات بفرض القانون. لفت انتباههما ثمل كان يهدّد برمي نفسه من أعلى الجسر. تحدّثا إليه محاولين إعادته إلى رشده، لكنّه راح يشتمهما بعدوانية. عندئذٍ قرّر أحدهما طلب تعزيزات عبر الراديو.

قال سبستيان بقلق:

- سيحتشد الجسر بالبوليس في غضون دقيقتين. ينبغي أن ننصرف.

- لن نغادر قبل أن نعثر عليه!

- يا لك من عنيدة! عندما يقبضون علينا ويرموننا في السجن، حينئذٍ ستتقدّمين في البحث!

- انتظر، عندي فكرة! عيّن الأقفال التي تحمل علامات مميزة: صباغة أو شريط من الثوب...

- لماذا؟

- أنا متأكدة من أنهم تركوا لنا إشارة.

انهمكا في البحث معاً. كانت بعض الأقفال تحمل شعارات رياضية مثل «تحيا برشلونة! يحيا ميسي!»، وبعضها يحمل شعارات سياسية من قبيل «نعم، نستطيع» ، وبعضها الآخر يشير إلى ميولات جنسية مثل «كل الودّ للمثليين».

- انظر!

كان ثمّة في طرف الجسر، على علوّ معتدل، قفل كبير الحجم، يحمل لاصقين يمثل أحدهما كماناً، والثاني شعار «أحب نيويورك» الشهير، الذي كان يزين الكثير من القمصان.

كانت الإشارات في منتهى الوضوح.

أدارت نيكي المفتاح، فانفتح القفل. حاولت أن تتفحّصه في ضوء مصابيح الشارع، لكن رجال الشرطة كانوا قد حلّوا بالمكان.

سحب سبستيان نيكي من ذراعها:

- لنغادر بسرعة!

38

وشوم الماوري المثيرة

قضى لورونزو جزءاً كبيراً من فترة ما بعد الظهر بمكتبه مستغرقاً في قراءة أحد الكتب. كان قد عثر فيه على جملة أمور هامة، لكنّها لم تكن تتضمن شيئاً قد يفيده في تقدُّم التحقيق.

دعَكَ عينيه وقد سيطر عليه الإحباط، ثمّ خرج إلى الممرّ ليجلب زجاجة صودا من الموزّع الأوتوماتيكي.

OUT OF ORDER[1]

لم يكن ينقص غير هذا...

أهوى بقبضته من الغضب على الآلة التي بدت كما لو أنها تعاكسه.

أما زال ثمة شيء يعمل على نحو صحيح في هذا البلد؟

خرج إلى الفناء الخلفي ليهدئ نفسه برمي بضع كرات في الشبكة. كان الليل يخيّم على بروكلين رويداً رويداً. نظر من خلال الشبّاك الحديد إلى الشمس المائلة نحو الغروب في سماء متورّدة.

---

(1) معطل.

أمسك بالكرة وحاول أن يقذفها من بعيد إلى السلة. لامست الكرة الحلقة المعدنية وتأرجحت قليلاً قبل أن تسقط خارجها.

الحظ ليس حليفه بالطبع...

تحقيقه متعثّر أيضاً. لا يتقدّم قيد أنملة رغم مساعدة الشرطة العلمية، مع أنّه تلقى قبل الزوال تقريراً مفصّلاً حرّره متخصّص في بقع الدم. وقد أوّل هذا المتخصّص مسرح الجريمة بطريقة مناسبة، بحيث أعاد بناء مجريات المواجهة بدقّة متناهيّة: قُتل دريك ديكر أوّلاً، بقره «الماوري» الذي عُثر على بصماته بقبضة السكين المستعمل في الجريمة. ثمّ قُتل الماوري بعد ذلك؛ قتله سبستيان لارابي بواسطة قطعة زجاج. أما بصمات نيكي، فوُجدت في أماكن متعدّدة، بما فيها عصا البلياردو التي فقأت عين القتيل قبل هلاكه.

غير أن تسلسل الأحداث هذا لا يقول شيئاً عن دوافع الفاعلين وعن هوية «الرجل الثالث». ذلك أن هذا الشخص لا أثر له في قاعدة بيانات الشرطة. أخذ اقتناع سانتوس بمرور الوقت يترسّخ بأنّ هذا الرجل لم يكن بولينيزياً رغم الوشوم على جسده. فقد استعان الشرطي بكيرين وايت، عالمة الأنثروبولوجيا بشرطة نيويورك التي تعمل بالدائرة الثالثة، لكنّها لم تتّصل به بعد. وبما أنّه يعقد آمالاً كبيرة على فكّ طلاسم هذه الوشوم، قام ببحوث شخصية في الموضوع، إلا أنها لم تسفر عن شيء.

قذف سانتوس الكرة إلى السلة قذفات متتالية، مستعيداً شيئاً فشيئاً ثقته بنفسه، ومتخفّفاً من التوتّر الذي سّببه له التحقيق في هذه القضية. حدث له مراراً خلال مسيرته المهنية أن راوده حدس بخصوص قضية من القضايا وهو منغمس في ممارسة رياضة العَدو أو

لعب كرة السلة. عندما يكون المرء مستغرقاً بعد جهد عضلي كبير تتوضّح في ذهنه كثير من العناصر، وتتناسق بجلاء وقائع كانت ملتبسة. فما المانع من أن يحصل ذلك هذه المرّة؟

حاول إذن النظر إلى الوقائع من زاوية جديدة. ماذا لو كانت هوية الماوري هي مفتاح اللغز عوض شخصية دريك ديكر؟

ماذا يعرف فعلياً عن مالك بوميرانغ؟ كان دريك شخصاً فاسداً، ينحدر من أسرة لها باع طويل في الإجرام منذ جيلين على الأقل: فأبوه سيريوس يقضي عقوبة بالمؤبد بسجن ريكرز أيسلاند، بينما شقيقه الأصغر مانفيس هارب من العدالة منذ خمس سنوات بسبب قضية مخدرات. وقد كان ديكر بدوره يتاجر في المخدرات، كما أن حانته كانت وكراً سرياً للقمار، لكن شرطة الحي كانت تتغاضى عن نشاطاته، لأنه يمدّها بالأخبار.

لكن ما صلة أسرة لارابي بهذا المجرم؟

لعلّه جيريمي...

يعرف سانتوس هذا الولد، ولم يكن يستلطفه البتة. كانت مشاعر البغضاء مستحكمة بينهما.

قذف الكرة للمرّة الأخيرة وعاد إلى مكتبه مصمّماً على أن يقوم ببحث يقابل فيه بين المعطيات. أدخل إلى حاسوبه اسمَي الرجلين وشغّل البرنامج، وما هي إلا ثوانٍ حتّى ظهرت النتيجة على الشاشة.

كان ثمّة حدث تكرّر على نحو لافت!

وقع ذلك قبل أقلّ من شهر، يوم السبت من أوّل أسبوع من أكتوبر. فقد سيْقَ ديكر ذلك المساء إلى مركز الشرطة إثر شكاية تقدّم بها أحد زبنائه من أنه ضُرِب وهُدِّد بسلاح ناري. لكنّهم أطلقوا

سراحه فوراً، ولم يتابع. بينما سيق جيريمي في اليوم نفسه إلى مفوضية الشرطة بتهمة سرقة لعبة فيديو من أحد المتاجر.

بالمقابلة بين تقريري الحادثتين، تبيّن أنّ دريك وجيريمي التقيا في الزنزانة نفسها لمدّة أربع عشرة دقيقة. تساءل سانتوس:

أكانت تلك هي المرّة الأولى التي يلتقيان فيها؟

اقتنع سانتوس بأنّ عقدة اللغز تكمن في الأربع عشرة دقيقة هذه. لقد وقع أمرٌ ما ذلك المساء بين ديكر وجيريمي. أدار بينهما حديث؟ أأبرما اتفاقاً؟ أم جرت بينهما مواجهة؟

إنه أمر بالغ الأهمية بحيث سيحرّك عجلة الأحداث لتسفر بعد ثلاثة أسابيع عن اكتشاف جثتين غارقتين في الدماء.

39

جلست نيكي على رصيف شارع مورني وقالت بنبرة شاكية:

- لا أستطيع مواصلة السير!

جثا سبستيان بجانبها، فأضافت بنبرة آسفة وهي تدعك كعبها:

- أظنّ أنني أصبت بوثي الكاحل.

فحص مفصل رجلها، فلاحظ أنه متورّم. بدأت تظهر عليه آثار كدمة خفيفة. لقد استحملت نيكي الألم لساعتين، لكنه أخذ يحتدّ بحيث صارت لا تقوى على المشي.

- تشجّعي، لقد أوشكنا على الخلاص. ينبغي أن نعثر على ملجأ نقضي فيه الليلة.

- هل تعرف على الأقل إلى أين نذهب؟

أزعجه السؤال فاستفسرها عمّا إذا كانت تملك خطّة.

- كلا.

- عليك إذن أن تضعي فيّ ثقتك.

مدّ لها يده لكي يساعدها على النهوض، ثمّ ناولها ذراعه لتعتمد عليه وتقدّما وهما يعرّجان إلى أن بلغا شارع بوردون.

تساءلت:

- أما زلنا على ضفة السين؟

- تقريباً.

عبرا الشارع ليجدا نفسيهما في ممرّ مرصّف بالحجر الأبيض. أطلّت نيكي فلمحت ممشى يزيد طوله على خمسمائة متر، يمتدّ بمحاذاة النهر.

- أين نحن على وجه التحديد؟

- بمرفأ لارسونال، بين قناة سان مارتان ونهر السين.

- كيف عرفت؟ أهو وحي نزل عليك بغتة؟

- قرأت مقالة في مجلّة سياحية عثرت عليها في الطائرة. وقد حفظت اسمه لأنه شبيه باسم فرقة رياضية إنجليزية تناصرها كامي.

قالت معاكسة:

- ألديك مركب يرسو هنا؟

- كلا، لكن يمكن أن نعثر على مركب هنا، إلا إذا كانت قدمك تؤلمك فلا تستطيعين تسلّق هذا الحاجز...

حدجته بنظرة ولم تستطِع إخفاء معالم ابتسامة رغم جدّية الموقف. لمّا كانا يلفيان نفسيهما في حالة نفسية كهذه، كانت تشعر برغبة جامحة في التحدّي.

كان الشباك الحديد بارتفاع متر ونصف تقريباً، وكانت ثمّة لافتة خشبية كبيرة تذكّر المارّة بأنّ دخول المرفأ ممنوع على العموم من الحادية عشرة ليلاً إلى السادسة صباحاً، وأن ثمّة حارساً وكلبه يجوبان المكان طوال الليل.

قالت مازحة وهي تتشبّث بالبوابة الحديد:

- أيّ نوع من الكلاب يا ترى؟ كانيش أم بيتبول؟

تخطّت البوابة بصعوبة، وسار هو في إثرها على الرصيف. كان المرفأ بالغ الهدوء، يتّسع لأكثر من مائة مركب. وقد كانت المراكب

الراسية به من مختلف الأحجام، تمتدّ من المنازل العائمة الفاخرة إلى أصغر القوارب وأردئها. تذكَّرت نيكي حين أبصرت ترتيب السفن ذاك قنوات أمستردام التي رأتها أيام كانت عارضة أزياء.

جابا الرصيف وهما يتفحّصان المراكب بعناية. قال سبستيان بنفاد صبر:

- تذكّري أننا لسنا هنا لشراء أحدها. كل ما نريده هو أن ننام لبضع ساعات.

- يبدو هذا المركب لا بأس به، أليس كذلك؟

- إنه مركب فاره، لا بدّ أنّه مجهز بجهاز إنذار.

- فلنختبر هذا إذن.

أشارت إلى مركب هولندي صغير، بطول اثني عشر متراً تقريباً، ذي هيكل ضيّق وجؤجؤ مقوّس.

أنعم سبستيان النظر، فبدت له المراكب خالية، وتراءت له لافتة معلَّقة على زجاج أحدها كتب عليها «للبيع». كان مركباً مناسباً تماماً.

قفز فوق ظهره، وصوّب لباب غرفة القيادة الخشبية ركلة عنيفة شُدِهت لها نيكي.

علّقت وهي تلحق به:

- يخيّل لمن يراك أنك متعوّد على هذا. لا أكاد أصدّق أنّك كنت قبل يومين فقط لا تزال تصقل آلات الكمان في مصنعك. . .

- لقد تغيّر الوضع، أليس كذلك؟ الشرطة تبحث عنّي في قارّتين بتهمة القتل، هذا علاوة على جرائم الفرار والمخدرات والاعتداء على ربّان مركب. . .

قالت ساخرة وهي تعتلي ظهر المركب:

- صحيح. لقد صرنا مثل بوني وكلايد[1]!

كانت حجرة القيادة تفضي إلى صالون يضمّ أريكتين. وقد كان المركب في الأصل مركب شحن قديم جرى تحويله إلى مركب نزهة. كان ديكوره الداخلي بسيطاً، لكنّه حفيّ، لا سيما إذا كان المرء ميّالاً إلى «الطراز القديم»: ألوية القراصنة، نموذج سفينة مصغر داخل الزجاج، مصابيح الزيت، الحبال...

ثمّ انتقلا من الصالون إلى قمرة النوم الموجودة في الخلفية. وارتمت نيكي على السرير بعدما تأكّدت من نظافة الفراش. كان ظاهراً أن إصابة رجلها تؤلمها كثيراً.

وضع سبستيان وسادتين تحت رجلها حتى يساعدها على المحافظة على كاحلها مرفوعاً.

- سأعود حالاً.

اكتشف في مقدّمة السفينة مطبخاً صغيراً مجهّزاً. كان برّاده من حسن الحظ مشغّلاً. أفرغ صواني مكعبات الثلج في كيس بلاستيكي، وعاد بها إلى نيكي.

صرخت بينما كان يضع الثلج على الإصابة المؤلمة:

- إنه بالغ البرودة!

- كفاك دلالاً! هذا سيزيل التورّم.

خفّف الثلج الألم على الفور، فاغتنمت نيكي الفرصة لتُخرج القفل من حقيبتها.

---

(1) بوني وكلايد مجرمان اشتهرا خلال الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929 بجنوب غرب الولايات المتحدة. نفّذا العديد من عمليات السطو المسلح وقتلا عدداً من الأشخاص (المترجم).

- لنتفحص هذا القفل بمزيد من الانتباه.

لم يكن يميز غلافه الفولاذي شيء باستثناء اللاصقات ومتواليَتين من الأرقام منقوشة إحداها فوق الأخرى.

48 54 06

2 20 12

قال سبستيان بتذمّر:

- ما عدتُ أطيق هذه الألغاز!

ردّت نيكي مازحة لتخفّف من وطأة الموقف:

- لعلّ دان براون[1] هو من اختطف جيريمي!

هذا هو شأن نيكي؛ تلجأ إلى الفكاهة بعفوية لتواجه المواقف الصعبة. كان ذلك طبعاً متأصلاً فيها، لكن سبستيان لم يكن رائق المزاج. نظر إليها شزراً قبل أن يقترح:

- لماذا لا تكون هذه الأرقام أرقام هاتف؟

- أرقام هاتف تبدأ برقمَي 48؟! لا أظن. مهما يكن، فهي لا تتناسب مع ترقيم الولايات المتحدة ولا حتّى مع ترقيم فرنسا.

- لا أدري ما إذا كنت تعلمين بوجود دول أخرى في العالم!

خرج إلى الصالون، وبحث في ركام من الأشياء المكدَّسة هناك، فعثر على دليل هاتف يعلوه الغبار، وعاد به إلى قمرة النوم. تفحّص الدليل ثمّ قال:

- يحيل الرقم 48 على دولة بولونيا.

---

(1) كاتب روايات بوليسية أميركي، ولد سنة 1964. عرفت رواياته نجاحاً كبيراً (المترجم).

استبدّ بنيكي شعور غريب، هو مزيج من الإثارة والقلق. ذلك أن بولونيا هي بلادها الأصلية...

- ينبغي أن نركّب الرقم، ونحاول الاتصال!

لكن كيف السبيل لذلك. فهاتف سبستيان سُرق، ونيكي تخلّصت من هاتفها حتى لا يتعرفوا على المكان الذي يوجدان به.

قالت وهي تلوّح ببطاقة صغيرة:

- ما زلت أحتفظ ببطاقة ائتماني.

كانت عيناها تلتمعان من التعب. وضع سبستيان يده على جبينها فوجده يلتهب من الحمّى.

- نرجئ الأمر إلى الصباح. ولنحاول الاتّصال من مخدع عمومي. أما الآن، فعليك أن تستريحي.

قام بجولة في الحمام، تناول علبة إيبوبروفان، ومدّ لها حبّة بينما كانت تحاول النوم وهي تغمغم. إثر ذلك شغّل المدفأة الصغيرة الموضوعة أسفل السرير، وأطفأ النور ثم غادر الغرفة.

كان البراد فارغاً إلّا من بضعة كؤوس ياغورت انتهت صلاحية استهلاكها، ودزينة من زجاجات الجعة. فتح زجاجة وخرج إلى ظهر المركب ليشربها.

كان المرفأ ساكناً. رغم أنّه لا يبعد عن ميدان الباستيل إلا ببضع مئات من الأمتار، فإنه كان بمنأى عن ضوضائه. جلس أرضاً وأسند ظهره إلى هيكل المركب وبسط قدميه، ثمّ رشف جرعة وأعاد القفل إلى حقيبة نيكي. عثر في الحقيبة على علبة سجائر، فأشعل سيجارة واغتنم الفرصة ليفتّش محفظة طليقته. وجد فيها، كما توقّع،

صورة حديثة لطفليهما، فأخرجها. كامي وجيريمي توأمان غير متشابهين. لا شبه بينهما في المزاج رغم أنهما ولدا في اليوم نفسه. بقدر ما كان شبه كامي يميل إلى عائلة لارابي، كان جيريمي أقرب إلى عائلة نيكوفسكي؛ وهو أمر لافت للنظر. لم تكن كامي تشبه أمّها. كانت جميلة، لكن بوجهٍ أكثر استدارة، وأنف أفطس وقسمات ناعمة. أما جيريمي فورث عن نيكي، ذات الأصل البولوني، جمالها البارد الذي لا يخلو من غموض، ونحافتها وشعرها المجعّد، واستواء أنفها، وصفاء عينيها. وهو شبه كان يزداد بروزاً مع تقدّمه في السن، ممّا كان يزعج سبستيان.

سحب نفساً عميقاً من سيجارته وهو يفكّر فيما قالته له نيكي قبل ساعتين. هل آثر حقّاً حبّه لنفسه على حبّ ذرّيته؟ لم يكن الأمر كذلك، لكنّه لم يكن يخلو مع ذلك من الصحة.

لقد أعمَتْه الجراحات طيلة هذه السنوات فسعى من دون وعي إلى الانتقام من نيكي. دفعته الضغينة إلى السعي لمعاقبتها، وجعلها تدفع ثمن فشل علاقتهما الزوجية، وانفصالهما. غير أنّ الطفلين هما من دفع الثمن. لقد كانت رغبته في الفصل التام بين التوأمين في التربية أمراً عبثياً وغير مسؤول. من المؤكّد أنه كان واعياً بذلك، لكنّه كان ينجح دائماً في العثور على مبرّرات تسوّغ تصرّفه.

تفرّس صورة ابنه في ضوء القمر. كانت العلاقة بينهما مهتزّة، تكدّرها كثير من الخلافات. كان يحبّه بالطبع، لكنه حبّ مجرّد، يفتقر إلى الحرارة والألفة.

كان هو المخطئ. لم ينظر إلى ابنه قط نظرة حنان وعطف. لم يكن يكفّ عن مقارنته بكامي باعتبارها تتفوّق عليه في كلّ شيء. وسرعان ما صار يشكّك في قدراته، ويعتبره شخصاً لا يعوّل عليه.

كان يتخيّل، وهو أمرٌ لا معنى له، أنّ جيريمي لا يمكن إلّا أن يخيّب ظنه، مثلما خيبت نيكي ظنّه من قبل.

لمّا صارا يلتقيان في الآونة الأخيرة، لم يعد يجمع بينهما شيء. صحيح أن سبستيان كان يجبره أحياناً على مرافقته إلى معرض تشكيلي أو حفل موسيقي، لكن ذلك لم يكن إلا لإبداء أسفه على عدم اهتمامه بهذه الأمور. وهو حكمٌ لم يخلُ من جور، بما أنّ سبستيان لم يعمل قط على تنمية اهتمامه بالفن التشكيلي والموسيقى الكلاسيكية.

كانت دهشته كبيرة لما اكتشف خلال تفتيش غرفة جيريمي رفوف الكتب المتعلّقة بالفن السابع. لم يحدّثه جيريمي قط عن رغبته في ولوج مدرسة للسينما ولا عن حلمه بأن يصير مخرجاً، ربّما خوفاً من سخريته. لا مناص من الاعتراف بأنه لمّ يربّه على الثقة في النفس...

أنهى سبستيان شرب زجاجة البيرة وهو يتأمل من بعيد نصب الباستيل المتوّهج في الظلام.

ألم يفت الأوان على استدراك أخطائه؟ على فتح الحوار مع ابنه؟ ربّما، لكن عليه أوّلاً أن يعثر عليه.

أشعل سيجارة ثانية بعقب السيجارة الأولى، وصمّم على ألّا ينتظر صباح الغد لكي يختبر الرقم الهاتفي البولوني. فبعد أن تأكّد من أنّ نيكي نائمة، وضع القفل في جيبه ثمّ غادر المركب.

40

تساءل وهو يجوب الشارع المشرف على المرفأ: أما يزال في باريس مخدع هاتفي؟

توهّم أوّل الأمر أنّه محظوظ حين لمح باباً من الألمنيوم والزجاج شبيهاً بأبواب مخادع عاصمة الأنوار الهاتفية، لكن فرحته لم تدُم طويلاً. ذلك أنّ المخدع كان مخرّباً، وسماعته منزوعة.

بلغ ميدان الباستيل، لكنّه لم يمكث فيه طويلاً. ذلك أنه رأى حافلتي شرطة ترابطان أمام الأوبرا.

عثر على مخدع آخر عند مدخل شارع فوبورغ سان أنطوان، إلا أنه كان معطلاً أيضاً، يسكنه أحد المتشردين.

واصل بحثه في الشارع المفضي إلى محطة المترو، فعثر أخيراً على مخدع صالح، محاذٍ لمحطة لودري لوران. أدخل فيه بطاقة ائتمان نيكي وألف الرقم المنقوش على القفل:

48 54 06 2 20 12

«مرحباً، أورانج تخبركم بأن الرقم الذي تطلبونه غير موجود».

فكّر لبضع ثوانٍ وقرأ التوجيهات المعلّقة بالمخدع. لاحظ أن

الاتصال بالخارج يستلزم الشروع بتركيب رقم الصفر مرتين ثم رقم الدولة. حاول ثانية وركب:

00 48 54 06 2 20 12

«مرحباً، أورانج تخبركم بأن الرقم الذي تطلبونه غير موجود».

الجزء الأول من الرقم لا يحيل على دولة بولونيا إذن، ومن ثمة قد لا يكون الرقم المنقوش على القفل رقماً هاتفياً. لعله يحيل على شيء آخر.

ولكن ما هو؟

بينما كان يسحب البطاقة من الجهاز، حدته رغبة في الاتصال بكامي. كانت الساعة تشير في باريس إلى الواحدة صباحاً، أيّ السابعة مساء على الضفة الشرقية من الولايات المتّحدة.

تردّد. لا بدّ أن الشرطة أصدرت مذكرة بحث عنه بعد اكتشاف جثتي دريك والماوري، وبذلك فمن المحتمل أن يكون هاتف ابنته مراقباً، لكنّ هاتف أمه قد لا يكون تحت المراقبة. تنهّد. مهما يكن، فالشرطة تعلم بوجوده في فرنسا.

هل يستطيعون تحديد موقع المخدع؟ ربّما، بل لعلّه أمر مؤكد، لا سيما وأنّه يستعمل بطاقة ائتمان، لكن ذلك سيستغرق وقتاً. لن يعلموا بوجوده في هذا المكان إلا بعد أن يكون هو ونيكي قد غادرا مرفأ لارسونال.

صمّم إذن على الاتصال. ركّب رقم أمّه في هامبتون. أجابت عند الرنّة الثانية.

- أين أنت يا سبستيان؟ جاء البوليس لاستجوابي هذه الظهيرة و...

- لا تقلقي يا أماه.

- من الطبيعي أن أقلق. لماذا يزعمون أنّك قتلت شخصين؟

- من الصعب أن أشرح لك، فهو أمر بالغ التعقيد...

- فعلت ذلك بسبب نيكي، أليس كذلك؟ أنت تعلم أن هذه المرأة لم ترقني قط! في أيّ مصيبة ورطتك هذه المرّة؟

- لنترك الحديث عن هذا إلى فرصة أخرى، هل يمكن...

- وكامي؟ أين هي؟ البوليس يبحث عنها هي أيضاً.

شعر سبستيان بفزع داهم، ووجد صعوبة في فتح فمه ليسأل:

- أليست كامي عندك؟ لقد استقلّت القطار بعد ظهر أمس لتلحق بك!

وقبل أن تردّ أمه، كان قد خمّن جوابها:

- كلا يا سبستيان، كامي غير موجودة معي. لم تزُرني البتّة.

الجزء الثالث

ألغاز باريس

«هو يعلم الآن أن الزمن لا يداوي. ما الزمن إلا نافذة قد يرى منها المرء أخطاءه؛ لأن الأخطاء هي الشيء الوحيد الذي يتذكره الإنسان بجلاء».

ر.ج. إليروري، **فانديتا**.

41

السابعة صباحاً

انخفضت درجة الحرارة. فتحت الحانة الصغيرة الواقعة عند ملتقى شارع الليلك وشارع «موزايا» أبوابها. كانت مقاعدها لا تزال موضوعة على الموائد، وآلة القهوة لم تشرع بعد في نشر حرارتها. كبَتَ صاحب الحانة، طوني، تثاؤبه وهو يحمل الفطور لزبونته الأولى.

- ها هو فطورك يا سيدتي.

كانت كونستونس جالسة على الأريكة أمام حاسوبها، فأومأت له برأسها شاكرة، ووضعت أصابعها على طرف الفنجان لتستدفئ.

حزّ في نفسها إخفاقها في إلقاء القبض على لارابي وطليقته، فأمضت الليلة عاكفة على ملفّهما، وهي تسمع أزيز ذبذبات راديو الشرطة الذي لا يتوقف. قضت ساعات طوالاً في تقليب ما توفّر لها من وثائق بحثاً عن قرائن تساعدها في تعقّب الأميركيين، لكنها لم تخرج بطائل. ولم يكن زملاؤها أحسن حظّاً منها: لم يستطع أيّ منهم معرفة مكان الهاربين رغم إذاعة الإخبارية وتعميمها.

وقد اتّصل بها رئيسها سوربيي عند الفجر مؤنّباً. تقبّلت تأنيبه من دون أن تنتفض. لم يكن مرضها ليغفر لها هذا الخطأ الجسيم. هي

مَن كان أداؤها المهني مضرب المثل، تقع في مثل هذه الزلّة بسبب إفراطها في الثقة بنفسها، واستهانتها بالخصم كما لو كانت شرطية مبتدئة ساذجة. إنها بداية غير موفّقة في مسيرتها كنقيب. من المؤكّد أنّ الحظّ حالف لارابي وطليقته، لكنّهما، مع ذلك، برهنا عن ذكاء ورباطة جأش لا يُستهان بهما، وهو ما فشلت هي في برهنته.

كانت كونستونس المرأة الوحيدة في مجموعة التحقيق الصغيرة التابعة لفرقة البحث عن الفارين الوطنية. فرقة تشبه إلى حدّ كبير الماريشالات الأميركية: وحدات تدخل سريع متخصّصة في تعقّب المجرمين الفارين. وهي الفرقة الوحيدة في أوروبا.

كانت كونستونس، وهي تنتمي في الأصل إلى الشرطة القضائية، ضابطة محنّكة. كافحت لسنوات من أجل الالتحاق بهذا القسم. كان عملها هو كلّ حياتها. وقد حقّقت نجاحات باهرة، بحيث ساهمت في توقيف عدد من أشهر الهاربين، كان مبحوثاً عنهم من أجل أحكام ثقيلة أو لفرارهم من السجن. معظمهم من فرنسيين، لكن منهم أجانب أيضاً، مطلوبون للعدالة بمذكرات توقيف دولية. رشفت من قهوتها، وقضمت من الهلالية، وانهمكت في العمل. لقد خسرت الجولة الأولى، لكنها مصمّمة على الانتصار في الثانية.

جمعت معلومات إضافية من حاسوبها الموصول بالإنترنت عبر «ويفي» طوني. كان اسم سبستيان لارابي كثير التردّد على الشبكة. فهو نجم في مجال عمله. ضغطت على رابط أحالها على بورتريه رسمته له بوابة نيويورك تايمز قبل سنتين. كان عنوان المقالة: «الرجل ذو اليدين الذهبيتين». كان يتمتّع بأذن خارقة، ومهارة لا تضاهى حسب الجريدة. يصنع آلات كمان فريدة تنافس آلات ستراديفاريوس. وقد كانت آراؤه مثيرة، حافلة بتفاصيل عن تاريخ

صناعة الآلات الموسيقية والعلاقة العاطفية التي تربط بعض العازفين بآلاتهم. كما يتضمّن المقال صوراً كثيرة يظهر فيها لارابي في مصنعه، وهو في بالغ أناقته. كان من الصعب على من يشاهد الصور أن يتخيّله وهو يذبح تاجر مخدرات في حانة حقيرة ببروكلين...

كبتت كونستونس تثاؤباً وتمطّت. لقد نجحت حتّى ذلك الوقت في أن تبعد عن نفسها التعب والشلل. كانت تشعر بأنّ انهماكها في التحقيق ينسيها المرض، لكن كان عليها أن تصمد وتتقدّم في البحث.

أغمضت عينيها حتى تركّز أكثر. أين قضى لارابي وطليقته الليلة يا ترى؟ فالبوليس يتعقّبهما، وبذلك لم يعُد بإمكانهما الاستمتاع برفاهية الفنادق وترف المطاعم الفاخرة. سيسقطون في يد الشرطة عاجلاً أم آجلاً. سيحتاجان إلى المال والمساعدة والاتصال بالأهل والمعارف. الفرار جحيم، لا سيما بالنسبة إلى مَن ليسوا مجرمين محترفين. لو كانت الظروف عادية، لما قلقت كونستونس. كان يكفيها أن تنسج خيوطها كما تفعل العنكبوت، وتنتظر. صحيح أن للتبصر والحظّ أهمية كبرى، لكن ما يسمح بحلّ هذا النوع من القضايا هو الصبر والتضحية، أي الزمن. فهو أفضل حليف لمن يتعقبّون الهاربين. غير أنّ الزمن هو ما كان ينقصها، وبذلك كان عليها أن تلقي عليهما القبض خلال ذلك اليوم.

بإمكان فرقة البحث عن الفارين من الناحية النظرية أن تطلب مساعدة أقسام الشرطة الأخرى، وكذا مساعدة الدرك، وذلك للتنصُّت على هواتف المطلوبين وهواتف أهلهم ومعارفهم، والوصول إلى مختلف عناصر التحقيق مباشرة، لكن الملفات الدولية

صعبة المعالجة. ذلك أنّ المعلومات التي تفِد من البلدان الأصلية كثيراً ما تكون مجزّأة، تصل قطرة قطرة.

لاحظت وهي تتفحّص الملف أنّ من قام بتحقيقات نيويورك هو الضابط لورونزو سانتوس من الدائرة السابعة والثمانين ببروكلين. نظرت إلى ساعتها، كانت تشير إلى الثانية صباحاً بتوقيت نيويورك. إنه وقت متأخّر لكي تتصل بسانتوس، اللهمّ إلا إذا. . .

وقرّرت أن تجرّب حظّها. اتّصلت بموزّع هاتف مفوضية الشرطة، وطلبت بإنجليزية فصيحة مكتب الضابط. أجابها صوت حسن جهير:

- سانتوس.

ضربة حظ!

ما كادت كونستونس تعلن عن رتبتها حتّى سألها سانتوس عن أخبار تحقيقاتها. كان من طينتها نفسها: لا يقنع باليسير. عبّر لها عن أسفه لمّا أخبرته بأنها ما زالت تبحث عن لارابي وطليقته، وسألها بضع أسئلة عن تقدّم تحرّياتها. اغتنمت الفرصة لتبسط له مضمون خطتّها، وتعبّر عن رغبتها في الاطّلاع على كشف مكالمات لارابي الأخيرة، وكذا كشوفاته البنكية.

- هذه الوثائق بحوزتي. ابعثي لي طلباً رسمياً، وسأوافيك بها حالاً.

ردّت كونستونس بإلحاح:

- أنا بحاجة إليها الآن.

قدّمت له عنوانها الإلكتروني لكي يسارع بإرسال تلك الوثائق، لكنّه أقفل الخط من دون أن يَعِدَها بشيء.

ما كادت تفرغ من التهام هلاليتها وتطلب قهوة أخرى حتى سمعت رنّة تعلن عن توصلها ببريد إلكتروني جديد.

لم يتأخّر سانتوس في إرسال الوثائق التي طلبتها منه.

سألت وهي تُحمّل الوثائق:

- هل لديك طابعة يا طوني؟

42

- استيقظي يا نيكي!

- همم...

- لقد تركتك تنامين أطول مدة ممكنة، لكن علينا أن نغادر الآن.

فتح سبستيان مصراع النافذة الذي كان يحمي القمرة من ضوء النهار.

قال يستعجلها للمغادرة:

- بدأت الحركة، الناس على الرصيف. خذي هذه، لقد أتيتك بها لتغيّري ملابسك.

استيقظت نيكي من النوم بحركة واحدة، وانتصبت واقفة ثمّ مشت بضع خطوات. سألها بقلق:

- هل تحسّن كاحلك؟

حرّكت رأسها إيجاباً. فقد ارتدّ تورّم كاحلها. ما زال يؤلمها لكنها تستطيع المشي.

بادرته لمّا أبصرت الملابس مطويّة على المقعد:

- كيف حصلت عليها؟

- سرقتها من أحد المراكب، لكن لا تقولي لي إنّها ليست على مقاسك أو أن لونها لم يَرُقْك!

ارتدت سروال الجينز والقميص ذا الياقة المدوّرة وانتعلت الحذاء الرياضي. لا شيء من هذه الملابس على مقاسها تماماً. لزمت الصمت ولم تعلّق، لكنها لم تستطع تمالك نفسها وقالت:

- هل بدا لك أن مقاسي هو 42؟

- اعذريني، كان عليّ أن أتسوّق من شارع مونتين!

أمسك بيدها وسحبها إلى خارج المركب.

كان الجو جافّاً وبارداً، وذكّرتهما زرقة السماء الصافية بسماء منهاتن.

- كفّ عن سحب ذراعي!

- ينبغي أن نبتعد من هنا في أقرب وقت. استعملت بطاقتك البنكية هذه الليلة في اتصال هاتفي، ولا شك في أنهم تمكنوا من تحديد موقع المكالمة.

وبينما كانا يعبران شارع سان أنطوان، حكى لها ما قام به ليلاً: كيف اكتشف أنّ الرقم البولوني لا يفضي لشيء، وحدّثها بالخصوص عن اختفاء كامي وعدم وصولها إلى بيت جدّتها.

شعرت نيكي بخوف شديد عند علمها باختفاء ابنتها. توقّفت عن السير وسط الرصيف وهي لا تقوى على التنفس، وشعرت بتصلّب ذراعها، وتشنّج يدها. وتلألأت قطرات من العرق على جبينها ثمّ سالت على جيدها. شعرت بغصّة في حلقها كادت تخنقها، وجعل قلبها يخفق خفقاناً شديداً أصابها بالاختناق.

قال سبستيان متضرّعاً:

- أتوسل إليك، لا تنهاري الآن يا نيكي. تنفّسي بعمق واهدئي.

استولت عليها نوبة من التشنج، وراحت تشهق شهقات عنيفة حتّى أوشكت على السقوط وسط الشارع. حينئذٍ ألقى سبستيان بآخر أوراقه. سحبها بقوة من كتفها.

- انظري يا نيكي، ينبغي أن تهدئي. لقد اكتشفت دلالة الأرقام الموجودة على القفل. أفهمت؟ اهتديت إلى دلالة الأرقام!

43

أمام حالة الانهيار التي أصابت نيكي لم يجدا بدّاً من أن يجلسا بأحد المقاهي بشارع فياي دي تومبل في قلب «ماري»، وهو مكان حافل بالحركة رغم الصباح الباكر.

عدّ سبستيان ما فضُل في محفظة نيكي من قطع نقدية. فقد صرّف الليلة السابقة خمسين دولاراً بمحطة الشمال، أدّى بها ثمن سيارة الأجرة إلى ألما. وكلّ ما تبقى لهما الآن ستة أوروات، بالكاد تكفي لأداء ثمن قهوة بالحليب وقطعة خبز بالزبدة، يقتسمانهما.

- هل لديك ورقة وقلم؟

بحثت نيكي في حقيبتها فعثرت على قلم دقيق مكسوّ برقائق من الصدف تذكّر سبستيان بأنّه هو من أهداه إيّاها، لكنه أعرض عن التعليق.

نسخ على غطاء المائدة الورقي مُتتالِيتي الأرقام كما وردت على القفل.

48 54 06

2 20 12

قال بأسف:

- كان عليّ أن أنتبه لذلك منذ البداية. الأمر في غاية الوضوح.

- ما هو هذا الأمر الواضح؟
- الدرجات والدقائق والثواني...
- كفّ عن هذا الكلام الملغز، ووضّح قصدك!
- يتعلّق الأمر ببساطة بإحداثيات جغرافية معبّر عنها بواسطة نظام ستيني...
- أيعجبك أن تتسلّى بتمثيل دور الأستاذ؟!
أضاف وهو يكمل رسمه:
- ... بعبارة أخرى، خط العرض وخط الطول:
خط العرض: N 48 54 06
خط الطول: E 2 20 12
استوعبت المعلومة وطرحت سؤالاً فرض عليها نفسه:
- ما المكان الذي يناسب هذه الإحداثيات؟
ردّ بفتور مفاجئ:
- لست أدري. ينبغي إدخالها إلى جهاز تحديد المواقع.
صمتت لبضع ثوان ثمّ قالت:
- هل تلمس في نفسك القدرة على سرقة سيارة؟
هزّ كتفيه وهو يقول:
- أظن أن هذا هو الخيار الوحيد أمامنا.
شربا قهوتهما بالحليب إلى آخر قطرة، ثمّ نهضا. وبينما كانا يعبران قاعة المقهى باتجاه الباب، لمح سبستيان جريدة تركَها زبون على إحدى الموائد. لفتت انتباهه صورة على الصفحة الأولى. تناول الجريدة وقد تملّكه الخوف. كانت صورته موضوعة على الصفحة الأولى من صحيفة الباريزيان! لعلّ أحد المصوّرين الهواة التقط مشهد «اختطاف» المركب. حدّق سبستيان في صورة «المجرم» كما

لو أنّ الأمر يتعلّق بشخص غيره. كان يُشهر سكيناً يهدّد به ربان المركب. ولم يكن تعليق الجريدة يترك مجالاً للشك:

حادث مرعب على نهر السين!

«تحولت سهرة رومانسية بالأمس إلى كابوس لمّا حاول شخص أميركي وزوجته اختطاف قبطان سفينة كانت تقلّ مائتي شخص. (انظر الصور والشهادات في الصفحة 3)»

علّقت نيكي:

- من يدري؟ ربّما سخِروا يوماً من هذا الكلام.

- أخشى ألّا يكون ذلك اليوم قريباً. فنحن الآن نبحث عن ابنينا.

مشيا على رصيف شارع ريفولي باتجاه ميدان بلدية باريس.

أعلنت نيكي:

- طيّب، سآخذ زمام المبادرة.

- لماذا؟ ألأنّك متخصّصة في سرقة السيارات؟

- كلا، أريد أن أظهر أنا أيضاً على صفحات الباريزيان.

وقفا عند ممرّ الراجلين الذي يقود إلى مبنى بلدية المقاطعة الرابعة، وانتظرا هناك هنيهة، يراقبان السيارات التي تتوقف عند إشارة الضوء الأحمر، بحثاً عن ضحية مناسبة. ولم تكن هذه الضحية سوى رجل خمسيني ضعيف البنية يقود سيارة ألمانية من آخر طراز.

- دعني أتصرّف، لكن ابقَ على مقربة منّي، واستعدّ للتدخل.

اشتعل الضوء الأحمر. تقدّمت نيكي قليلاً من السيارة ثمّ التفتت

بغتة نحو السائق وابتسمت له ابتسامة ساحرة، ثم بادرته وهي تومئ بيدها:

- مرحباً!

قطب حاجبيه قليلاً، والتفت يمنة ويسرة ليتأكّد من أنّه المقصود بالإشارة، ثمّ خفض صوت جهاز الراديو. تقدّمت منه وانتصبت أمام باب سيارته، وقالت له وهي تحدّق في عينه:

- I didn't expect to run into you here![1]

أنزل الرجل زجاج النافذة وهو واثق من أنه شُبِّه لها بشخص آخر.

- I think you have mistaken me for someone else[2]...

- Oh, don't be silly! You mean you don't remember me?[3]

اشتعل الضوء الأخضر. تردّد الرجل، وانطلقت الزمّارات خلفه. شقّ عليه أن يحّول بصره عن هذه الحسناء ذات العينين الساحرتين. لقد مضى وقت طويل لم تنظر إليه امرأة مثل هذه النظرة.

كان سبستيان يراقب المشهد من بعيد وهو واثق من موهبة نيكي في هذا المجال. فهي تعرف كيف تدوّخ الرجال وتثير غيرة النساء. كانت إشارة خفيفة من رأسها أو نظرة كافية لكي توهم «الصياد» بأنّها وقعت في شباكه.

---

(1) لم أتوقع أن نلتقي هنا!

(2) أظن أنني شبهت لك...

(3) أتمزح؟ لا تقل إنك لم تعد تذكرني.

وحسم السائق أمره أخيراً بأن قال:

- انتظري قليلاً، سأركن سيارتي في أقرب مكان.

ابتسمت له نيكي ابتسامة خفيّة، وأومأت لسبستيان بمجرّد ما تحركت السيارة ولسان حالها يقول: «جاء دورك لتتصرّف!»

قال سبستيان في نفسه وهو يقترب من السيارة التي توقفت في أحد جنبات ميدان بودوايي: **شتان بين القول والفعل**... خرج السائق من سيارته وأقفلها. على أن سبستيان ما كاد يلحق به حتى دفعه دفعة عنيفة أسقطته أرضاً، ثم قال له وهو ينحني عليه ليسلبه المفاتيح:

- عفواً سيدي!

فتح السيارة وترك نيكي تجلس وراء المقود.

- هيّا اصعد! بسرعة!

تجمّد سبستيان في مكانه من شدّة قلقه على الرجل المسكين من أثر الضربة القوية التي سدد له. كان ذنبه الوحيد هو أنه صادفهما في الوقت والمكان غير المناسبين.

قال معتذراً وهو يتأكّد من أنّه لم يصرعه:

- لا أستطيع أن أشرح لك. صدّقني، الأمر في غاية الخطورة. تيقّن من أنّنا سنعتني بـ...

صرخت به نيكي:

- ألن تتململ!

فتح باب السيارة وجلس إلى جوارها، فانطلقت كالبرق وانعطفت إلى شارع الأرشيف. وبينما كانت تعبُر الدائرة الرابعة، شغّل سبستيان جهاز تحديد المواقع، وأدخل الإحداثيات المنقوشة على القفل:

خط العرض: N 48 54 06

خط الطول: E 2 20 12

ثمّ انتقل من النظام الستيني إلى نظام تحديد المواقع. قال، بينما كان الجهاز يعالج المعطيات: أتمنّى ألا أكون قد أخطأت.

كانت نيكي وهي تسوق تسترق النظرات إلى شاشة الجهاز. وفي طرفة عين، شرعت نقطة على الشاشة تومض، وتلا ذلك ظهور عنوان: 34 مكرر، شارع ليكويير الواقع بسان أووين!

شعرا بإثارة شديدة. ذلك أن المكان لم يكن بعيداً، تفصلهما عنه ستة كيلومترات أو سبعة حسب الجهاز.

زادت نيكي من سرعة السيارة وهي تعبر ميدان الجمهورية.

أيّ داهيّة جديدة تنتظرهما يا ترى؟

44

هتفت كونستونس:

- طوني، هات قهوة إكسبريسو أخرى.

- لقد شربت ثلاثة فناجين...

- وماذا يضيرك؟ لا أظنّ أن هذا يزعجك. فأنا أمثّل لوحدي نصف رقم معاملات هذا المقهى!

ردّ طوني:

- هذا صحيح.

- ناولني فطيرة بالسكر أيضاً.

- آسف، ليست عندي سوى هلاليات.

- هلالياتك قديمة، اخرج وائتني بفطيرة من المخبزة.

- حسناً.

- وبما أنك ستذهب إلى المخبزة، ائتني أيضاً بخبز بالزبيب. لا تنسَ أن تجلب معك جريدة.

ارتدى طوني سترته وقبعته وهو يتنهّد.

- هذا كلّ ما تريدين يا مركيزة؟

- هلا رفعت من حرارة جهاز التدفئة، الجو بارد هنا.

وبينما كان يهمّ بالخروج، قامت كونستونس ومرّت خلف الكونتوار وهي تتأبّط حاسوبها.

- سأعتني بالمقهى.

سأل طوني بنبرة مرتابة:

- إذا حلّ زبائن كثر، أأنت متأكدة من أنك ستستطيعين خدمتهم بمفردك؟

جالت بعينيها في أرجاء القاعة وقالت:

- هل ترى غيري في المقهى؟

بدت على وجهها تكشيرة امتعاض، فانصرف طوني من دون أن ينبس بكلمة.

غيّرت كونستونس محطة الإذاعة لكي تنصت إلى نشرة أخبار فرانس أنفو. أشارت المذيعة في آخر النشرة بإيجاز إلى محاولة الاختطاف التي وقعت مساء اليوم السابق على متن مركب تابع لشركة الجولات السياحية الباريسية.

«ما زالت الشرطة تجدّ في البحث عن هذين الفارين الخطيرين»

كانت كونستونس منهمكة في العمل. طبعت الوثائق التي توصّلت بها من لورونزو سانتوس، وشرعت في التأشير على مكالمات لارابي الهاتفية، والتعليق عليها في الهامش. وفعلت الشيء نفسه بالنسبة إلى التحويلات المالية التي بدت لها مريبة.

تأكّدت من صحة ما اعترفت لها به صاحبة فندق غراند أوتيل دو لا بوت. فسبستيان لارابي حجز فيما يبدو جناحاً بالفندق قبل أسبوع، لكن، ما أدراها إن كان هو من قام بالتسديد فعلاً؟ لا شيء أسهل من قرصنة بطاقة بنكية. يستطيع أيّ شخص من محيطه أن يقوم

بالعملية، لكن، لأي غاية؟ ودّت لو كان بوسعها أن تطّلع على كشوف نيكي البنكية واتصالاتها الهاتفية، غير أنّ سانتوس لم يزودها إلا بالوثائق المتعلّقة بسبستيان لارابي. وهو أمر له ما يسوّغه. فمذكرة التوقيف لم تكن تخصّه إلا هو.

رفعت الفنجان إلى فمها لترشف منه قبل أن تبرد القهوة، لكنها وضعته فجأة. فقد لفت أحد سطور كشف سبستيان البنكي نظرها. يتعلّق الأمر بتحويل مالي عبر بايبال يعود تاريخه إلى الأسبوع السابق. مبلغ 2500 أورو لفائدة صانع الآلات الموسيقية. قلّبت الصفحات بعصبية، ذلك أن سانتوس كان قد قام بعمله بإتقان منقطع النظير: تمكّن بفضل رقم عملية التحويل من التعرّف على مصدر الأداء. ذلك أن وكالة بنكية فرنسية تابعة لبنك BNP تقع بسانت أوين، حوّلت المبلغ لحساب زبونها: إنها مكتبة **أشباح وملائكة**.

كتبت كونستونس اسم المكتبة على غوغل ماب، فتبيّن لها أنها تقع بـ 34 مكرر، شارع ليكويير بسانت أووين. وهي مكتبة متخصّصة في بيع الكتب القديمة النادرة. أطفأت حاسوبها بحركة عنيفة، ولمّت كلّ أغراضها في حقيبة، ثمّ غادرت المقهى جارية.

لن تستمتع مع الأسف بفطيرة السكر...

45

بينما كان سبستيان ونيكي يجتازان شارع المارشالات وقد بلغا باب كلينياكور، شرعت أنوار السيارة تومض فجأة. حاولت نيكي إطفاءها، لكن عبثاً. قال سبستيان ساخراً ليخفّف من ثقل اللحظة:

- الظاهر أنّ الجودة الألمانية لم تعُد كما كانت في الماضي!

ضغطت نيكي على دواسة السرعة مستعجلة الوصول. مرّت تحت جسر الشارع الجانبي لتصل إلى أزقّة سانت أووين.

عبرا سوق السلع المستعملة. لم يكن آهلاً، كما أنّ مستودعات الألبسة المستعملة والأثاث القديم كانت لا تزال مغلقة في تلك الساعة المبكرة. انعطفت نيكي وعينها على شاشة جهاز تحديد المواقع عند شارع فابر المحاذي للطريق المداري. وبينما كانت السيارة تتجاوز الأكشاك الحديد، شرع منبّهها يزمّر عالياً.

قالت بقلق:

- ماذا حدث؟

- لعلّ السيارة مجهّزة بنظام تعقّب. سيارتي الجاغوار مجهّزة بالنظام نفسه. إذا ما سُرقت، يُشغِّل مستقبل راديو بوقَ السيارة وجهاز الإنذار عن بعد.

- هذا ما كان ينقصنا! لقد أثرنا انتباه المارّة!

- الأدهى هو أن جهاز الإنذار سيعيّن للشرطة موقع السيارة! اللعنة! ليس هذا وقت. . .

فرملت نيكي فجأة وصعدت فوق الرصيف. ترجّلا من السيارة وتركاها تنعق. قطعا ما يقارب الكيلومتر مشياً قبل أن يصلا إلى شارع لاكوبير.

كانت مفاجأتهما كبيرة لما اكتشفا أنّ الرقم 34 مكرَّر يناسب عنوان. . . مكتبة تحمل اسم: **أشباح وملائكة**، وهي ملحقة إحدى المكتبات الأميركية بباريس.

دفع سبستيان ونيكي بابها بمزيج من التوجّس والفضول. وبمجرد ما تجاوزا العتبة عادت بهما رائحة الكتب القديمة إلى زمن آخر: **إلى الجيل الضائع**. يخيّل لمن يرى المكتبة من الخارج أنها ضيّقة، لكنها في الواقع واسعة، تمتدّ أجنحتها على عشرات الأمتار.

تغطي الكتب كلّ الأرجاء، وتكسو آلاف المجلّدات من مختلف الأحجام جدران طابقيها. تتزاحم على رفوف خشبية داكنة، أو تتكدّس على شكل أعمدة تلامس السقف بحيث لا يخلو مكان منها.

كانت تفوح بالمكان رائحة خبز متبّل وقرفة وشاي. ولم يكن يكسر سكون المكان سوى أنغام جاز آتية من بعيد. دنا سبستيان من الرفوف وراح يقلّب بصره بينها: إرنست همنغواي، سكوت فيتزجيرالد، جاك كيرواك، ألين جينزبورغ، ويليام بوروغس، لكن كان ثمّة أيضاً ديكنز ودوستويفسكي وفارغاس ليوزا. . . هل يخضع ترتيبها لمنطق أم أنّه عشوائي؟ مهما يكن، فالداخل إلى هذا المكان يشعر بأن له روحاً. يسوده جوّ ذكّر سبستيان بجوّ مَعمَلِه. السكينة نفسها، الإحساس بتوقف الزمن نفسه، الفقاعة الواقية نفسها.

صاحت نيكي وهي تتقدّم:

- هل من أحد هنا؟

في خلفية الطابق الأرضي يوجد حيّز وضعت فيه تحف طريفة نادرة، يذكّر بقصص لافكرافت وإدغار بو أو كونان دويل. في مكان لا يتعدّى بضعة أمتار مربّعة وضعت معشبة ورقعة شطرنج منحوتة، وحيوانات محنّطة ومومياء مقنّعة ورسومات شبقية ومجموعة من الأحافير تحاول أن تجد لها موقعاً بين المجلّدات. مسحت نيكي على رأس قط سيامي كان ممدّداً على مقعد متهالك، ثمّ راحت تداعب، تحت تأثير سحر المكان، مفاتيح جهاز بيانو قديم، مصنوعة من الأبنوس والعاج، شاحبة اللون. يشعر المرء في هذا المكان كما لو أنه في عصر آخر، عصر أبعد ما يكون عن زمن الإنترنت واللوحات الرقمية والكتب الإلكترونية الرخيصة. مكان أشبه بمتحف، لا تبدو له صلة للأسف باختفاء جيريمي. لا بدّ أنّهما أخطآ الطريق.

وسُمع صوت في الطابق العلوي فجأة. رفعا بصرهما في الوقت نفسه فلمحا عجوزاً يحمل في يده قطاعة ورق وهو ينزل السلم المتداعي المفضي إلى غرفة القراءة. سأل بنبرة فظّة:

- هل أستطيع مساعدتكما؟

كان الرجل بقامته الفارعة وشعره الأحمر وسحنته الجامدة يوحي بالقوة، بحيث يبدو أشبه بممثل شكسبيري قديم.

ردّ سبستيان معتذراً بفرنسية رديئة:

- لعلّنا دخلنا المكتبة خطأ.

سأل الرجل بصوت أجشّ:

- ألأنتما أميركيان؟

لبس نظارتيه حتّى يتفرّس زائريه، ثمّ صاح مستغرباً:
- عرفتكما!
انصرف ذهن سبستيان فوراً إلى صورته المنشورة بالباريزيان. تراجع خطوة إلى الوراء، وحثّ نيكي على أن تفعل مثله. وبقفزة رشيقة لا تتناسب مع سنّه ووزنه، وثب العجوز خلف الكونتوار، وبحث في أحد الأدراج ليخرج صورة.
قال وهو يمدّها لسبستيان:
- أليست هذه صورتكما؟
لم تكن الصورة صورة الجريدة، بل صورة باهتة، التقطت لهما بحديقة مصانع القرميد، يظهر في خلفيتها متحف دورساي. قلّب الصورة فتعرّف في ظهرها على كتابة بخط يده: رصيف مصانع القرميد بباريس، خريف عام 1996. كانا في تلك الفترة ما زالا شابين متيّمين وباسمين، يبدوان كما لو أنّ الحياة تمدّ لهما يدها.
سألته نيكي:
- أين عثرت على هذه الصورة؟
- في الرواية بالطبع!
- أيّ رواية؟
أجاب وهو يتّجه نحو رفّ زجاجي:
- الرواية التي اشتريتها قبل أيام على الإنترنت.
تبعَتْه نيكي وسبستيان مذهولين.
استرسل يقول:
- إنّها صفقة مربحة. عرضه عليّ زبون بثمن لا يساوي حتّى نصف قيمته.

أزاح بحذر الواقية الزجاجية قبل أن يتناول مجلّداً ذا غلاف أنيق باللونين الوردي والأسود.

- نسخة من طبعة محدودة لكتاب الحب في زمن الكوليرا لغابرييل غارسيا ماركيز، ممهورة بتوقيع الكاتب. لا يوجد منه في العالم سوى ثلاثمائة وخمسين نسخة.

تفحّص سبستيان الكتاب وهو لا يكاد يصدّق. يتعلّق الأمر بكتاب كان قد أهداه لنيكي بعد الليلة التي قضياها معاً في فندق ببوت-أو-كاي الصغير. بعد طلاقهما، لم يتقبّل الهزيمة، وحتى يتبرأ من حبّه لها، استعاد منها الكتاب الذي كان ثمنه يقدَّر على مواقع البيع على الشبكة بآلاف الدولارات، لكن كيف وصل إلى هذه المكتبة بما أنّه كان يحتفظ به في خزنته في منهاتن؟

- مَن باعك الكتاب؟

قال الرجل بعد أن راجع مذكرة سحبها من جيب سترته:

- شخص يدعى سبستيان لارابي. هذا ما صرَّح لي به من باعه لي في رسالته الإلكترونية.

- هذا مستحيل: أنا هو لارابي، وأنا لم أبِعْك شيئاً!

- إذا كان الأمر كذلك، فقد انتحلَ أحدهم هويّتك. إلا أنّ الأمر لا يعنيني.

تبادل سبستيان ونيكي مشدوهَين نظرة تشي بالإحباط. ما معنى هذا اللغز الجديد؟ إلى أين ينبغي أن يتّجها الآن؟ التقطت نيكي عدسة مكبرة كانت موضوعة على الكونتوار وتفحّصت الصورة بعناية. كانت السماء متورّدة عند المغيب. وكانت تظهر على واجهة متحف دروساي ساعتان جداريتان كبيرتان تشيران إلى السادسة والنصف

مساء. الأمر يتعلّق إذن بزمان ومكان: حديقة مصانع القرميد عند الساعة السادسة والنصف مساء. لعلّه موعد جديد...

ما كادت تفتح فمها لتخبر سبستيان بما استنتجت حتى دفع أحدهم باب المكتبة. التفتا فإذا الداخل امرأة شقراء شابة ترتدي سروال جينز وسترة جلدية. إنها الشرطية التي حاولت توقيفهما على المركب بالأمس...

46

أشباح وملائكة.

قالت كونستونس في نفسها وهي تدفع باب المكتبة الحديد الثخين: ما أغرب اسم هذه المكتبة! دهشت لِكمّ الكتب المرتبة على الرفوف الممتدّة فيما يشبه متاهة معرفية مثيرة. نظرت بين الأجنحة، فرمقت ثلاثة أشخاص: رجل عجوز ضخم الجثة تغطي جزءاً كبيراً من وجهه نظارات سميكة، يتحدّث قرب الكونتوار مع زبونين، رجل وامرأة. لمّا رأياها نظر أحدهما إلى الآخر ثمّ لاذا بالفرار. إنّه لارابي وطليقته!

أشهرت كونستونس سلاحها وانطلقت في إثرهما. كانت المكتبة تمتدّ طولاً على مدى عشرين متراً تقريباً. ولكي يعيقا تقدُّمها، عمد الأميركيان إلى رمي كلّ ما يصادفانه في الطريق خلفهما: الرفوف والتحف والمصابيح والسلالم والخزانات. قفزت الشرطية على أريكة، لكنها لم تستطع أن تتفادى كرسياً خشبياً رمته نيكي بها، ولم تجد بدّاً من حماية وجهها بذراعها. أصاب الكرسي مرفقها بعنف، فأرخت سلاحها وهي تصرخ من الألم.

التقطت المسدس وهي تشتم:

- السافلة!

كان في أقصى المكتبة باب يفضي إلى ساحة صغيرة تنفتح على حديقة غير مزروعة. قفزت كونستونس على السور الواطئ المحاذي لشارع جول فاليس، وهناك استعادت الثقة بنفسها، لأن الهاربين ما زالا في متناولها.

هتفت بهما:

- توقّفا!

تجاهل الأميركيان تحذيرها، فأطلقت النار في الهواء لإخافتهما، لكن بلا جدوى. كانت الشمس تتوسط السماء، فرفعت السلاح من شدّة وهج الأشعة إلى مستوى جبينها لتصوّب. بدا لها طيفا الأميركيين ينعطفان عند ركن الشارع. استأنفت عدوَها وهي مصمّمة على توقيفهما مهما كلّف الثمن.

دخلت لاهثة إلى مرآب بيليسيي الواقع عند زاوية شارع بول بيرت وقد أشهرت سلاحها. كان المرآب يأوي عشر دراجات ثلاثية العجلات تقريباً. وهي نوع من الدراجات النارية الشائعة في الهند وتايلاندا، لكنها بدأت تغزو عاصمة الأنوار في الآونة الأخيرة. كانت الدراجات مركونة الواحدة بجوار الأخرى بانتظار مراجعة أو شحن بالوقود أو تصليح.

صرخت كونستونس وهي تتقدّم ببطء وأصبعها متصلب على الزناد:

- اخرجا!

كانت العتمة تزداد كلّما أوغلت في المرآب إلى أن عمّ الظلام تماماً. تعثرت قدمها بصندوق وكادت تسقط، ولفت انتباهها فجأة أزيز محرّك إحدى الدراجات. صوّبت سلاحها باتجاهها، لكنها انطلقت بسرعة فائقة نحوها ممّا جعلها ترتمي على الأرض

وتتدحرج. كانت المرأة هي من تسوق الدراجة بتلك السرعة الجنونية! استغنت كونستونس هذه المرّة عن التحذير وأطلقت النار على زجاج الدراجة الأمامي فتحطّم، لكنها لم تنجح في إيقافها. تعقبتها جارية لعشرين متراً تقريباً، لكنها يئست من إدراكهما.

اللعنة!

اندفعت نحو سيارتها المركونة قرب واجهة المكتبة، وانطلقت تقودها بسرعة عالية. سارت في الاتجاه المعاكس لحركة المرور لمسافة قصيرة إلى أن بلغت شارع بول بيرت.

لا أثر للارابي وطليقته.

حافظي على هدوئك...

انطلقت في الممرّ التحت أرضي المتعامد مع الشارع الجانبي وهي تمسك المقود بيد، وتضع اليد الأخرى على مبدّل السرعة. خرجت من النفق بسرعة فائقة واتّجهت إلى الدائرة الثامنة عشرة.

زادت من سرعتها في شارع بيني، وساورها ارتياح كبير لما لمحت الدراجة. أيقنت حين بلغت شارع أورنانو بأنّهما صارا بمتناولها. لا مقارنة بين سرعة سيارتها وسرعة الدراجة الثلاثية الشبيهة بسرعة حلزون.

شدّت بقوة على المقود وركزت على الطريق. كانت حركة المرور سلسة، وكان الشارع عريضاً على شاكلة الشوارع الكبيرة. ضغطت على دواسة السرعة لكي تحاذي الدراجة. كانت نيكي جالسة في المقعد الأمامي بينما تشبّث سبستيان بسقف المركبة.

حافظي علي رباطة جأشك...

تجاوزت الدراجة لكي تفاجئها باعتراض طريقها، لكن نيكي تجنّبتها بالانعطاف إلى ممرّ الحافلات. راحت كونستونس تلعن وهي

تستدرك المسافة التي تفصلها عن الدراجة، إلا أن الأميركيين لم يعبآ بالضوء الأحمر بملتقى طرق ميدان «ألبير كان». سايرتهما في صنيعهما حتى لا يفلتا منها، لكنها تسبَّبت في عرقلة حركة المرور، وجعلت السائقين الآخرين يحتجّون عليها بالضغط على مزامير سياراتهم.

لحقت بهما عند مدخل شارع هيميل، وهو شارع ضيق، تمرّ فيه المركبات في اتجاه واحد. ولعلّ ما زاده ضيقاً هي الأشغالُ الجارية في كثير من مقاطعه. كان مليئاً بالحواجز وسياجات الأسلاك والفواصل والسقالات... كل شيء فيه كان يعيق تقدّم سيارة كونستونس الرياضية.

استشاطت غضباً لأنها لم تكن تحمل معها صفارة إنذار أو مصباحاً دواراً. ضغطت بقوة على بوق السيارة، وسارت على الرصيف لكي تخرج من زحمة السير. مضى بعض العمال يندّدون بتصرّفها، لكنّها واصلت السياقة، معوِّلة على قوة سيارتها لعبور الشارع. همّت بأن تتّصل ببوتساري هاتفياً طلباً للتعزيزات، لكنّها أحجمت، لأنّ السياقة بسرعة كانت تستنفد كل انتباهها.

مضت الدراجة تتسلل بين السيارات بيسر، لكن السرعة كانت تنقصها، ممّا مكّن كونستونس من اللحاق بها، والسير بمحاذاتها من جديد. ظنّت في بادئ الأمر أنّها أمسكت بالهاربين، لكنها لمّا أبصرت سبستيان يزيح غطاء الدراجة المصنوع من الجلد والمعدن، قالت في نفسها:

- لعلّه لن...

وبينما كانت تقدّر الخطر، قذف لارابي بسقف الدراجة على زجاج السيارة الأمامي.

حذار!

في تلك الأثناء تقدّمت امرأة تدفع عربة أطفال وسط الطريق في معبر الراجلين، لم تبصرها كونستونس إلا في آخر لحظة. ضغطت على الفرامل بشدّة، وأدارت المقود بكل ما أوتيت من قوة حتّى تتجنّب دهس العربة. زاغت السيارة واصطدمت بالرصيف، فانفصل واقي الصدمات من مكانه، واضطرت إلى التوقّف.

ترجّلت كونستونس وأزاحت سقف الدراجة العالق بماسحة الزجاج، ثم أزالت بركلة مثبّت واقي الصدمات لكي تتمكّن من مواصلة المطاردة.

استغل الأميركيان هذه الحادثة لكي يبتعدا... لكن ذلك لم يزد كونستونس إلا إثارة. شعرت كما لو أنّها تلعب معهما لعبة القط والفأر، وهي لعبة ستنتهي لا محالة باقتناصهما. فسرعة الدراجة لا تتجاوز ثلاثين كيلومتراً في الساعة، ومن ثمة فهي لن تمضي بعيداً. ساقت كونستونس سيارتها بأقصى سرعة ممكنة، ولحقت بهما من جديد. بلغت المركبتان شارع كوستين، فصدمت السيارة مؤخرة الدراجة، لكن في تلك الأثناء بالضبط، أدركها قطار مونمارت السياحي من جهة اليمين، وهو ما جعل نيكي تفقد السيطرة على الدراجة فصدمت بدورها إحدى عرباته الصغيرة. توقفت كونستونس في وسط الشارع وقفزت خارج السيارة مشهرة سلاحها، مصوّبة فوهته باتجاه الدراجة، ثم صاحت بهما:

- ضعا يديكما على رأسيكما، واخرجا من الدراجة.

لقد ألقت عليهما القبض أخيراً.

47

قالت كونستونس بلهجة آمرة:

- امتثلا بسرعة!

أمسكت قبضة مسدسها بيديها معاً. كان سبستيان لارابي وطليقته في متناول طلقاتها. جالت ببصرها حواليها لتقيّم الوضع.

لم تلمح أطفالاً في القطار. كانت الصدمة قوية، لكن لا أحد من الركاب كان ساقطاً أرضاً. كان ثمّة شخص ياباني يشكو كتفه وامرأة تمسك بركبتها، ومراهق يدلّك رقبته. كانت الإصابات طفيفة، إلا أن آثار الرعب كانت بادية على وجوههم.

الخوف أعظم من الإصابات.

جالت كونستونس ببصرها بين لارابي وطليقته وبين الحادثة. ما كاد الركاب يلتقطون أنفاسهم حتّى أخرجوا هواتفهم، وراحوا يطلبون النجدة، ويتّصلون بذويهم، أو يصورون منظر الواقعة.

كلّ هذا كان في صالح كونستونس. فالتعزيزات ستصل في رمشة عين.

اقتربت من الهاربين وأخرجت من جيبها أصفاداً. هذه المرّة لن يفلتا منها. صمّمت على إطلاق النار على رجليهما عند أبسط حركة.

فتحت فمها لتحذّرهما للمرّة الأخيرة، لكن فكّها تجمّد فجأة،

وشرعت يداها الممدودتان ترتعشان، ولم يعُد ساقاها يقويان على حملها.

كلا...

لقد تسبَّب لها التوتّر الناتج من الملاحقة في أزمة...

حاولت أن تتماسك. تشبثت بباب السيارة حتى لا تسقط. شعرت بالاختناق، وأحسَّت كما لو أن قضيباً خفيّاً يسحق صدرها، وبلَّلت قطرات عرق ضخمة وجهها. مسحت جبينها بكمّ سترتها من دون أن ترخي سلاحها. قاومت لكي تحافظ على توازنها. كانت تشعر بالغثيان، وبِطنينٍ في أذنيها، واضطراب في بصرها.

بذلت ما بقي لها من قوّة لكي تظلّ ممسكة بسلاحها، لكن العالم حولها أخذ يترنح، ثمّ اسودّت الدنيا في عينيها وسقطت مغشيّاً عليها.

48

جنوب بروكلين

حي ريد هوك

الساعة السادسة صباحاً

ركن لورونزو سانتوس سيارته على الرصيف المحاذي لواجهة العمارة المبنية بالطوب الأحمر التي تسكنها نيكي. أطفأ المحرك وتناول سيجارة من جيب سترته، ثبّتها بين شفتيه، ثمّ أشعلها وهو يغمض عينه ويسحب منها أوّل نفس. شعر بطعم التبغ لاذعاً في حلقه، لكنه أحسّ بسكينة عابرة. سحب نفساً آخر بعصبية وهو يحدّق في ولاعة الذهب الأبيض التي تلقاها هدية من نيكي. داعب الولاعة المستطيلة الأنيقة التي نقشت عليها حروف اسمه الأولى، والمغلفة بجلد قاطور، ثم راح يفتحها ويغلقها وهو مستغرق في أفكاره، يستعذب ما تصدره من رنين معدني.

ماذا يحدث له؟

لقد أمضى ليلة بيضاء أخرى بمكتبه، تعذبه صورة المحبوبة وهي نائمة في حضن رجل آخر. انقطعت عنه أخبارها منذ أربع وعشرين ساعة، وهو أمر يضنيه. يكوي الحب قلبه ويذهب بعقله، ويحطّمه شيئاً فشيئاً. كان يدرك أن هذه المرأة فتّاكة، وأن تأثيرها على مسيرته

المهنية وعلى حياته عامة مدمّر، لكن هيامه بها يجعله عاجزاً عن نسيانها.

دخّن السيجارة إلى أن بلغ المصفاة ثم رمى العقب من النافذة وغادر السيارة. اندفع داخل المصنع القديم الذي تحول إلى مساكن.

صعد السلم إلى أن بلغ الطابق ما قبل الأخير وفتح الباب بالمفاتيح التي كان قد عثر عليها خلال آخر زيارة له للبيت.

بدرت له فكرة تلك الليلة: إنْ شاء استرجاع نيكي عليه أن يعثر على ابنها. عليه أن ينجح فيما أخفق فيه سبستيان لارابي. إنْ هو نجح في إنقاذ جيريمي، ستحفظ له نيكي هذا الجميل طيلة حياتها.

لم يكن النهار قد طلع بعد. دخل إلى الصالون وأشعل النور. كانت الشقة باردة، فهيّأ قهوة لكي يستدفئ، وأشعل سيجارة أخرى ثمّ صعد إلى الطابق العلوي. قضى ربع ساعة وهو يفتّش شقّة جيريمي تفتيشاً دقيقاً لعلّه يجد قرينة تساعده، لكنّه لم يعثر على طائل باستثناء هاتف الفتى الموضوع على مكتبه. لم يلاحظه في زيارته الأولى. كان يدرك تماماً تعلّق المراهقين الشديد بهواتفهم الذكية، وتعجّب من أنّه لم يلتفت إليه سابقاً. تناول الجهاز بين يديه وراح يتصفّح لدقائق ما يحتويه من تطبيقات وألعاب قبل أن يثير انتباهه أمر مهمّ: برنامج يقوم بوظيفة الديكتافون. وهو أمر غريب. راجع أرشيف التطبيق، فاكتشف فيه مجموعة من المستندات المرقّمة تحمل في عنوانها اسماً يتكرر:

DrMarionCrane1

DrMarionCrane2

(...)

DrMarionCrane10

استغرب سانتوس هذا الأمر. ذلك أنّ هذا الاسم لم يكن خافياً عليه. شغّل التسجيل الأوّل، ففهم المسألة. لما مثُل جيريمي أمام المحكمة، أمر القاضي بإخضاعه لمراقبة سيكولوجية. عهد به إلى الطبيبة النفسية ماريون كرين. وقد سجَّل الغلام مقابلته معها!

لكن، ما الهدف من ذلك؟ هل كان تسجيلاً مقرصناً أم تراه جزءاً من العلاج؟

قال سانتوس في نفسه وهو يهزّ كتفيه: مهما يكن، فهذا أمر لا أهمية له.

أنصت كالمتلصص «للتسجيل» الذي يتحدّث فيه الطفل عن حياته العائلية الحميمة.

دكتورة كرين: هلّا حدّثتني يا جيريمي عن والديك.

جيريمي: أمّي رائعة. رائقة المزاج على الدوام، متفائلة وواثقة من نفسها وهادئة. حتّى لمّا تكون لديها مشاكل، لا تُشعرني بذلك. خفيفة الروح، ميالة للمرح، تتعامل مع كل شيء بفكاهة. حين كنّا أنا وأختي صغيرين، كانت تتنكّر في صور شخصيات خرافية، وتمثّل لكي تسلّينا.

دكتورة كرين: هي امرأة متفهّمة إذن؟ هل تُطلِعها على مشاكلك؟

جيريمي: أجل، فهي بالغة اللطف. فنانة، امرأة تحترم حريتي. تتركني أخرج، وتثق بي. تعرف أصدقائي، وتنصت إلى مقطوعات القيثارة التي أعزف وتقدّر شغفي بالسينما...

دكتورة كرين: أهناك رجل في حياتها الآن؟

جيريمي: نعم، شرطي يدعى سانتوس. يصغرها سنّاً. شخص أشبه بقرد الرباح...

دكتورة كرين: يبدو أنك لا تستلطفه...

جيريمي: تماماً.

دكتورة كرين: لماذا؟

جيريمي: حين أقارنه بأبي، أجده رجلاً حقيراً. ثم إن علاقتهما لن تطول على كل حال...

دكتورة كرين: لماذا أنت واثق من ذلك؟

جيريمي: لأنّها تغيّر الخلان كل ستّة أشهر. ينبغي أن تفهمي أمراً يا دكتورة: أمي امرأة جميلة، فائقة الجمال. تتمتّع بجاذبية تخلب لبّ الرجال. تراهم يحومون حولها حيثما حلّت. لست أدري لماذا يفقد الرجال صوابهم حين يرونها، ويصيرون أشبه بذئب تيكس أفيري: تتدلى ألسنتهم وتكاد عيونهم تخرج من محاجرها...

دكتورة كرين: هل هذا يزعجك؟

جيريمي: هي من تنزعج. هذا ما تزعمه على كلّ حال. أما أنا، فأجد الأمر أكثر التباساً ممّا يظهر. لا يحتاج المرء إلى أن يكون عالم نفس لكي يدرك بأن ذلك يعزّز ثقتها في نفسها. أظن أيضاً أن هذا هو سبب الفراق بينها وبين أبي...

دكتورة كرين: لنتحدّث عن أبيك...

جيريمي: الأمر في غاية البساطة: هو نقيض أمّي. شخص جادّ وصارم وعقلاني. يحبّ النظام والوضوح. وهو غير بشوش...

دكتورة كرين: هل تتفاهم معه؟

جيريمي: ليس تماماً. لأننا لا نلتقي كثيراً بسبب الطلاق، من جهة، ثم لأنه يتوق، فيما أظن، لأن أكون مجتهداً في الدراسة. أن أكون مثل كامي. هو واسع الاطّلاع، يعرف أشياء كثيرة في السياسة والتاريخ والاقتصاد حتى إن أختي لقّبته ويكيبيديا...

دكتورة كرين: هل تتأذى من كونك تخيّب ظنه فيك؟

جيريمي: قليلاً...

دكتورة كرين: هل يهمّك عمله؟

جيريمي: هو يعدُّ من أشهر صناع الآلات الموسيقية في العالم. يصنع آلات كمان تنافس ستراديفاريوس، وهذا أمر بالغ الأهمية. يكسب مالاً كثيراً، إلّا أنني أظنّ أن ذلك لا يفيده في شيء.

دكتورة كرين: لم أفهم قصدك.

جيريمي: أظنّ أن كلّ ذلك لا يعنيه. قصة الحب التي جمعته بأمي هي الشيء الوحيد الذي أمتعه حقّاً في حياته. لقد أضفَت على حياته ما كان ينقصها من خفّة ومرح. منذ أن افترقا، صار كما لو أنه يعيش في عالم بالأبيض والأسود...

دكتورة كرين: مع أنّه يعيش مع امرأة أخرى، أليس كذلك؟

جيريمي: نعم. مع ناتاليا، وهي راقصة باليه. امرأة بالغة النحول. يلقاها بين الفينة والأخرى. لكنّها لا تسكن معه. ولا أظن أنّه ينوي العيش معها تحت سقف واحد.

دكتورة كرين: ما هي آخر مرّة شعرت فيها بأنك قريب من أبيك؟

جيريمي: لا أذكر...

دكتورة كرين: حاول أن تتذكّر من فضلك.

جيريمي: ربّما الصيف الذي أكملت فيه سبع سنوات... ذهبنا جميعاً، كلّ أفراد الأسرة، لزيارة بعض المحميات الوطنية: يوسيميت، بيرلوستون، غراندكانيون... قمنا بجولة كبيرة، جبنا فيها كل الولايات المتّحدة. كانت تلك آخر عطلة قبل الطلاق.

دكتورة كرين: هل تذكر حادثاً بعينه؟

جيريمي: نعم. . . ذهبنا ذات صباح، أنا وأبي فقط، لصيد السمك، فحكى لي قصة لقائه بأمي. هيامه بها، ولحاقه بها إلى باريس، وكيف جعلها تتعلق به. أذكر أنّه قال لي هذه الجملة: «لمّا تحبّ شخصاً حبّاً حقيقياً، لا شيء يمكن أن يحوْل بينك وبينه». كلام جميل، لكنني لست متأكّداً من صحّته.

دكتورة كرين: هل تسمح بالحديث عن طلاق والديك؟ كان الأمر صعباً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ لاحظت من خلال اطّلاعي على ملفّك المدرسي أنك كنت تعاني من عثرات في التعلّم، وكذلك عسراً في القراءة. . .

جيريمي: نعم، لقد عانيت من هذا الطلاق. كان من الصعب عليّ أن أصدّق أن فراقهما سيطول. كنت أظنّ أنّ كلاً منهما سيبادر مع مرور الزمن إلى التقرب من الآخر، وأنهما سيعودان للعيش معاً. لكن الأمور لم تَسِرْ على هذا النحو. كلّما طال فراقهما، زاد البُعد بينهما، وصار من الصعبّ بعث تلك العلاقة.

دكتورة كرين: إذا كان والداك قد اختارا الطلاق، فلأنهما لم يكونا سعيدين معاً.

جيريمي: ترّهات! أتظنّين أنهما أسعد الآن؟ أمّي تتناول مهدئات، وأبي حزين على الدوام. الشخص الوحيد الذي كان يعرف كيف يُدخل البهجة إلى قلبه هي أمّي. ثمّة صور كثيرة تعود لما قبل طلاقهما يظهران فيها وهما يضحكان. كلّما شاهدت هذه الصور، تترقرق عيناي بالدموع. كنّا قبل طلاقهما أسرة حقيقية، متّحدة ومتماسكة. لا شيء كان يستطيع النيل منّا. . .

دكتورة كرين: لا شكّ أنّك تعلم أنها ظاهرة شائعة؟

جيريمي: أيّ ظاهرة؟

دكتورة كرين: أن أبناء الزوجين المنفصلين ينظران إلى العلاقة بين الوالدين نظرة مثالية.

جيريمي: . . .

دكتورة كرين: لستَ طفلاً مغفّلاً يا جيريمي. لا ينبغي أن تأمل في اجتماعهما من جديد. عليك أن تنسى الماضي، وأن ترضى بالواقع كما هو.

جيريمي: . . .

دكتورة كرين: لعلّك فهمت قصدي. عليك ألا تتدخّل في العلاقة بين والديك. لن تستطيع جمعهما من جديد.

جيريمي: إذا لم أقم أنا بجمعهما، فمن سيقوم بذلك؟

ظلّ سؤال الفتى معلّقاً. رنّ الهاتف فانتشل سانتوس من أجواء حصّة التحليل النفسي. نظر إلى الشاشة، كانت الأرقام تشير إلى هاتف مكتب شرطة نيويورك.

قال وهو يفتح الخط:

- أنا سانتوس.

- أنا كيرين وايت، أتمنّى ألا أكون أيقظتك. أخيراً وافانا عالم الأنثربولوجيا بالقسم. . .

صمتت قليلاً ثمّ استأنفت:

- لديّ أخبار سارّة لك.

شعر سانتوس بدفقة أدرينالين. اندفع خارج الغرفة ونزل السلم ليلتحق بالطابق الأرضي.

- حقّاً؟

- أظنّ أنني تعرّفت على مصدر الوشوم التي وجدت على الجثّة.

- هل أنت بمفوضية الشرطة؟

أضاف وهو يغلق باب الشقة خلفه:

- سألحق بك حالاً.

49

لما استعادت كونستونس وعيها، تفاجأت بوجودها في سريرها. . . كانت حافية القدمين، من دون سترة ولا غمد. كانت ستارة النافذة مسحوبة، لكن الباب تُرك مواربًا. أصاخت السمع، فسمعت أصواتاً تتهامس في الصالون. من جاء بها إلى هنا؟ بوتساري؟ الإنجاد؟ رجال الإطفاء؟

بلعت ريقها بصعوبة. شعرت بلزوجة في لسانها، وبطعم عجين الورق في فمها، وبتصلّب في أطرافها وضيق في تنفّسها. كما أحسّت بألم حادّ في فودها الأيمن.

نظرت إلى ساعة المنبّه، كانت تشير إلى الثانية عشرة زوالاً. أغمي عليها لأكثر من ساعتين. . .

حاولت أن تنهض، لكنّها شعرت بثقل في جانبها الأيمن وبآلام وتنمّل. اكتشفت فجأة أنّها مصفّدة إلى سريرها!

انتفضت وحاولت تخليص نفسها، لكن ذلك نبّه «خاطفيها».

قالت نيكي وهي تدخل إلى الغرفة وفي يدها كوب ماء:

- Calm down![1]

---

(1) اهدأ!

صرخت كونستونس في وجهها:

- What are you doing in my house![1]

- ليس لدينا مكان آخر نأوي إليه.

استقامت كونستونس معتمدة على وسادتها لكي تلتقط أنفاسها.

- كيف عرفتما بيتي؟

- عثرنا على ورقة في محفظتك عليها عنوانك. يبدو أنك غيّرت مسكنك حديثاً. شقّة لا بأس بها على كلّ حال...

نظرت الشرطية إلى المرأة الأميركية بتحدّ. كانت في مثل سنّها تقريباً، تشبهها في كثير من الملامح: الوجه نفسه بقسماته الدقيقة، النظرة الصافية نفسها، الهالات السوداء حول العينين نفسها، الدالّة على التوتر والتعب.

- لست أعرف دوافعكما. لكن أنصتا إليّ جيداً، إذا لم أتصل بزملائي لأطلعهم على أخباري، لن يتأخروا في المجيء إلى هنا. وسيطوّقون المنزل...

قاطعها سبستيان وهو يدخل الغرفة قائلاً:

- لا أظن.

وتنبّهت كونستونس بمرارة إلى أنه يتأبّط ملفها الطبي.

بادرته بغضب:

- لا يحقّ لك أن تفتّش في أغراضي.

أجابها بهدوء غير معهود:

- آسف على اطّلاعي على مرضك، لكنّني واثق من أنّك لم تكوني في مهمّة رسميّة.

---

(1) ماذا تفعلين في منزلي!

- أنت واهم.

- حقّاً؟! منذ متى صار البوليس يستعملون سياراتهم الخاصة في التوقيفات؟

لزمت كونستونس الصمت، فتمادى سبستيان في هجومه:

- منذ متى صار نقباء الشرطة يتدخلون بمفردهم من دون تعزيزات؟

أجابته بلهجة متوعّدة:

- لدينا نقص في أعداد رجال الشرطة هذه الأيام.

- آه... نسيت. لقد عثرت كذلك في حاسبوك على ملفّ يحتوي على نسخة من رسالة الاستقالة.

كظمت كونستونس غيظها، وقبلت على مضض كوب الماء الذي مدّته لها نيكي. فقد كانت تشعر بجفاف في حلقها. دعكت بيدها غير المقيدة جفنيها وقد آذاها أن ترى زمام الأمور يفلت منها تماماً.

قالت نيكي:

- نحن بحاجة إلى مساعدتك.

- مساعدتي؟ ماذا تريدان منّي؟ أن أعينكما على مغادرة البلد؟

استدرك سبستيان:

- كلا، نريد أن تساعدينا في العثور على ابننا وابنتنا.

استغرق سبستيان ونيكي أكثر من ساعة وهما يحكيان للشرطية تفاصيل الحادث الذي قلب حياتهما رأساً على عقب. كانوا جالسين ثلاثتهم إلى مائدة المطبخ حيث شربوا إبريقَي شاي، وأفرغوا علبة كعك.

أنصتت كونستونس لحكاية الأميركيين مذهولة، وراحت تدوّن

ملاحظاتها بحيث سوّدت ما يقارب عشر صفحات من دفتر مدرسي.

شعرت رغم أن قدمها كانت مقيدة إلى كرسي، بميزان القوى يميل إلى جانبها. ذلك أنّ الأميركيين لم يكونا متورّطين في قضية قد تقودهما إلى السجن المؤبد فحسب، بل كانا يائسين بسبب اختفاء توأميهما أيضاً.

سمعت كونستونس من نيكي القصة بكاملها، ثمّ تنهدت تنهيدة عميقة. فقصة لارابي وطليقته يصعب تصديقها لولا الحزن البادي عليهما. دعكت رقبتها، ولاحظت اختفاء ما كانت تشعر به من صداع وغثيان، وأحسَّت بأنها استعادت قواها.

إنها مزايا التحقيق السحرية...

قالت بلهجة آمرة:

- إن كنتما تطمعان حقّاً في مساعدتي، ينبغي أن تفكّا وثاقي أوّلاً! بعد ذلك ينبغي أن أحلل الشريط الذي يعرض اختطاف ابنكما.

بينما راح سبستيان يفكّ وثاقها، أدارت نيكي حاسوب كونستونس، وفتحت بريدها الإلكتروني لكي تحمّل الفيلم على القرص الصلب، ثمّ قالت:

- هذا ما توصّلنا به.

عرضت كونستونس الفيلم، الذي يدوم أربعين ثانية، مرّة أولى، ثمّ ثانية، وتوقّفت عند الصور المفصليّة.

لم يعُد سبستيان ونيكي يحدّقان في الشاشة، بل في وجه تلك التي صارت أملهما الوحيد.

عرضت كونستونس الفيلم بالعرض البطيء مرّة أخرى، ثم قالت بنبرة حاسمة:

- هذا الشريط كلّه ملفّق!

سأل سبستيان:

- كيف؟!

قالت موضّحة:

- هذا الفيلم ملفّق. لم يصوّر بمحطة باربيس على كلّ حال. .

علّقت نيكي:

- مع أنّ. . .

رفعت كونستونس يدها لتقاطعها.

- حين حللتُ بباريس، سكنت لأربع سنوات بحجرة خادمات بشارع أمبرواز-باري، قبالة مستشفى لاريبوازيير. وكنت أركب المترو من باربيس-روشوار مرّتين في اليوم على الأقل.

- وماذا بعد؟

ضغطت كونستونس على زرّ تثبيت الصورة.

- هناك خطان يمرّان من باربيس: الخط رقم 2، ومحطته معلقة في الهواء، ثمّ الخط 4، الذي توجد محطته في الطابق التحت أرضي.

ثمّ أشارت بقلمها إلى الشاشة مستطردة:

- في هذا الفيلم لا تظهر المحطة في الهواء الطلق، وبذلك لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بالخط رقم 4. . .

- حسناً. . .

- والحال أن الخط 4 معروف بسكّته المائلة، أو هي بالأحرى على شكل منحنى، وهو أمر غير معهود.

قالت نيكي موافقة:

- ليس الأمر كذلك في الشريط.

دنا سبستيان من الشاشة. كانت مغامرته بباربيس، ولقاؤه بمهربي السجائر قد تركا في نفسه ذكرى أليمة، لكنه لا يذكر شكل المحطة على نحو واضح.

فتحت كونستونس بريدها الإلكتروني، ثمّ قالت وقد شرعت في كتابة رسالة إلكترونية:

- هناك وسيلة حاسمة لمعرفة المكان الذي صُوّر فيه الفيلم.

شرحت لهما بأنّها سترسل الفيديو إلى زميل لها يدعى الضابط ماريشال، يعمل في شرطة النقل، وهي الشعبة التي تشرف على شبكة السكك الحديد.

- فرانك ماريشال يعرف مترو باريس معرفة دقيقة. أنا واثقة من أنه سيتعرّف على المحطة التي صوِّر فيها الفيلم توّاً.

قال سبستيان بلهجة متوعّدة وهو يحني عليها:

- حذار، إياك والمراوغة! لم يعُد لدينا شيء نخسره. لا تحاولي خداعنا وإلا... ثم إنك كنت تسعين قبل ثلاث ساعات فقط إلى إيقافنا. كيف رضيت فجأة بمساعدتنا؟!

هزّت كونستونس كتفيها ثمّ ضغطت على أيقونة الإرسال.

- لأنني صدّقت قصّتكما. ثمّ، لنكن واقعيين: لم يعُد أمامكما من خيار إلا أن تثقا بي...

50

كانت كونستونس تدخّن السيجارة تلو الأخرى وهي تراجع ما دوّنته من ملاحظات. وكانت تسطّر على بعض العبارات كما يفعل التلاميذ في كراريسهم، أو تحيطها بدوائر، أو تعيد كتابتها، أو ترسم بعض الخطاطات المسهّمة لتشحذ ذهنها أو تقدح شرر بنات أفكارها.

كانت فكرة غامضة تتوضّح بالتدريج في ذهنها إلى أن صارت جلية تماماً، لكن جرس هاتفها أخرجها من استغراقها. نظرت إلى الشاشة، فإذا به الضابط ماريشال.

فتحت الخط، ثمّ شغلت مكبّر الصوت لكي تسمح لنيكي وسبستيان بمتابعة المكالمة. صدح صوت الماريشال الجهوري في الغرفة:

- مرحباً كونستونس.

- مرحباً فرانك.

- هل قبلت أخيراً أن تتعشّي معي؟

- أجل، سأكون سعيدة بلقاء زوجتك وأبنائك.

- دعكِ من هذا، أنت تعلمين قصدي. . .

حرّكت كونستونس رأسها. كان ماريشال مدرّبها في المدرسة

الوطنية العليا لضباط الشرطة. وقد نشأت بينهما علاقة بُعيد انتهائها من التكوين، علاقة غراميّة مدمّرة. كانت كلّما هدَّدته بالفراق، أقسم بأغلظ الأيمان بأنّه سيطلق زوجته. صدَّقته لسنتين، لكنّها تعبت من الانتظار، فانفصلت عنه. على أنّه ظلَّ متعلّقاً بها. لا يدَع فرصة تمرّ من دون أن يحاول إحياء العلاقة، رغم أنّ كل محاولاته حتى تلك اللحظة باءت بالفشل.

- اسمع يا فرانك، لا وقت لدي للهو الآن.

- أرجوك يا كونستونس، امنحيني فرصـ. . .

قاطعته بنبرة فاترة:

- هل يمكن أن ننتقل للأهم؟ الفيلم الذي بعثتُ به إليك، لا أظن أنّه صوّر بكاميرات محطة باربيس؟

تنهّد ماريشال تنهيدة دالة على الخيبة قبل أن يجيب بنبرة جادّة:

- أنت محقّة. بمجرّد ما شاهدته، خمّنت أنّه صوّر بمحطة «وهميّة».

- محطة وهميّة؟!

- قلّة من الناس يعرفون أنّ شبكة المترو فيها محطات لا تظهر في الخرائط. هي في الغالب محطات أغلقت خلال الحرب العالمية الثانية، ولم تفتح بعد ذلك. هل تعلمين مثلاً بوجود محطة تحت شان دو مارس مباشرة؟

- كلا، لا علم لي بها.

- استنتجت بعد أن شاهدت مقاطع الفيلم مراراً أنّ الأمر يتعلّق بمحطة «كي مور» الموجودة بباب ليلاس.

- ماذا تقصد بـ«كي مور»؟

- في محطة باب ليلاس، يوجد رصيف مغلق منذ عام 1939، يستعمل أحياناً لتأهيل السائقين أو لتجريب قاطرات جديدة. لكنّه يستعمل على الخصوص في تصوير لقطات سينمائية أو إشهارية يفترض أنّها تجري في مترو باريس.

- أأنت جاد فيما تقول؟

- بالطبع جادّ، بل صار بمرور الأيام استديو سينما حقيقياً. يكفي أن يغيّر مهندسو الديكور مظهره ولافتته ليخلقوا فضاء محطة تعود لأيّ عصر شاءوا. هناك صوّر جوني بعض مشاهد إميلي بولان، وصوّر الأخوان كوين فيلمهما القصير حول باريس...

شعرت كونستونس بدفق من الإثارة.

- أأنت واثق من أنّ هذا الفيلم صوّر هناك؟

- بل لقد بعثته إلى المسؤول عن السينما بالشركة المستقلة للنقل بباريس، فأكّد لي ذلك.

ربّما كان فرانك رجلاً أخرق، لكنه سريع البديهة، ذكي وكفء. باختصار، هو شرطي ماهر...

استرسل ماريشال يوضّح:

- ثمّ إنّ المسؤول ما زال يذكر تصوير ذلك الشريط، بما أنّه يعود إلى عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة. فهو من وَضَع الرصيف رهن إشارة تلاميذ إحدى مدارس السينما: المعهد السينمائي الفرنسي الحرّ.

- هل اتّصلت بهم هم أيضاً؟

- بالطبع، بل نجحت في التعرّف على صاحب الفيديو، لكن لن أخبرك باسم هذا الشخص إلا إذا قبلت العشاء معي.

- أهي مساومة؟

- اعتبريها مساومة. حين يريد المرء شيئاً، يصير كل ما يوصله إليه مباحاً، أليس كذلك؟

- في هذه الحالة، فلتذهب إلى الجحيم! سأحصل على المعلومة بنفسي.

- كما تشائين يا جميلتي...

كانت تهمّ بقطع الخط لمّا شدّ سبستيان بعنف كتفها، وهمس: «اقبلي!»، وأبدت نيكي طلب طليقها مشيرة إلى إطار ساعتها.

قالت وهي تتنهّد:

- حسناً يا فرانك، أقبل دعوتك.

- هل تعدينني بذلك؟

- أعدكَ بشرفي.

- قالت لي مديرة المعهد إنّ معهدها يستقبل هذه الأيام طلبة أميركيين في إطار بعثة مدرسية. تلاميذ مؤسّسة نيويوركية أبرمت اتفاقية توأمة مع المعهد.

- هل صوّر هذا الفيلم أحد الطلبة الأميركيين؟

- نعم. فيلم قصير صوّر في إطار عمل يرمي إلى تكريم ألفريد هتشكوك يحمل عنوان: الثواني التسع والثلاثون، في إشارة إلى التسعة وثلاثين دُرجاً...

- شكراً أستاذي، ما زلت أذكر الروائع الكلاسيكية... هل تعرف اسم هذا التلميذ؟

- يدعى سيمون، سيمون تورنر. يقطن بالحي الجامعي الدولي، لكن إذا كنت تنوين استجوابه، أنصحك أن تسارعي، لأنه عائد مساء اليوم إلى الولايات المتّحدة الأميركية.

بمجرّد ما سمعت نيكي اسم الغلام، عضّت على شفتها حتى لا تصرخ. قطعت كونستونس الخط والتفتت إليها:

- هل تعرفينه؟

- بالطبع! سيمون تورنر هو صديق جيريمي الحميم!

راحت كونستونس تفكّر لهنيهة ثمّ قالت:

- أظن أن عليكما القبول بالأمر الواقع. ابنكما يوهمكما بأنّه اختطف.

51

هتف سبستيان ساخطاً:

- هراء!

التفتت كونستونس نحو الأميركي وقالت:

- فكّر قليلاً... من يستطيع الحصول بسهولة على بطاقة ائتمانك الموضوعة في خزنتك الحديد؟ مَن يعرف مقاس سترتك؟

هزّ صانع الآلات الموسيقية رأسه، وبدا عاجزاً عن التسليم بهذا الاستدلال المنطقي. ثمّ استطردت كونستونس في طرح أسئلتها المزعجة وهي تحدّق في نيكي تارة وفي طليقها تارة أخرى:

- من يعلم بسفركما الرومانسي الأوّل إلى باريس؟ من يعرف أنّكما لن تترددا في استقلال الطائرة إلى فرنسا، وأنّكما ستنجحان في فكّ لغز جسر الفنون وأحجية القفل؟

انقبضت أسارير نيكي، وقالت مؤيدة:

- كامي وجيريمي... ولكن ما الداعي لكلّ هذا؟

التفتت كونستونس نحو النافذة، وتاه بصرها في البعيد ثمّ قالت بصوت أقل حزماً:

- انفصل أبي وأمّي لمّا كنت في الرابعة عشرة من عمري، وقد

كانت تلك ربّما أحلك فترة في حياتي: شعرت بتمزّق عميق، وانهار كلّ ما كنت أؤمن به...

أشعلت سيجارة بحركة بطيئة، وسحبت منها نفساً عميقاً ثمّ استطردت:

أظنّ أنّ معظم الأطفال الذين انفصل آباؤهم عن أمهاتهم يعيشون على أمل خفي هو أن يجتمع شمل الوالدين في يوم من الأيام و...

قاطعها سبستيان بفظاظة، وقد بدا أنه تضايق من هذه الفرضية:

- هذيانك هذا لا يقوم على أساس. لقد أغفلت الكوكايين والشقة التي نُهبت ومقتل دريك ديكر! هذا دون الحديث عن العملاق الذي حاول قتلنا!

- هذا صحيح. نظريتي لا تفسر كلّ شيء.

52

دعته كيرين وايت للدخول وهي ترفع عينيها عن الملف:

- ادخل.

دخل سانتوس إلى مكتب عالمة الأنثربولوجيا القضائية. غادرت المرأة الشابة مكتبها لتضع كبسولة في آلة تحضير القهوة.

- هل تريد إكسبرسو؟

أجاب سانتوس وهو يتفرّس الصور المروعة التي تكسو الجدران. وجوه متورّمة ومجروحة، أجساد مشوّهة ومغروزة، أفواه شوّهتها صرخات الفزع...

أشاح ببصره عن هذه المناظر الشنيعة، وتفرّس المرأة بينما كانت تعدّ فنجانَي قهوة. كانت كيرين وايت تشبه بتنورتها الضيقة ونظارتيها الصغيرتين المدوّرتين، ومظهرها الصارم معلمة مدارس من الجيل القديم. رغم تلقيبها بالآنسة سكيلتون، فقد كانت تثير استيهامات كثير من زملائها. كانت مهمّتها في إدارة شرطة نيويورك هي التعرف على بقايا الجثث البشرية من عظام وأسنان وأجساد متفحّمة أو متحلِّلة، يعثر عليها في مسرح الجريمة. وهي مهمة ليست بالسهلة، ذلك أن المجرمين واعون بالتقدّم المستمر لوسائل الشرطة

العلمية، ومن ثمة فهم يعمدون إلى الإمعان في بتر أعضاء ضحاياهم وتقطيعهم حتى يتعذّر التعرُّف عليهم.

قالت وهي تنظر إلى ساعتها:

- ينتظرني تشريح جثة بعد عشر دقائق.

- ادخلي إلى لبّ الموضوع توّاً.

أطفأت كيرين وايت الأضواء. كان النهار قد بدأ يطلع، لكن الغرفة مظلمة بسبب تلبّد السماء بالسحب. ضغطت على زرّ جهاز التحكم عن بُعد لكي تشغّل شاشة مسطحة معلقة على الجدار. شغّلت بنقرة واحدة ديابوراما تعرض صور تشريح الماوري العملاق الذي ذبحه سبستيان لارابي في حانة دريك ديكر.

ينبعث من الجثة الممدّدة على طاولة الإينوكس تحت الضوء الساطع شيءٌ مقزّز، لكن سانتوس معتاد على هذه المناظر. تعجّب من عدد الوشوم التي تكسو جسده. لم تكن تقتصر على الوجه، بل كانت تغطي كلّ الجسد: دوائر حلزونية على الفخذين، رسم عشائري كبير على الظهر، خطوط وزخارف على الجذع.

وقفت كيرين أمام الشاشة وراحت تشرح:

- ظننت على غرارك في البداية أنّه ينحدر من أصول بولينيزية بسبب العلامات والندوب على الوجه.

- لكن الأمر ليس كذلك. . .

- نعم، الوشوم شبيهة بتلك الشائعة في بولينيزيا، لكنها لا تخضع لقواعد الوشوم البولينيزية الصارمة. أظن أنّ الأمر يتعلّق بوشوم عصابات.

يعرف سانتوس هذا النوع من الطقوس: يشير الوشم في أميركا

الوسطى إلى انتماء الشخص إلى بعض العصابات، وإلى ارتباطه الرمزي بالجماعة مدى الحياة.

صوّبت كيرين وايت جهاز التحكم عن بُعد نحو الشاشة فظهرت سلسلة جديدة من الصور.

- التقطت هذه الصور في سجون كاليفورنيا. هؤلاء السجناء ينتمون إلى عصابات مختلفة، لكنّنا نعثر في كلّ مرّة على المنطق نفسه: عندما يرتكب الأعضاء جرائم لصالح جماعاتهم، يكتسبون الحقّ في إضافة وشم جديد. فنجمة على الساعد مثلاً تشير إلى أنّ صاحبها قتل شخصاً، والنجمة نفسها على الجبين تشير إلى أنّه قتل شخصين على الأقل...

- يصير الجسد إذن أشبه بسيرة حياة إجرامية.

حرّكت كيرين رأسها مؤيّدة قبل أن تعمد إلى تكبير وشم من وشوم الضحية.

- صاحبنا يحمل رمز النجمة الحمراء الخماسية. الوشم عميق بحيث يتهيأ للناظر أنّه منقوش.

- هل قمت بتحليله؟

- بمنتهى الدقة. الأداة التي تُستعمل في هذا النوع من الجرح عبارة عن سكين تقليدي ذي شفرة قصيرة، لكن الأهمّ هو دراسة الصباغ الذي حُقن في الجلد. أظنّ أنّ الأمر يتعلّق بنوع خاص جدّاً من السخام، يحصلون عليه باستعمال صمغ شجرة توجد أساساً جنوب البرازيل: صنوبر بارانا.

انتظرت كيرينِ لثوانٍ قبل أن تنتقل إلى صور أخرى:

- عثرت على هذه الصور التي تعرِض سجناء بسجن ريو برانكو البرازيلي.

نهض سانتوس ودنا من الشاشة. رأى على أجساد السجناء الأشكال نفسها الموجودة على الماوري: الزخارف نفسها، النتوءات الحلزونية الشكل نفسها.

استرسلت كيرين:

- هناك قاسم مشترك بين هؤلاء السجناء: ينتمون جميعهم إلى كارتيل سيرينغييروس، الموجود بمنطقة آكر، وهي ولاية أمازونية صغيرة على الحدود بين البيرو وبوليفيا.

- سيرينغييروس؟!

- هو الاسم الذي كان يطلق سابقاً على العاملين في جمع المطاط الطبيعي. كانت آكر من أكبر منتجيه، وأظن أنّهم احتفظوا بالاسم.

أطفأت عالمة الأنثروبولوجيا الشاشة وأشعلت الأنوار. كانت مجموعة من الأسئلة لا تزال تؤرق سانتوس، لكن الآنسة سكيلتون صرفته بلا لباقة. قالت وهي ترافقه إلى الممرّ:

- الآن جاء دورك لتتصرّف أيّها الضابط!

ألفى سانتوس نفسه عند عتبة بناية مفوضية شرطة إريكسون بلايس. كانت الشمس ساطعة في سماء صافية، تنير أرصفة قنال ستريت. شعر بالرغبة في التفكير وقد شدهه ما سمع من كارين وايت. قصد حانة ستاربوكس المجاورة لمفوضية الشرطة، وطلب مشروباً ساخناً، ثمّ جلس إلى إحدى الموائد وراح يجترّ أفكاره.

كارتيل سيرينغييروس...

لم يسبق له أن سمع بهذا الاسم رغم قضائه عشر سنوات في شعبة مكافحة المخدرات، وهو أمر لا غرابة فيه: فعمله اليومي يتمثل

في إلقاء القبض على تجّار المخدرات المحليين، لا في تفكيك الشبكات الدولية. فتح حاسوبه المحمول وارتبط بشبكة ويفي التابعة للمؤسسة. قاده بحث قصير على الإنترنت إلى موقع لوس أنجلس تايمز. فقد ورد اسم الكارتيل في أحد المقالات الصادرة في الشهر الماضي.

سقوط كارتيل سيرينغييروس

فكّكت السلطات البرازيلية، بعد عامين من التحري، كارتيل مخدرات يتّخذ مقرّه بولاية آكر الأمازونية، في المنطقة الواقعة في أقصى غرب البلد. كانت نشاطات كارتيل سيرينغييروس، المنظّم على الطراز الكولومبي، تمتدّ لما يقارب عشرين ولاية من ولايات الفيدرالية. تفد الكوكايين إلى البرازيل من بوليفيا من طريق الجو، قبل أن تزوّد برّاً مدن البلد الكبرى.

كان يسيّر هذه الإمبراطورية الإجرامية بابلو «الإمبراطور»، المعتقل حالياً، وهو متّهم باغتيال ما يقارب خمسين خصماً، بطرق في منتهى القسوة.

كانت عصابة سيرينغييروس، التي استقرت منذ فترة طويلة بولاية آكر، تجلب كلّ سنة أكثر من خمسين طناً من الكوكايين عبر عدد من مهابط الطائرات السرية، المبثوثة في الأدغال الأمازونية.

كانت طائرات العصابة ذات المحركين تقوم برحلات لا تتوقف، تنقل آلاف الكيلوغرامات من الكوكايين الخالص، ثمّ تعمد إلى توزيعه على المدن الكبرى، لتزويد عدد كبير من تجار ريو وساوباولو.

لكي يبسط كارتيل باولو كاردوزا سيطرته، نسج مع مرور

الزمن، شبكة واسعة للرشوة وتبييض الأموال، تضمّ مئات الأشخاص، من بينهم برلمانيون وأرباب شركات وعمداء مدن، بل حتى كثير من عمداء الشرطة المدنيّة، المتّهمين بحفظ كثير من قضايا الاغتيالات التي نفذتها العصابة الإجرامية.

وقد أوقف العديد من أعضاء العصابة، فيما يجري البحث عن آخرين.

تمهّل سانتوس في بحثه عن معلومات إضافية لكي يستكمل الصورة التي استمدّها من المقال.

ما العمل الآن؟

حاول تنظيم أفكاره. كان واثقاً من أنه لن يحصل البتّة على ترخيص من رؤسائه للسفر إلى البرازيل قصد مواصلة تحريّاته. فالأمر تعترضه العديد من العراقيل الإدارية والدبلوماسية. بإمكانه نظرياً أن يتّصل بنظرائه البرازيليين، وأن يبعث لهم بتقرير، لكنه كان يعلم أن هذه الخطوة لن تعود بطائل.

راح يبحث رغم شعوره بالإحباط في مواقع العديد من شركات النقل الجوي. لم يكن الوصول إلى ريو برانكو عاصمة ولاية آكر بالأمر السهل. وما يعقّد الأمر أكثر هو عدم وجود رحلات مباشرة إليها من نيويورك: ينبغي التوقف ثلاث مرّات على الأقل. هذا فضلاً عن غلاء بطاقة السفر: ما يقارب 1800 دولار في رحلة منخفضة التكلفة، وهو مبلغ كان متوفراً بحسابه.

لم يتردّد كثيراً.

ملأت عليه صورة نيكي خياله من جديد، فركب سيارته وانطلق كما لو أنّ قوة خارجية توجّه أفعاله. توقّف أمام شقته لكي يجمع بعض الأغراض ثمّ قصد المطار.

53

أنزلت كونستوس زجاج سيارتها وأشهرت بطاقتها المهنية لحارس المؤسسة التابعة للولايات المتّحدة.

- العميدة لاغرانج من الفرقة الوطنية للبحث عن الفارين، افتح الباب من فضلك.

كانت إقامة الطلبة الواقعة في الدائرة الرابعة عشرة تقابل حديقة مونسوري وكذا محطة الترامواي الجديدة بـ «ماريشو». ركنت سيارتها أمام البناية الضخمة، المشيّدة بالقرميد الأحمر والحجر الأبيض، ثمّ دلفت إلى الردهة حيث يوجد الاستقبال، تتبَّعها نيكي وسبستيان، وسألت عن رقم غرفة سيمون تورنر.

صعد الثلاثة إلى الطابق الخامس حيث توجد مجموعة متراصّة من ورشات الفنانين والغرف المعزولة صوتياً، المخصّصة لطلبة الفنون التشكيلية والموسيقى.

دفعت كونستونس باب الورشة من دون أن تكلّف نفسها طرقه. كان يوجد بها شاب بالكاد يبلغ العشرين من عمره، سرّح شعره على نحو جذاب، وارتدى قميصاً من آخر طراز، وسروالاً ضيّقاً وحذاء رياضياً فاخراً. كان يهمّ بإغلاق حقيبة ضخمة موضوعة على سرير مبعثر. في حاجبه تخريم استقرت به حلقة ضخمة جعلته يبدو كمخنث.

سألته كونستونس وهي تشهر بطاقة الشرطة:

- هل تحتاج مساعدة أيّها الشاب الوسيم؟

فقد الطالب رباطة جأشه في لمح البصر. شحبت سحنته وبدا عليه الارتباك.

غمغم بينما أمسكت كونستونس بذراعه:

- أنا... مواطن أميركي.

علّقت وهي تجبره على الجلوس على مقعد المكتب:

- هذا كلام أفلام يا صغيري، أما في الواقع فالأمر مختلف.

لمّا أبصر لارابي خلف الشرطية، هتف مخاطباً نيكي:

- أقسم أنّني حاولت ثني جيريمي يا سيدتي!

دنا سبستيان من الفتى، وأحكم الإمساك بكتفه:

- حسناً يا بنيّ، نحن نصدّقك. اهدأ واحكِ لنا كل شيء من البداية، موافق؟

أفصح الطالب عمّا لديه بتلعثم. فجيريمي كما توقّعت كونستونس ناور لكي يجبر والديه على الالتقاء.

مضى سيمون يشرح:

- كان مقتنعاً بأنكما إن أمضيتما بضعة أيام معاً، ستنبعث من جديد مشاعركما. كان هذا اعتقاده منذ بضع سنوات، بل صارت هذه الفكرة تهوسه مؤخراً. ومنذ أن نجح في استمالة أخته إليه، وضمّها إلى جانبه، راح يبحث عن خطة تضطرّكما للسفر معاً إلى باريس.

شُدِه سبستيان وهو ينصت إلى كلام الشاب، لكنّه ظلّ يشكّك فيما سمع.

استطرد سيمون:

- الوسيلة الوحيدة لإذابة الخلافات المستحكمة بينكما هي إيهامكما بأنّه في خطر. هكذا راودته فكرة التظاهر بأنّه اختطف.

صمت لثوانٍ ليلتقط أنفاسه.

أمرته نيكي مستعجلة:

- واصل كلامك.

- استغلّ جيريمي عشقه للسينما لكي يجبركما على الاتحاد وضمّ جهودكما من أجل إنقاذه. تخيّل سيناريو محكماً بقرائنه ومساراته الخاطئة ومفاجآته.

تدخلت كونستونس قائلة:

- وأنت، ماذا كان دورك؟

- كان تدريبي في باريس مقرّراً منذ فترة طويلة، وقد اغتنم جيريمي الفرصة ليطلب منّي إخراج فيلم قصير يُظهر مشهد تعرّضه للاعتداء والاختطاف في المترو.

سأل سبستيان:

- أأنتَ من بعثت لنا بالفيلم؟

حرّك الشاب رأسه موافقاً، ثمّ أضاف:

- لكن الشخص الذي يظهر في التسجيل ليس جيريمي، بل جوليان، أحد أصدقائي. هو يشبه قليلاً ابنكما، وقد ارتدى ملابسه: القبعة والسترة والقميص والحذاء الرياضي، وبذلك وقعتما في الفخّ، أليس كذلك؟

ردّ سبستيان بغضب وهو يخضّ سيمون:

- أهذا يسليك أيّها الأبله؟

أحنقه ما سمع، وحاول أن يعيد ترتيب الأحداث حسب تعاقبها:

- أأنت مَن اتصلت بنا من حانة «لونغ أو شا»؟
- نعم، إنّها فكرة كامي. فكرة غريبة، أليس كذلك؟
سألته كونستونس بنفاد صبر:
- ثم ماذا وقع بعد ذلك؟
- اتّبعت تعليمات جيريمي حرفيّاً: أودعت حقيبته بمستودع محطّة الشمال، وعلّقت القفل في جسر الفنون، وأرسلت لكما الملابس التي طلبت منّي كامي شراءها.
فقد سبستيان صوابه:
- أشاركَت كامي أيضاً في هذه المسخرة؟!
هزّ سيمون كتفيه:
- هي التي استعملت بطاقة ائتمانك وأنتما لا تزالان في نيويورك، إذ حجزت غرفة في مونمارت وعشاء على ظهر السفينة على نهر السين.
ردّ سبستيان:
- كلام فارغ!
- إنّها الحقيقة. مَن سرق الكتاب الذي عثرت عليه في المكتبة من خزنتك وباعه على موقع إيباي؟
لم يجد سبستيان أمام الأدلة التي عرضها الشاب إلا أن لزم الصمت مذهولاً. ثمّ وضعت نيكي يدها على ذراع الشاب بهدوء:
- كيف ستنتهي هذه اللعبة؟
- عثرتما على الصورة، أليس كذلك؟
هزّت رأسها موافقة:
- أهي آخر قطعة من الأحجية؟
- لم يبقَ إلّا موعد حدائق مصانع القرميد. قرَّرت كامي

وجيريمي أن يلتقيا بكما هناك هذا المساء عند الساعة السادسة والنصف لكي يعترفا لكما بالحقيقة، ولكن. . .

صمت سيمون وراح يبحث عن العبارة المناسبة.

باغتته كونستونس:

- لكن ماذا؟

- لم يأتيا إلى باريس كما كان متوقّعاً. لقد مضى ما يقارب الأسبوع لم أتوصل بأخبار جيريمي، كما أنّ هاتف كامي يرنّ منذ يومين من دون ردّ.

أشار إليه سبستيان بسبابته مهدّداً وقد استشاط غضباً:

- حذار من أن تكذب علينا مرّة أخرى. . .

- أقسِمْ إنها الحقيقة!

- لكن ماذا عن المخدرات والقتل، أليست جزءاً من خطتكم؟

انقبضت أسارير سيمون، وسأل مفزوعاً:

- أيّ مخدرات؟ وأي قتل؟

54

أمسكَ سبستيان بخناقِ الفتى ورفعه عن مقعده وقد استبدّ به الغضب.

- عثرنا على كيلوغرام من الكوكايين في غرفة ابني، لا تزعم أنك تجهل هذا الأمر!

- ما هذا الكلام؟ أنا وجيريمي لا نقرب الكوكايين!

- على كلّ حال، أنت من يحثّه على لعب البوكر!

- وما العيب في ذلك؟ لعب البوكر ليس جريمة!

صاح به سبستيان وهو يمسك بخناقه ويضغطه إلى الجدار:

- ابني بالكاد في الخامسة عشرة من عمره أيّها النذل!

أخذت فرائص سيمون ترتعش، وانقبضت ملامح وجهه. أغلق عينيه وحمى وجهه بيديه خوفاً من تلقّي لكمة من سبستيان.

- كان عليك أن تحميه عوض أن تستدرجه إلى حانة دريك ديكر!

فتح سيمون عينيه وتمتم:

- دي. . . ديكر؟ صاحب بوميرانغ؟ لم يحتج إليّ جيريمي لكي يرتاد هذه الحانة! فقد التقى به في إحدى زنزانات مفوضية شرطة بوشويك لمّا اعتقله البوليس بتهمة سرقة درّاجة!

صعق سبستيان لسماع هذا الأمر، فحرّر سيمون من قبضته.
تدخلت نيكي:
- تقصد أنّ ديكر هو من عرض على جيريمي زيارة حانته للعب البوكر؟
- نعم، وقد ندم على ذلك. فقد جرَّدناه من أكثر من 5000 دولار، وبطريقة مشروعة!
استعاد سيمون شيئاً من هدوئه. سوّى قميصه واسترسل يقول:
- لم يتقبّل ديكر الإهانة. رفض أداء مستحقاتنا فقرّرنا أن نقتحم شقته، ونسرق الحقيبة التي كان يخفي فيها أمواله...
حقيبة البوكر المعدنية...
تبادلت نيكي وسبستيان نظرات مذهولة. أدركا بسرعة أنّ سرقة هذه الحقيبة هو سبب الكارثة.
هتف سبستيان:
- كانت تلك الحقيبة محمّلة بأكثر من كيلوغرام من المخدرات!
ردّ سيمون وقد ارتسمت على وجهه معالم الاستغراب:
- كلا...
قالت نيكي موضّحة:
- موضوعة في صفوف من الأقراص.
ردّ سيمون مدافعاً عن نفسه:
- لا علم لي بذلك! كلّ ما قصدناه نحن هو الحصول على المال الذي يدين به دريك لنا.
لزمت كونستونس الصمت طول هذه المدّة، محاولة إعادة ترتيب الأحداث في ذهنها. كانت عناصر اللغز تتّضح شيئاً فشيئاً، لكن كان ثمّة شيء يشغل بالها.

- قل يا سيمون، متى سرقت الحقيبة؟
فكّر الفتى، ثمّ قال:
- كان ذلك قبيل سفري إلى فرنسا، منذ أسبوعين.
- ألم تخافا انتقام ديكر عندما يكتشف السرقة؟
هزّ كتفيه، وقال باستهانة:
- لن يستطيع ذلك، فهو لا يعرف عنّا شيئاً باستثناء اسمينا الشخصيين. لا يعرف لقبينا ولا عنوانينا. تعداد ساكنة بروكلين مليونان ونصف، لن يستطيع العثور علينا بينهم!
- قلت لي إنّ ديكر مدين لكما بـ 5000 دولار، لكن كم كان المبلغ الذي عثرتما عليه في الحقيبة؟
- أكثر من 5000 دولار بقليل. ربّما 7000 دولار، اقتسمناها حسب ربح كلّ منّا. فرحنا لهذه العلاوة الصغيرة، لا سيما وأن جيريمي كان بحاجة إلى المال لتمويل خطته من أجل...
سكت برهة، فسألته كونستونس:
- من أجل ماذا؟
خفض الفتى بصره وقال بضيق:
- قبل اللحاق بكما إلى باريس، كان ينوي قضاء بضعة أيام في البرازيل...
البرازيل...
تبادلت نيكي وسبستيان من جديد نظرات قلقة. فقد ذكر لهما توماس، لمّا استجوباه قبل ذلك بيومين عند باب الثانوية، فتاة برازيلية تعرّف عليها جيريمي على الإنترنت.
قال سيمون:
- هذا ما قاله لي أنا أيضاً. كان يقضي لياليه في الدردشة مع

حسنائه البرازيلية. تعرّفتْ عليه في صفحة الرماة (شوترز) على الفيسبوك.

بادرته نيكي:

- فرقة الروك؟! كلامك لا يستقيم. فرقة (شوترز) فرقة صغيرة: تعزف في قاعات صغيرة شبه فارغة، وفي نوادٍ بئيسة. كيف لفتاة من ريو جانيرو أن تكون من عشاق هذه الفرقة المغمورة؟

أومأ سيمون بيده وهو يقول:

- اليوم بفضل الإنترنت...

تنهّد سبستيان تنهيدة عميقة وسأل بصوت هادئ رغم حنقه:

- هل تعرف هذه الفتاة؟

- تدعى فلافيا. يبدو من صورتها أنّها فتاة بالغة الإثارة.

- هل لديك صورها؟

أجاب وهو يخرج الحاسوب من حقيبته، ويحاول الارتباط بالشبكة الاجتماعية على الويفي.

- نعم، نشر جيريمي الكثير من صورها على الفيسبوك.

أدخل معطياته ثمّ جمع بعد نقرات عشر صور تعرض فتاة باهرة الجمال، شقراء، ذات عينين صافيتين وقوام خلاب وبشرة لوَّحتها الشمس.

تحلّق سبستيان ونيكي وكونستونس حول الشاشة، وراحوا يتفرّسون الفتاة البرازيلية الباهرة الجمال: وجه أشبه بعروس باربي، قدٌّ رشيق وصدر جذّاب، وشعر طويل متموّج. تظهر فلافيا في الصور في مختلف الأوضاع: على الشاطئ، وهي تلعب السورف، وهي تشرب كوكتيلاً، وهي تلعب الكرة الطائرة الشاطئية مع صديقاتها، بالبكيني فوق الرمال الساخنة...

- ماذا تعرف عن هذه الفتاة أيضاً؟

- أظن أنّها تشتغل في حانة بأحد الشواطئ. أخبرني جيريمي بأنّها تعلّقت به ودعته لقضاء بضعة أيام معها.

حرّك سبستيان رأسه. كم عمر هذه الفتاة الشقراء الجميلة؟ عشرون سنة؟ اثنتان وعشرون؟ كيف يصدّق أنّها وقعت في حبّ ابنه ذي الخمسة عشر ربيعاً؟

سألت نيكي:

- أين يقع هذا الشاطئ بالتحديد؟

ربتت كونستونس على الشاشة، وقالت:

- إيبانيما.

كبّرت جانباً من الصورة لتظهر في وسط الشاشة هضاب عالية خلف البحر والمساحة الرملية الممتدّة، وراحت تشرح:

- يدعى هذان الجبلان: الشقيقان. هناك تغرب الشمس في نهاية النهار. لقد قضيت هناك عطلتي قبل بضع سنوات.

عالجت الصورة، ونجحت في عزل اسم الحانة التي تشتغل فيها فلافيا، وذلك من خلال الكتابة التي تزين الشماسي. يسمى هذا المكان كاشاسا.

وسجلت ذلك في مذكّرتها. سألت نيكي:

- وكامي؟

حرّك سيمون رأسه وقال:

- لمّا انقطعت عنها أخبار جيريمي، قلقت، ورغبت في اللحاق به، وقد قلت لكم إنني لم أتوقف في الاتصال بها منذ أن سافرت إلى البرازيل...

شعر سبستيان بمزيج من الغضب والإحباط. تخيّل ابنه وابنته ضائعين في تلك المدينة الأخطبوطية العنيفة بلا مال ولا أهل.

اقترحت نيكي:

- لنسافر إلى ريو!

لكن كونستونس اعترضت على الفكرة قائلة:

- أخشى ألا يكون ذلك ممكناً. لا تنسيا أنكما هاربان ومطلوبان لدى لجنة تحقيق دولية. وقد أذيع إعلان القبض عليكما في كلّ مكان. لن تفلتا من شرطة «رواسي» بمجرّد حلولكما بالمطار...

قالت لها نيكي متوسّلة والدموع تكاد تنزل من عينيها:

- لعلكِ تستطيعين مساعدتنا. الأمر يتعلّق بابننا وابنتنا!

تنهّدت كونستونس والتفتت إلى النافذة. عادت بها الذاكرة إلى أربع وعشرين ساعة قبل تلك اللحظة، لمّا توصلت بملفّ لارابي على هاتفها. لم يخطر ببالها قطّ عندما قلّبت الصفحات الأولى أنّ هذا البحث الذي بدا روتينياً، سيأخذ هذا المنحى الفريد، لكن عليها أن تسلّم مع ذلك بأنّها تعاطفت مع هذه الأسرة الغريبة الأطوار. صدّقت قصتهما، وحاولت أن تساعدهما حتّى النهاية، غير أنّها تصطدم الآن بعقبة كأداء.

قالت معتذرة وهي تتلافى النظر إلى نيكي:

- آسفة، لا أستطيع مساعدتكما على مغادرة البلد.

55

- مرحباً بالسيدة لاغرانج، مرحباً بالسيد بوتساري.

تناولت نيكي وسبستيان بطاقتَي السفر، وسارا في إثر مضيفة شركة الخطوط الجوية عبر المتوسط TAM إلى أن بلغا مقعديهما في الحيّز المخصَّص لرجال الأعمال.

سلَّمها سبستيان سترته، لكنّه احتفظ بالجوازين الثمينين اللذين تسلّمهما من كونستونس ومساعدها.

قال متنهّداً وهو ينظر إلى الصورة على جواز نيكولا بوتساري:

- لا أكاد أصدّق أنّ الأمر تمّ بنجاح. هذا الشخص يصغرني بخمس عشرة سنة على الأقل!

أجابت نيكي:

- قد لا يكون سنّك بادياً عليك، لكن الأشخاص المكلّفين بالمراقبة لا يتقنون عملهم.

نظرت بتوجّس من خلال النافذة إلى معالم المدرج المتلألئة في الظلام. كان المطر يهطل بغزارة على باريس، ومدارج المطار مبلّلة.

لم يكن هذا الجو العاصف ليخفّف من خوفها المَرَضي من الطيران. بحثت في الحقيبة التي توضع رهن إشارة المسافرين، فعثرت على قناع النوم. وضعته على عينيها، ووضعت خوذة الآيباد

التي أخذتها من غرفة ابنها، وسوّت السماعتين على أذنيها آملة في أن يغالبها النوم في أقرب وقت ممكن.

عليها أن تسيطر على خوفها، وأن تدّخر طاقتها.

كانت تعلم أن الجولة التي تنتظرهما في البرازيل لن تكون سهلة. لقد ضيّعا وقتاً كثيراً في باريس. عليهما أن يتصرّفا بسرعة إن أرادا أن تكون لهما حظوظ في العثور على ابنيهما.

غلبها النعاس شيئاً فشيئاً على الأنغام الموسيقية، واستغرقت في نوم هو مزيج من الأحلام والذكريات. اكتسحها إحساس مبرّح: ذكرى مخاضها، فصالها الأول عن ابنيها، انفصام تلك العلاقة الانصهارية التي كانت تربطها بهما حين كانا جنينين يتحرّكان في أحشائها.

مضى أكثر من ساعتين على إقلاع طائرة البوينغ 777، وهي تحلّق الآن فوق جنوب البرتغال.

ناول سبستيان صينية الطعام للمضيفة لكي تخلّصه منها.

تمطّى فوق مقعده. تمنّى لو ينام، لكن التوتّر كان يمنعه. فتح الدليل السياحي الذي قدمته له كونستونس لكي يغالب الملل، وراح يقرأ الأسطر الأولى:

تشتهر ريو دي جانيرو، وهي مدينة ضخمة يبلغ تعداد سكانها اثني عشر مليون نسمة، بكرنفالها وشواطئها الرملية وأجوائها الاحتفالية، لكن هذه المدينة التي تعدُّ المدينة الثانية في البرازيل تنخرها الجريمة والعنف. فهي تعدّ من أخطر حواضر العالم، إذ تُرتكب فيها خمسة آلاف جريمة تقريباً في السنة. وهي نسبة تفوق ما يُرتكب في فرنسا بثلاثين ضعفاً...

شعر سبستيان بالقشعريرة، وقرّر الكفّ عن القراءة بسبب ما

أثارته هذه الأرقام المهولة في نفسه من قلق، ووضع الكتاب في الشبكة أمامه.

ليس هذا أوان الاستسلام للخوف.

وانصرف ذهنه بسرعة إلى كونستونس لاغرانج. فقد ساقها القدر لهما في غمرة هذه المحنة. لولاها لكانا الآن في السجن. لقد اقتنت لهما تذكرتَي سفر، ومنحتهما الوثائق والمال والهاتف. رقّ لحالها. أصابها المرض وهي في ريعان شبابها وعزّ عنفوانها. فهم من ملفّها الطبي، ومن حديثه معها، أن أيامها معدودة، وأن القدر حكم حكمه، ولا سبيل لتغييره.

صادف في حياته أناساً صارعوا الموت ببسالة وإقدام، ونجحوا في تكذيب توقعات الأطباء. ثمّة طبيب مشهور متخصّص في علاج السرطان بنيويورك عالج أمّه من ورم خبيث. قد لا يفيد هذا كونستونس في شيء، لكنّه وعد نفسه بأن يفعل ما بمستطاعه لمساعدتها.

بينما كان يفكر في ابنه، اجتاحه شعور هو مزيج من السخط والشفقة والإعجاب. سخط على تهوّر هذا المراهق الذي خاطر بحياته، وورّط أخته في هذه المطبّة، وشفقة على ما قاساه من معاناة صامتة بسبب انفصال والديه، لكنه شعر نحوه بالفخر أيضاً، فخر مبعثه إصرار جيريمي على جمع شمل الأسرة.

أغمض عينيه وراح يفكر في الأيام الثلاثة الماضية، فأصابه الدوار. لقد انقلبت حياته رأساً على عقب. انزاحت عن سكّتها، وصارت خارج السيطرة. لقد قضى اثنتين وسبعين ساعة مليئة بالقلق والخوف، لكنها مفعمة بالنشوة أيضاً.

لا سبيل لإنكار هذه الحقيقة، وهي حقيقة تفطن لها جيريمي:

لا يحسّ بنفسه حيّاً إلا مع نيكي. فهي تتمتّع بشخصية مركّبة، تجمع بين الملائكي والشيطاني، وتفيض بحيوية وشقاوة أقرب إلى طبع المراهقين، هذا علاوة على جاذبية تخلب لبّه. لقد نجحا، أمام هذا الخطر المحيق بابنهما، في تجاوز خلافاتهما، وتنسيق جهودهما رغم أحقاد الماضي، ورغم تنافر طبعَيْهما واستعدادهما المسبق للخصام. من الأكيد أنهما لا يستطيعان الحديث من دون شجار، وأنهما ما زالا يلوكان ما بينهما من ضغائن، على أن تفاعلاً كيميائياً حدث بينهما، يشبه ما وقع يوم لقائهما الأول. مزيج متفجّر من التآلف والشهوانية.

تبدو الحياة مع نيكي ككوميديا تهريج: هو كاري غرانت وهي كاترين هيبورن. كان عليه أن يسلّم بالواقع: لم يحب أحداً، ولم يضحك مع أحد، ولم يتشاحن مع أحد، ولم يتجادل مع أحد مثلما أحبها وضحك وتشاحن وتجادل معها. فهي تضفي على حياته اليومية ضرباً من الغنى والقوة، وتضيف لها الملح الذي يمنحها طعماً خاصاً.

تنهّد وسوّى جلسته في المقعد. كان ثمّة وامضُ إنذارٍ يومض في ذهنه كما لو كان يحذره. عليه، إنْ شاء العثور على ابنه وابنته، ألّا يقع في حبّ نيكي ثانية. فهي وإنْ كانت حليفته في المحنة، ينبغي ألا يَعزُب عن ذهنه أنها عدوّته الأولى.

الجزء الرابع

فتاة من إيبانيما

«مهما يكن الاتحاد بين كائنين، توجد بينهما دائماً هوة لا يمكن للحب [. . .] إلا أن يقيم جسراً واهياً فوقها».

هرمان هيس

56

Táxi! Táxi! Um táxi para levá-lo ao seu hotel! -

كان الجو مكهرباً، والضجيج عالياً، وكان عليهما الانتظار في طابور طويل لاستلام أمتعتهما واجتياز حاجز الجمارك. كان مطار غاليون رطباً وحاراً كموقد.

Táxi! Táxi! Um táxi para levá-lo ao seu hotel! -

تجاوز سبستيان ونيكي، وقد بدا عليهما التعب، حشداً من سائقي سيارات الأجرة كانوا ينادون السواح الواصلين، وتوجّها إلى أكشاك كراء السيارات. شعرا كما لو أن توقّفهما في ساوباولو دام دهراً. ذلك أنَّ رحلتهما تأخرت لأكثر من ساعتين ونصف بسبب ازدحام المدرجات. لم تحطّ بهما الطائرة إلا عند الحادية عشرة والنصف.

- سأستبدل أنا العملة بينما تتكلّف أنت بالسيارة.

هزّ سبستيان رأسه موافقاً، واصطفّ في الطابور. راح يقلّب رخصة سياقة بوتساري. ولمّا حلّ دوره، تردّد في اختيار الطراز. هل سيقتصر بحثهما على هذه المدينة، أم سيقودهما إلى أراض وعرة؟ وبما أنه لم يكن متأكّداً من شيء، اختار سيارة لاند روفر. كانت مركونة في الموقف تحت شمس حارقة.

نزع سترته وهو يتصبّب عرقاً ثمّ جلس إلى المقود بينما راحت نيكي تنصت إلى رسالة صوتية تركتها لها كونستونس على «هاتفها».

فقد حجزت لهما، حسبما اتفقوا عليه، غرفة بفندق في حي إيبانيما، قرب الشاطئ الذي تشتغل فيه فلافيا. وأخبرتها بأنّها لا تزال مستمرّة في التحقيق، وتمنّت لهما حظّاً سعيداً.

كان تعب السفر قد أخذ منهما مأخذه، لذلك لزما الصمت وهما يتابعان إشارات الطريق السيار (المنطقة الجنوبية - المركز - كوباكابانا) المتّجه إلى الجنوب، الرابط بين إيلها دو غوفيرنادور ومركز المدينة.

مسح سبستيان جبينه ودعك عينيه. كانت السماء تبدو واطئة وثقيلة، وكان الجو الملوّث الخانق يشوّش رؤيته ويلسع جفنيه. بدا له المنظر من خلال الزجاج الملوّن مضبّباً ومشبعاً بألوان تميل إلى البرتقالي.

ولم تكَد السيارة تقطع بضعة كيلومترات حتى ألفيا نفسيهما عالقين في زحمة المرور. استسلما وراحا يتأملان المشاهد المحيطة بهما. كانت تحفّ بالطريق السريع آلاف الدور المبنية بالطوب، تمتدّ على مدى البصر: بنايات من طابقين، تلوح على سطوحها حبال الغسيل، يخيّل لمن يراها أنها متداخلة ومتشابكة بحيث تشكل كتلاً متراكبة من المنازل. كانت الفافيلا أشبه بمتاهة ضخمة، يبدو معها الأفق كلوحة تكعيبية بألوان مائلة إلى الحمرة، ألوان الصدأ والشياط.

ثم بدأ النسيج الحضري يتغيّر تدريجياً. تركت الأحياء السكنية مكانها للبنايات الصناعية. كانت تظهر عند كلّ مائة متر ملصقات ضخمة تعلن عن وشاكة انطلاق منافسات كأس العالم لكرة القدم،

وكذا الألعاب الأولمبية سنة 2016. بدت المدينة كلّها كورش كبير بسبب هاتين التظاهرتين الرياضيتين. فخلف سياجات الأراضي الخلاء تظهر أوراش ضخمة شرعت في تغيير معالم المكان: جرافات تهدم الجدران القائمة، وحفارات آلية تقلب الأرض، وشاحنات في حركة دؤوب لا تنقطع.

ثمّ عبرت السيارة غابة من ناطحات السحاب بحي الأعمال قبل أن تصل إلى المنطقة الجنوبية من المدينة حيث يتركّز معظم الفنادق والمراكز التجارية. هنا تستعيد العاصمة البرازيلية مظهر البطاقات البريدية: مظهر مدينة ساحرة محاذية للبحر تحاصرها الهضاب والجبال.

وبلغت سيارة اللاند روفر أخيراً الشاطئ. عبرت ببطء أفيينيدا فييرا سوتو.

قالت نيكي وهي تشير إلى بناية ذات واجهة مدهشة من الزجاج والخشب والرخام.

- ها هي البناية!

تركا السيارة الرباعية الدفع للخادم، ودلفا إلى الفندق. كان فندقاً فاخراً وراقياً، مؤثّثاً بأسلوب يعود إلى سنوات الخمسينيات والستينيات، ويوحي بأجواء ماد مان.

يتمتّع المكان بسحر خاص: طوب إنجليزي وموسيقى هادئة وأرضية خشبية وأرائك منجّدة ومكتبة من الطراز القديم.

وقفا متوتّرين عند كونتوار مصنوع من جذع شجرة أمازونية، وتسجّلا باسم كونستونس لاغرانج ونيكولا بوتساري.

لم يمكثا في الغرفة إلا برهة التقطا فيها أنفاسهما وهما يراقبان من شرفة الغرفة الأمواج العاتية المتكسرة على الشاطئ. كانت النشرة

الإعلانية للفندق تشير إلى أنّ اسم إيبانيما مستمدّ من لهجة هندية أميركية ومعناه «المياه الخطرة». لم يكن هذا الاسم يبعث على التفاؤل، لكنهما قررا عدم إيلائه كبير اهتمام. هكذا غادرا الغرفة وهما مصمّمان على العثور على «فتاة إيبانيما».

ما كادا يخطوان خطوة بالخارج حتى شعرا بالحرارة من جديد، وزكمتهما غازات عادمات السيارات، وصكّ سمعهما صخب حركة المرور. كان ثمّة عدد كبير من ممارسي رياضة العدو والمتزلجين وراكبي الدراجات يزاحمون المارة على الرصيف. كما أن الحي حافل بالمتاجر الفاخرة والقاعات الرياضية ومصحات جراحة التجميل.

عبرت نيكي وسبستيان الشارع باتجاه المنتزه المحفوف بالنخيل المحاذي للشاطئ. كانت الساحة حاشدة بالباعة المتجوّلين، يحاول كلٌّ منهم جلب انتباه المارة. وهم يبيعون ماء جوز الهند والبطيخ والبسكويت المحمّص وماء جوز الهند. كلّ ذلك معروض في أكواخ أو مشحون في برادات أو في أوعية معدنية. كما يعرضون كباب العجل المتبّل أيضاً.

نزل الأميركيان أدراج سلّم صغير يفضي إلى الشاطئ. تمتدّ إيبانيما، التي تبدو أرقى من جارتها كوباكابانا، على شريط يتجاوز ثلاثة كيلومترات من الرمل الأبيض المتوهّج. كان المكان في وقت الغذاء مزدحماً، والمحيط متلألئاً، يبدو كأنه يهتزّ بفعل الأمواج العالية التي ترتطم بالشاطئ.

غادرت نيكي وسبستيان الشاطئ الخاص الذي يضعه الفندق رهن إشارة زبائنه، وتقدّما قاصدين الحانة التي تعمل بها فلافيا.

كان ينتصب على الشاطئ كل سبعمائة متر برج مراقبة بالغ العلو، وهي أبراج يستعملها المستحمّون كمعالم لضرب مواعيدهم. ويبدو أنّ البرج الثامن، الذي يزيّنه علم بألوان قوس قزح، كان ملتقى المخنثين. تجاوزته نيكي وسبستيان وواصلا سيرهما. كان الرذاذ يصلهما من المحيط، وأبصرا في البعيد طيف جزر كاغاراس المتلألئة، وكذا الجبلين الشقيقين اللذين سبق أن أبصراهما على صورة سيمون.

شقّا طريقهما على الرمال المترامية بين لاعبي كرة القدم والكرة الطائرة الشاطئية. كان الشاطئ يعجّ بالحركة، أشبه بمنصة لعرض الملابس الداخلية وملابس السباحة. ذلك أن إيبانيما حافلة بالشهوانية والإثارة الجنسية. تستعرض الفتيات الرشيقات والنحيفات بتباهٍ أثداءهن المستعارة وأردافهن العارية التي لا تستر منها البيكينيات شيئاً. كل ذلك تحت نظرات لاعبي السورف ذوي الأجساد المنحوتة المدهونة بزيت التسفيع.

بلغا البرج التاسع الذي يعدّ فيما يظهر مكان تجمّع الموسرين من شباب ريو.

قالت نيكي:

- حسناً، نحن نبحث إذن عن حسناء شقراء، نصف عارية، تدعى فيلافيا، تقدم الكوكتيل في حانة تسمّى...

فقاطعها سبستيان وهو يشير إلى حانة فاخرة:

- الكاشاسا.

كان تصميمها من طراز تصميم حانات الشواطئ، وهي مخصّصة للزبائن الموسورين الذين يرتدون ملابس الماركات العالمية ويضعون نظارات شمسية غالية، ويحتسون الموخيتوس بستين ريالاً

وهم ينصتون إلى روميكسات بوسّا نوفا، ويتفرّسون خادمات الحانة واحدة واحدة: كلهنّ متشابهات: في العشرين من العمر، ذوات قدود ساحرة، ترتدين سراويل بالغة القصر، وتكشفن عن صدور غاية في الإثارة...

بادرتهما إحدى الخادمات قائلة:

- Hello, my name is Betina. May I help you?[1]

أجابتها نيكي:

- نحن نبحث عن فتاة تدعى فلافيا...

- فلافيا؟ هي تعمل هنا، لكنها لم تحضُر اليوم.

- هل تعرفين عنوانها؟

- كلا، ولكن يمكن أن أسأل عنه.

نادت على زميلتها، وهي فتاة شقراء بعينين صافيتين وابتسامة ساحرة.

- أقدّم لكما كريستينا. هي تسكن في الحي نفسه الذي تسكنه فلافيا.

حيّتهما الفتاة البرازيلية. رغم جمالها الساحر، كانت تظهر عليها مسحة من الحزن.

أخبرتهما قائلة:

- لم تأت فلافيا إلى العمل منذ ثلاثة أيام.

- هل تعرفين السبب؟

- كلا. عادة ما ننزل معاً عندما تكون أوقات عملنا متزامنة، لكنها غير موجودة في بيتها هذه الأيام.

- إلى أين ذهبت؟

---

(1) مرحباً، اسمي بيتينا. أيمكنني المساعدة؟

أشارت إلى الهضاب إشارة مبهمة وأجابت:

- إلى بيت والديها بروسينها.

- هل حاولت الاتصال بها هاتفياً؟

- نعم، لكن أجابني جهاز الرد الأوتوماتيكي.

أخرجت نيكي صورة جيريمي من محفظتها وسألت:

- هل سبق لك أن رأيت هذا الولد؟

حرّكت كريستينا رأسها:

- كلا، لكن فلافيا تعاشر كثيراً من الأولاد...

- هل بالإمكان أن تمدّينا بعنوانها؟ نودّ أن نستفسر والديها.

جفلت الشابة البرازيلية وقالت:

- روسينها ليست حيّاً سياحياً! لن تستطيعا زيارتها بمفردكما.

ألحّ سبستيان في السؤال، لكنّها ثبتت على إنكارها، فاقترحت عليها نيكي:

- ألا تستطيعين مرافقتنا؟

لم يرُق هذا الطلب لكريستينا:

- مستحيل، فأنا بالكاد بدأت العمل هنا.

- نرجوك يا كريستينا! سنعوّضك عن يوم العمل. إنْ كانت فلافيا صديقتك، فينبغي أن تساعديها!

نجحت المحاولة. يبدو أن شعوراً بالذنب بدأ يراود كريستينا.

- حسناً، انتظراني.

ذهبت لتستأذن رئيسها، وهو شاب كان يحتسي كوكتيلاً برازيلياً مع زبائن أكبر سنّاً منه.

قالت عند عودتها:

- موافقة، هل لديكما سيارة؟

57

رغم ثقل سيارة اللاند روفر، فقد صعدت الطريق المتعرّجة المفضية إلى الفافيلا بسلاسة. كان سبستيان هو من يقود، وكان يتّبع حرفياً توجيهات كريستينا الجالسة في المقعد الخلفي. قادتهم البرازيلية الشابة من الشاطئ وعبرت بهما المركّبات السكنية الفاخرة الواقعة في المنطقة الجنوبية قبل أن يجتازوا الإسترادا دا غافييا، وهي طريق ضيقة تتعرّج على حافة التلّ، الطريق الوحيدة التي تقود إلى أكبر فافيلا بريو دي جانيرو.

كانت روسينها، شأنها شأن معظم أحياء ريو الشعبية الفقيرة، تقع على الموروس، وهي تلال عظيمة تشرف على المدينة. أطلّت نيكي من نافذة السيارة لترى آلاف المساكن المتشبّثة بالمنحدرات. بيوت صغيرة متشابكة تسدّ الأفق بطوبها الأحمر بحيث يتهيّأ لمن يراها أنّها توشك على السقوط.

وبينما تركوا الطريق المعبدة[1] ليبتعدوا من الأحياء القريبة من الشاطئ ويتوغّلوا في التلال. كانت المفارقة صارخة: أجمل المناظر

---

(1) الطرق المعبدة (أي الأحياء القريبة من البحر التي يسكنها الموسورون) تقابل أحياناً في ريو الهضاب التي توجد بها الأحياء الفقيرة (المؤلف).

المشرفة على المدينة تقع في الفافيلا. تقدّم هذه الأحياء المعلقة في الأعالي الوعرة مناظر بانورامية لشواطئ ليبلون وإيبانيما، لكنها أيضاً تحظى بموقع حصين، ونقطة عالية مثالية لمراقبة المدينة الواقعة في الأسفل، وهو ما يفسر تحصّن مهربي المخدرات بها.

خفّف سبستيان من سرعة السيارة. لم يكن بعيداً عن أبواب الفافيلا، لكنّ منعرجاً شديداً أشبه بعنق زجاجة كان يعيق حركة السير. وحدها الدراجات النارية القديمة، ودراجات الأجرة الصاخبة تستطيع شقّ طريقها وسط الزحام.

قالت كريستينا ناصحة:

- الأفضل أن تركن السيارة ها هنا.

ركن سبستيان السيارة على جانب الطريق، ثمّ ترجّلوا وقطعوا المسافة القصيرة التي كانت تفصلهم عن مدخل روسينها مشياً.

لم يكن يظهر على الفافيلا لأوّل وهلة البؤس الذي تصفه بها الدلائل السياحية. وبينما كانت نيكي وسبستيان يتوقعان أن يجتازا مكاناً خطيراً، إذا بهما يجدا نفسيهما في حي شعبي ودود. الأزقة نظيفة، والمنازل من الإسمنت، مرتبطة بشبكة ماء الشرب والكهرباء وقنوات الكابل. صحيح أن بعض الخربشات تكسو البنايات الصغيرة التي قد يصل ارتفاعها إلى ثلاثة طوابق، لكنها كانت ملوّنة بشكل يبعث البهجة في النفس ويروق المزاج.

علّقت كريستينا قائلة:

- الناس الذين يقطنون هنا عمّال شرفاء: مربّيات أطفال، خادمات بيوت، سائقو حافلات، ممرّضات، بل حتّى أساتذة...

تعرّف سبستيان ونيكي على روائح التوابل والكباب والذرة التي

اكتشفاها في الشاطئ. كان الجوّ المخيّم أميل إلى الهدوء، يتراوح بين الفتور وشيء من الاضطراب. تنبعث من البيوت موسيقى باي فانك[1] صاخبة. كان ثمّة صبيان في الشارع يتقاذفون الكرة متخيّلين أنفسهم نايمار. أما في شرفات المقاهي، فجلس رجال إلى الموائد يرتشفون الجعة بينما انشغلت النساء، ومنهن شابات، برعاية رضّعهن أو رحن تثرثرن في النوافذ.

قالت كريستينا معتذرة وهي تمرّ أمام لوحة جدارية ضخمة ملوّنة، عليها آثار طلقات نارية:

- لقد حلّ رجال الجيش والشرطة بالحي مؤخراً.

ثمّ تركوا المحاور الرئيسة لينخرطوا في متاهة من الأزقة الضيقة الشديدة الانحدار التي تنتهي بأدراج. وشيئاً فشيئاً أخذت أجواء الفافيلا تتغيّر لتصير أقل جاذبية. صارت الدور أشبه بقوارب سدّت ثقوبها بعد غرقها، والأزبال متراكمة أمام الأبواب، والأسلاك الكهربائية المتشابكة متدليّة فوق الرؤوس، تكشف عن الارتباطات الفوضوية بالشبكة. وجد سبستيان ونيكي، وقد بدأ يسيطر عليهما القلق، صعوبة في شقّ طريقهما وسط حشد الأطفال الذين ازدحموا حولهما يشحذون.

لم تعد للأزقة أسماء، ولا للمنازل أرقام. كانت البنايات الكالحة تشرف على المجاري المكشوفة، وبرك الماء تملأ أرجاء الشارع جاذبة سُحباً من البعوض.

علّقت كريستينا:

---

(1) مزيج من الراب والفانك، شائع في الأحياء الشعبية بريو جانيرو، يستخدم كلمات خشنة (المؤلف).

- لعلّ البلدية تكتفي بجمع النفايات من الشوارع الرئيسة فقط.

قادتهما الشابة البرازيلية بين الدروب وهم يحثون الخطى. وبينما هم يسيرون، كانت الجرذان تفرّ بين أقدامهم. وما هي إلا دقائق حتى بلغوا منحدراً آخر من التلّ، تحتلّه دور أسوأ حالاً.

قالت وهي تنقر على زجاج نافذة إحدى الشقق المتداعية.

- هذا هو المنزل.

بعد لحظة انتظار قصيرة، فتحت الباب امرأة مقوّسة الظهر.

فقالت كريستينا:

- هذه هي والدة فلافيا.

رغم الحرارة كانت تتلفّع بوشاح سميك.

- Bom dia, Senhora Fontana. Você já viu Flavia?

حيَّتها العجوز قبل أن تجيب عن سؤالها وهي لا تزال تطلّ من شقّ الباب:

- Olá, Cristina

التفتت كريستينا نحو لارابي لكي تترجم لهما ما تقول.

- السيدة فونتانا لم تعلم شيئاً عن ابنتها منذ يومين و. . .

لم تترك العجوز كريستينا تنهي ترجمتها واستأنفت كلامها. لم يعد بوسع نيكي وسبستيان سوى التفرُّج على ما يدور بين المرأتين بسبب جهلهما باللغة البرتغالية.

تساءلت نيكي وهي تتأمّل المرأة البرازيلية العجوز: كيف يمكن أن يكون لهذه المرأة فتاة في العشرين من العمر؟ كان وجهها مسفوعاً، تعبره أخاديد عميقة، شوّهه القلق والسهاد. كانت تبدو كما لو أنها في السبعين من العمر. كما أنّ هذرها الذي تتخلّله تأوهات نائحة لم يكن يُطاق.

اضطرّت كريستينا إلى إسكاتها لكي تشرح:

- قالت إن فلافيا آوَت في بيتها بداية هذا الأسبوع شاباً أميركياً وأخته...

فتحت نيكي محفظتها لكي تريها صورة التوأم، فبادرتها العجوز وقد تعرّفت عليهما:

- Eles são os únicos! Eles são os únicos!

شعر سبستيان بضربات قلبه تتسارع. ها هو يقترب من الهدف على نحو غير مسبوق... سارع إلى سؤالها:

- إلى أين ذهبوا؟

استطردت كريستينا قائلة:

- حلّ بالبيت أوّل أمس عند الفجر رجال مسلحون واختطفوا فلافيا وضيفيها.

- رجال؟! من هم هؤلاء الرجال؟

فصاحت العجوز:

- Os Seringueiros! Os Seringueiros!

راح سبستيان ونيكي يحدّقان في كريستينا، فغمغمت:

- لا أعرف من هم السيرينغييروس.

أثار الصراخ انتباه الجارات الفضوليات، فتركن مسلسلاتهن التلفزيونية المفضلة، وتسمّرن على النوافذ للاستمتاع بالمشهد الصاخب في الشارع. وشرع رجال يزيحون الأطفال من طريقهم لكي يستخبروا عن الأمر.

تبادلت كريستينا مع العجوز بضع كلمات، ثمّ قالت لهما:

- لقد قبلت بالسماح لكما بمعاينة غرفة فلافيا. يبدو أن ابنيكما تركا أغراضهما.

تبع سبستيان ونيكي العجوز وهما في غاية التوتر. كانت جدران المنزل الفاصلة عبارة عن عوازل خشبية، ولم تكن غرفة فلافيا غير غرفة مشتركة بها سرير من طابقين. أبصر سبستيان على أحد السريرين حقيبة كامي الجلدية البنيّة التي كانت تستعملها في تنقلاتها العارضة. ارتمى عليها بلهفة، وأخرج ما بداخلها: سروال جينز، قميصان، ألبسة داخلية، حقيبة حمام. لم تكن تحتوي على شيء ذي بال باستثناء هاتفها النقال. حاول إشعاله، لكنّ البطارية كانت فارغة، والشاحن لا أثر له. وضع الهاتف في جيبه لكي يفحصه لاحقاً. مهما يكن، فقد عثرا على خيط قد يقود إلى الهدف. من المؤكّد إذن أنهما كانا مع هذه الفتاة البرازيلية في بيتها قبل أن يختطفهما السيرينغييروس.

استأنفت العجوز نواحها، ومضت تصرخ وتنتحب وتُشهِد الرب على حالها، ثمّ بدأت تتوعّد. نصحت كريستينا الزوجين بمغادرة البيت. بدأت المشاعر في الخارج تلتهب أيضاً. ذلك أن بعض الجيران الذين لا صلة لهم بالقضية اقتربوا وبدؤوا يتسلّون بصب الزيت على النار. كما أنّ حشداً صغيراً بدأ يزمجر أمام البيت. وصار التوتر بادياً، والعدوانية ظاهرة. أدركا أنّ وجودهما لم يعُد مرغوباً فيه بالحي.

وما لبثت العجوز أن قصدتهما مباشرة. ترجمت لهما كريستينا كلامها:

- تقول إن ابنكما وابنتكما هما من تسبّبا في اختطاف فلافيا. وهي تتطيّر من مجيئكما إلى بيتها.

بدأت الأجواء تتوتّر، ذلك أن شخصاً ثملاً من سكان الفافيلا

دفع نيكي فجأة، وكاد سبستيان يُصاب بدلو نفايات رماه به أحدهم من إحدى النوافذ.

- سأحاول تهدئة روعهم. سأعتمد على نفسي في العودة إلى عملي. هيّا انصرفا!

- شكراً يا كريستينا، ولكن...

فكرّرت تقول:

- انصرفا! أظنّكما لا تعيان خطورة الموقف...

لم يجد سبستيان ونيكي بدّاً من الرضوخ لرغبة الشابة البرازيلية، وغادرا المكان تحت التهديد والشتائم. عادا أدراجهما مهرولين، محاولين العثور على طريقهما في متاهة أزقة الفافيلا الضيقة الشديدة الانحدار.

ولم يترك بعض سكان الحي ملاحقتهما إلا لمّا بلغا المنعرج الذي ركنا فيه السيارة، لكنها لم تكن في مكانها.

58

القيظ والغبار والتعب والخوف.

مشى سبستيان ونيكي لأكثر من ساعة قبل أن يعثرا على سائق سيارة أجرة استغلّ جزعهما ليسلبهما مائتي ريال مقابل إعادتهما إلى الفندق. ولما وصلا أخيراً إلى غرفتهما، كانا منهكين ويتصبّبان عرقاً.

وبينما كانت نيكي تغتسل، اتّصل سبستيان بالاستقبال ليطلب موافاته بكابل يشحن به هاتف كامي. وما هي إلا هنيهة حتى أتاه الخادم به. وصل الجهاز بالتيار، وانتظر بضع دقائق قبل أن يستطيع تشغيله. ذلك أن البطارية كانت فارغة تماماً.

راح يقضم أظافره منتظراً، وخفض المكيّف ثمّ تناول الجوّال ليركّب الرقم السري. هنّأ نفسه على أنه يعرفه: لقد تيقّن اليوم من جدوى الشهور التي قضاها في التجسُّس على ابنته. وساوره فجأة ألم حادّ في صدره. ذلك أنّ المسافة الطويلة التي قطعها مشياً في طريق العودة إلى الفندق أيقظت جراحه. كان الألم من الشدّة بحيث شلّ حركته، وكسر ظهره وصلّب رقبته. كانت ضلاعه لا تزال تحمل آثار اللكمات التي تلقاها من يوسف ورفاقه. رفع بصره، فبدت له صورته مقزّزة في المرآة: لحية شعثاء وشعر متلاصق من العرق وعينان

خابيتان. كان قميصه ملتصقاً بجسده ومبللاً، شحب لونه من العرق. راعته هذه الصورة فهرب إلى الحمام.

كانت نيكي تهمّ بمغادرة الحمام وقد أحاطت صدرها بمنشفة، وكان شعرها المبلل والمتشابك ينسدل على كتفيها في جدائل طويلة متلاصقة. انتفضت، فتوقّع سبستيان سيلاً من العتاب: «كان بوسعك أن تطرق الباب قبل أن تدخل!»، «تتصرّف كما لو كنت في بيتك!» لكن عوض ذلك تقدّمت منه وراحت تحدّق فيه.

كانت عيناها الخضراوان تلتمعان كبركتي نفط، وكان البخار ما زال ينبعث من وجهها الناصع البياض الذي تناثرت على صفحته نقط نمش صغيرة.

سحبها من رقبتها بحركة مفاجئة أسقطت عنها المنشفة، وكشفت عن جسدها العاري. ثمّ طبع على فمها قبلة.

لم تُبدِ أيّ مقاومة، واستسلمت لهذه القبلة المغتصبة. عبرت سبستيان موجة من الرغبة، شعر بها تسري في جسده كلذعة. وبينما بدأت أنفاسهما تمتزج، تذكّر طعم فم زوجته ونضارة بشرتها، فالتحم الماضي بالحاضر، وطفت على السطح من جديد أحاسيس قديمة، حرّرت بداخله دفقاً من الذكريات المتضاربة، مضت تفرقع كومضات آلة تصوير.

تشبّث كل منهما بالآخر في هذه المواجهة الجسدية المتعجّلة، في صراع محتدم يتداخل فيه العزاء بالخوف. ارتخت عضلاتهما، واهتزّ قلباهما. سقطت المحظورات، وتحرّرت الصلات التي زجّت بهما منذ سنين في الحرمان والضغينة. وشيئاً فشيئاً بدآ يستكينان ويفقدان السيطرة على نفسيهما، متّجهين نحو. . .

اخترقت أنغام موسيقية صافية وحادّة جسديهما، معلنة عن نهاية عناقهما.

إنّه هاتف كامي!

أعادهما صوت وصول رسالة نصية إلى الواقع بصورة فظة، فعادا إلى رشدهما على الفور. زرّر سبستيان قميصه والتقطت نيكي منشفتها، واندفعا إلى الغرفة حيث عكفا على الهاتف. كانت على الشاشة إشارة تعلن عن وصول رسالتين عبارة عن صورتين يجري تحميلهما ببطء.

صورتان يظهر فيهما جيريمي وكامي مقيّدين ومكمّمين، بعث بهما الرقم الهاتفي نفسه. ثمّ وصلت رسالة ثالثة:

هل ترغبان في رؤية ابنيكما على قيد الحياة؟

تبادلا نظرات مفزوعة من هول الصدمة، وقبل أن يجدا الوقت لتحرير الجواب، جاءتهما رسالة أخرى لتمعن في الضغط:

أجيبا بنعم أو لا؟

سارعت نيكي إلى تناول الهاتف وأجابت:

نعم.

واسترسلت المحادثة النصية:

في هذه الحالة، نلتقي عند الساعة الثالثة صباحاً بمرفأ ماناوس التجاري، قرب حي لاكوستر. احضرا بمفردكما، واجلبا معكما البطاقة ولا تخبرا أحداً، وإلا . . .

هتف سبستيان:

- البطاقة؟ أي بطاقة يقصدون؟

كتبت نيكي على لوحة مفاتيح الهاتف:

أي بطاقة؟

لم يأتِ الجواب سريعاً. انتظرا طويلاً وقد جمّدهما الخوف. تسمّرا وقد غمر الغرفة ضوء عجيب. كانت الشمس تغرب، والسماء والشاطئ والعمارات تنغمس في سمفونية ألوان تتدرّج عبر كلّ الشيّات، وتمتدّ من الوردي الباهت إلى الأحمر القاني.

بعد دقيقتين، بعثت لهم نيكي رسالة أخرى:

أي بطاقة تقصدون؟

مرّت الثواني ثقيلة وقد انقطعت أنفاسهما وهما يترقّبان جواباً لن يصل أبداً.

بعد وقت قصير، صعدت من الشاطئ ضجّة مفاجئة: السوّاح وسكّان ريو يصفقون، وهو ديدنهم كلّ مساء عندما تميل الشمس للمغيب خلف الشقيقين. إنها عادة فريدة لشكر الشمس بعد يوم جميل.

حاول سبستيان أن يتّصل بالرقم بعدما أرهقه الانتظار، لكن الهاتف كان يرنّ من دون مجيب. من المؤكد فيما يبدو أنهم يعرفون شيئاً هما يجهلانه. فكّر بصوت مسموع:

- أي بطاقة يقصدون؟ بطاقة إلكترونية؟ بطاقة بنكية؟ بطاقة بريدية؟ أم تراهم يقصدون خريطة[1]؟

كانت نيكي قد نشرت على السرير الخريطة التي يضعها الفندق رهن إشارة زبائنه، ووضعت علامة على مكان الموعد الذي عيّنه الخاطفون. فماناوس هي أكبر مدينة أمازونية، تقع وسط أكبر غابة في المعمور، وتبعد بثلاثة آلاف كيلومتر عن ريو.

نظر سبستيان إلى الساعة الجدارية. كانت تشير إلى الثامنة

---

(1) تدل كلمة carte في الفرنسية على بطاقة أو خريطة تبعاً للسياق (المترجم).

مساء. كيف لهما أن يصلا إلى ماناوس قبل الثالثة صباحاً؟ اتّصل مع ذلك بالاستقبال ليطلب مواقيت الرحلات الجوية بين ريو والعاصمة الأمازونية.

بعد دقائق من الانتظار، أخبره الخادم بأنّ ثمّة رحلة مبرمجة عند الساعة العاشرة وثمانٍ وثلاثين دقيقة.

حجزا بطاقتَي سفر من دون تردّد، وطلبا سيارة أجرة تقلّهما إلى المطار.

59

«مساء الخير أيها السيدات والسادة. يتحدث إليكم قبطان الطائرة خوسيه لويس ماشادو. أنا سعيد باستقبالكم على متن طائرة الإيرباص أ 320، المتوجهة إلى ماناوس. ستستغرق الرحلة أربع ساعات وخمس عشرة دقيقة تقريباً. لقد انتهى صعود الركاب. الإقلاع الذي كان مقرّراً عند الساعة العاشرة وثمان وثلاثين دقيقة سيتأخر لنصف ساعة بسبب...»

تنهّدت نيكي وهي تنظر من خلال النافذة. كانت الأشغال على أشدّها في المكان المخصّص لوقوف طائرات الرحلات المحليّة بسبب الاستعدادات للمنافسات الرياضية الدولية المرتقبة. كما كانت عشرات الطائرات الضخمة مصطفّة على المدرج تنتظر إشارة الإقلاع.

أغلقت نيكي عينيها ووضعت السماعات على أذنيها بحركة آلية. كانت تلك هي المرة الثالثة التي تستقلّ فيها الطائرة في غضون ثلاثة أيام، ممّا جعل قلقها يتزايد عند كل رحلة. رفعت من صوت السماعات لعلّ الموسيقى تخفّف من خوفها. كانت روحها مشوّشة تماماً، وعقلها تحاصره، بفعل التعب الجسدي والذهني، صور وإحساسات متضاربة: ذكرى العناق القصير بينها وبين سبستيان التي

ما زالت طريّة، الخطر المحدق بابنيهما، الخوف ممّا ينتظرهما في الأمازون.

ولمّا تأخرت الطائرة عن موعد إقلاعها، فتحت نيكي عينيها وقد أزعجتها الموسيقى المنبعثة من سماعتيها. كانت تعرف هذا المقطع... مزيج من الإلكترو والهيب هوب البرازيلي. إنها الموسيقى نفسها التي سمعتها بالفافيلا! الموسيقى البرازيلية نفسها التي كانت تتسلل من النوافذ. واستعرضت في ذهنها العناوين: خليط من السامبا والبوسّا وروميكس الريغي وعناوين من الراب باللغة البرتغالية.

ليست هذه آيباد ابنها! لماذا لم تنتبه لذلك من قبل؟

نزعت السماعتين بانفعال، وراحت تفتّش في الملفات التي يتضمّنها الجهاز: موسيقى، فيديوهات، صور، ألعاب، أرقام هاتفية... لم تعثر على شيء ذي بال حتى فتحت الملف الأخير. كان يحتوي على مستند PDF ضخم.

قالت وهي تعرض ما عثرت عليه على سبستيان:

- انظر، لقد اكتشفت شيئاً!

نظر إلى الجهاز، لكن قراءة المستند كانت متعذرة بسبب صغر الشاشة.

فعلّق قائلاً:

- ينبغي وصله بحاسوب.

فكّ حزام السلامة، وراح يتجوّل في الطائرة إلى أن عثر على رجل أعمال مستغرقاً في النقر على حاسوبه النقال. أقنعه بأنْ يعيره الحاسوب لدقائق. عاد إلى مقعده ووصل به الآيباد ثمّ بدا له المستنَد على المكتب فنقر عليه ليفتحه.

كانت الصور الأولى مذهلة، تعرِض هيكل طائرة أحادية السطح متوارية تقريباً في قلب غابة الأمازون. كانت قد تحطمت، فيما يبدو، وسط الأدغال. استعرض سبستيان الصور الواحدة تلو الأخرى. لم تكن ذات جودة عالية لأنها التقطت ربّما بهاتف نقال، لكنها كانت من الوضوح بحيث بدت لهما جليّة، أشبه بطائرة دوغولاس د. س3، المجهزة بمحركين توربينين. وهو يعرف هذا الطراز من الطائرات، إذ جمّع في طفولته نماذج مصغرة كثيرة من هذه الطائرة الشهيرة التي غدت رمزاً من رموز الحرب العالمية الثانية، وبصمت تاريخ الطيران. فقد نقلت الوحدات العسكرية إلى كل الجبهات (الهند الصينية، شمال أفريقيا، الفيتنام. . .) قبل أن تتحوّل إلى النقل المدني. كان قد صنع من هذه الناقلة القوية والبسيطة ما يقارب عشرة آلاف وحدة، استمرّ استعمالها في أميركا الجنوبية وأفريقيا وآسيا.

تضررت مقدمة الطائرة إثر سقوطها، وتكسّر جناح الموازنة في مؤخرتها، كما تشظّى زجاجها الأمامي، وتهشّم جناحاها الجانبيان، وأعاقت النباتات المتعرّشة حركة مراوحها. ولم يسلم منها غير جسمها الأوسط.

كانت الصورة الثانية مروعة، تظهر جثّتي الربان ومساعده بملابسهما المسودة بالدم، ووجهيهما اللذين كانا في حالة تحلّل متقدّمة.

نقر سبستيان ليشاهد بقيّة الصور. كانت الطائرة قد عُدّلت لتُستعمل في حمل البضائع، لذلك بدت بداخلها صناديق خشبيّة مكدّسة، وأخرى من حديد مفتوحة، مليئة بأسلحة من العيار الثقيل: بنادق هجومية وقنابل يدوية، لكن ما أثار انتباهه هي كمية الكوكايين

الهائلة: مئات الأكياس المستطيلة المغلّفة بالبلاستيك الشفاف والشرائط اللاصقة. كم وزنها؟ أربع مائة كيلوغرام؟ خمسمائة؟ يصعب تقدير حمولتها، لكن قيمة الشحنة قد تصل إلى عشرات الملايين من الدولارات.

بدت الصور اللاحقة أجلى. ذلك أنّ المصوّر هو من التقطها لنفسه بهاتفه. رجل طويل القامة، نحيف، في حوالي الثلاثين من العمر، يعلو رأسه شعر كثيف ظُفِر في شكل جدائل. وكان الابتهاج بادياً على وجهه المهزول المبلَّل بالعرق. كان جليّاً أنه لم يحلِق لحيته منذ بضعة أيّام. أمّا عيناه فكانتا متألّقتين، تغشاهما حمرة بلون الدم، وقد اتّسع بؤبؤاهما من أثر ما تناول من كوكايين. كان يحمل حقيبة ظهر، ويضع سماعتين على أذنيه، ومن حزامه تدلّت قربة ماء. الظاهر أنه لم يعثر على الطائرة صدفة.

- الطائرة على وشك الإقلاع يا سيدي. هلا تفضَّلت بوضع حزام السلامة وإطفاء الحاسوب!

رفع سبستيان بصره، وأومأ برأسه للمضيفة التي ذكّرته بقواعد السلامة.

واصل استعراض المستند باستعجال لعلّه يتعرّف على نهاية الحكاية. كانت الصفحات الأخيرة تضمّ خريطة غابة الأمازون ملتقطة من الفضاء، وإحداثيات جهاز تحديد المواقع إضافة إلى إشارات مفصَّلة عن المسلك الذي يقود إلى الطائرة.

خريطة كنز حقيقية. . .

- ها هي الخريطة التي طالبونا بها! هذا ما يبحثون عنه منذ البداية!

أخرجت نيكي هاتفها بسرعة، والتقطت بضع صور لشاشة الحاسوب: الطائرة والخريطة والرجل الغريب.

- ماذا تصنعين؟

- ينبغي أن أبعث بهذه المعلومات لكونستونس. لربّما استطاعت التعرّف على هوية أعضاء هذه العصابة.

تحرّكت الطائرة نحو مدرج الإقلاع. مرّت المضيفة من جديد، وطلبت منهما بنبرة حازمة إطفاء الهاتف. وقبل أن تمتثل نيكي لطلبها، عيّنت الصور التي التقطت، وأرسلتها عبر البريد الإلكتروني إلى كونستونس.

وبينما كان سبستيان يتجادل مع المضيفة، اغتنمت نيكي الفرصة لتضيف عنوان لورونزو سانتوس إلى قائمة المرسل إليهم.

60

لما حطّت الطائرة التي سافر على متنها لورونزو سانتوس بمدرج مطار ريو برانكو الصغير، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً. استغرق أكثر من ثلاثين ساعة لكي يصل إلى عاصمة شرق ولاية آكر. وقد كان سفراً مرهقاً على مقعد ضيق بإحدى طائرات التكلفة المنخفضة، وبين مسافرين صاخبين. وقد توقفت الطائرة مرتين: في ساوباولو وبرازيليا.

دعك عينيه بتذمّر أمام الحزام المتحرّك وهو يتأفّف من رئيس الرحلة الذي أجبره على إيداع حقيبته في مستودع الطائرة. بينما كان ينتظر متاعه، أدار هاتفه النقال ليطّلع على بريده الإلكتروني، فلاحظ وصول رسالة من نيكي. فتحها، فإذا هي فارغة. لم تكن تحتوي على نص، كلّ ما فيها قرابة عشر صور فوتوغرافية. وبينما كان الهاتف يحمّل الصور، شعر بالإثارة. تأمّل بإمعان كل واحدة من الصور. لم تكن كلّها واضحة، لكن سرعان ما بدأت تلتئم في ذهنه القطع المتناثرة، مؤكّدة بعض تخميناته. ما كان أصدق الحاسة التي قادته إلى البرازيل!

تنبّه إلى أن يديه كانتا ترتعشان قليلاً.

خليط من الإثارة والحمّى والخطر والخوف...

هذا هو المزيج المفضل لدى الشرطي.

حاول الاتّصال بنيكي، لكنه لم يجد غير المجيب الآلي. كان شبه واثق من أنّ هذه الرسالة تمثّل نداء استغاثة. لم يكد يستعيد حقيبته حتّى راح يبحث عن مدرج الطائرات المروحية. لقد بدأ مجرى الأمور يتغيّر، وبذلك سيضرب عصفورين بحجر واحد: سيحلّ أكبر قضية في مشواره المهني ويستعيد محبوبته.

كانت كونستونس في تلك الأثناء منهمكة في البحث. بدأت العمل منذ الصباح، مسخّرة كلّ إمكاناتها لمساعدة لارابي وطليقته. كانت قد حمّلت من صفحة سيمون على الفيسبوك صور فلافيا، وبعثت بها إلى كلّ معارفها في مختلف مصالح الشرطة، وحصلت على معلومات مذهلة.

شعرت باجتفاف في عينيها، فحاولت أن ترمش عدّة مرات لكي تتخلص مما تشعر به من وخز خفيف فيهما، وهي ضريبة يؤديها من يقضون ساعات طوالاً في العمل أمام شاشة الحاسوب. ألقت نظرة على ساعة حاسوبها الرقمية. كانت تشير إلى الثالثة صباحاً. قرّرت أن تمنح نفسها فسحة، فنهضت وتوجّهت إلى المطبخ لتحضير قطعة خبز مدهونة بالنوتيلا. أكلتها بالتذاذٍ وهي تجلس قبالة الحديقة، مستعيدة مع كلّ لقمة نكهات الطفولة. داعب نسيم خريفي وجهها، فأغلقت عينيها وشعرت بنوع من السكينة الداخلية لا عهد لها بها. أحسّت كما لو أنّها تخلّصت من الغضب، وتغلبّت على الجزع من الموت. سمعت حفيف الريح وهو يندفع من خلال النافذة، واستنشقت عطر الخريف الحلو المنبعث من شجرة الكاميليا. عاشت تلك اللحظة بكثافة غير معهودة وقد غمرتها طمأنينة غير معهودة.

لربّما كان ذلك عبثياً، لكنّها تخلّصت من كلّ مخاوفها، كما لو أنّ النهاية لم تعُد محتومة.

ونبّهتها رنّة الهاتف الحادّة إلى وصول رسالة إلكترونية.

فتحت عينيها وعادت إلى حاسوبها. إنّها رسالة إلكترونية من نيكي! نقرت لكي تفتح المرفقات. كانت عبارة عن صور لهيكل طائرة محطّمة وسط الأدغال، محمّلة بشحنة من السلاح ومئات الكيلوغرامات من الكوكايين، ورجل غاية في الإثارة، وخريطة غابة الأمازون...

لم ترفع كونستونس عينيها عن الشاشة طيلة الثلاث ساعات اللاحقة. بعثت بعشرات الرسائل الإلكترونية إلى كلّ معارفها لعلّها تستطيع استنطاق الصور. كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف تقريباً صباحاً حين رنّ هاتفها.

إنّها نيكي.

61

جزيرة إسمنتية في قلب غابة الأمازون.

تقع مدينة ماناوس شمال غرب البرازيل، وهي تتوسع بكيفية سرطانية في أعماق الأدغال. بلغ نيكي وسبستيان بعد ما يزيد عن أربع ساعات من الطيران باحة المطار. تجاهلا حشود سائقي سيارات الأجرة غير الشرعيين الذين كانوا يعرضون خدماتهم على المسافرين في قاعة تسليم الأمتعة، وتوجّها إلى مكاتب الشركات الرسمية لكي يحصلا على قسيمة الحجز.

كان الجو ممطراً.

عند خروجهما من المطار، خنقتهما الحرارة الاستوائية الرطبة. كان الهواء عفناً ومشبعاً بالرطوبة، وقطرات المطر تمتزج بالغبار والأبخرة الملوثة والمخلفات الزيتية، بحيث تصيب المرء بضيق في التنفس. سارا بمحاذاة صفّ سيارات الأجرة، وقدّما القسيمة إلى مستخدم الشركة الذي وجههما إلى سيارة مرسيدس 240 د أعيدت صباغتها بالأحمر والأخضر، وقد كانت سيارة موضة في سنوات السبعينيات.

كانت تفوح بداخل السيارة رائحة عطنة نفّاذة، نتانة أشبه برائحة بيض فاسد وكبريت. سارعا إلى فتح النافذة قبل أن يدلا السائق إلى

وجهتهما. إنه شاب مُولّد ذو شعر أكرت وأسنان مسوّسة، يرتدي قميصاً رياضياً بألوان فريق كرة القدم البرازيلي: الأصفر والأخضر. وكان المذياع يصدح بأنغام أغنية برازيلية محليّة تصمّ الآذان.

شغّلت نيكي هاتفها وحاولت الاتصال بفرنسا، بينما راح سبستيان يطلب بنبرة حادّة من السائق أن يخفّض صوت المذياع. بعد عدّة محاولات فاشلة للاتصال، جاءها صوت كونستونس أخيراً. أطلعتها نيكي باقتضاب على الوضع.

قالت الشرطية:

- بعد بحثٍ مضنٍ، حصلت على معلومات لا تبعث على الاطمئنان.

ردّت نيكي وهي تشغّل مكبّر الصوت حتى يتابع سبستيان المحادثة:

- ليس لدينا الكثير من الوقت.

- اصغي إليّ إذن بانتباه. بعثت بصور فلافيا إلى كلّ من أملك عناوينهم، وتلقّيت منذ ساعات مكالمة من أحد زملائي من المكتب المركزي لزجر تجارة المخدرات. تعرّف على الفتاة. أخبرني بأنّها لا تدعى فلافيا، بل صوفيا كاردوزا، وهي معروفة كذلك باسم «باربي المخدرات». إنها ابنة بابلو كاردوزا بارون المخدرات البرازيلي القوي، رئيس كارتل السيرينغييروس.

تبادلت نيكي وسبستيان نظرات مرعوبة. السيرينغييروس... لقد سبق أن سمعا هذا الاسم في «ريو».

استطردت كونستونس:

- يقبع بابلو كاردوزا منذ شهر بالسجن الفيدرالي تحت حراسة

مشدّدة. رسمياً، فُكّك الكارتيل خلال كمين نصبته لهم السلطات البرازيلية، لكن «فلافيا» تطمح فيما يبدو في استعادة مجد إمبراطورية والدها. واشتغالها كنادلة بنادي إيبانيما ليس سوى غطاء. فهي لم تقطن أبداً بالفافيلا... ورحلتكما إلى روسينها لم تكن سوى تمثيلية.

أغلقت نيكي النافذة رغم النتانة حتى تتخلّص من ضجيج المدينة. كانت الحرارة خانقة، والرطوبة والعفن يلوثان كلّ شيء. تجاور ناطحات سحاب عديمة الرونق مآثر عتيقة شاهدة على ماضي المدينة الباذخ، أيّام كانت تتربّع على سوق المطاط العالمي. الشوارع لا تزال غاصّة وصاخبة رغم الوقت المتأخر من الليل.

سألت:

- والطائرة؟

- عرضت صور طائرة DC-3 على زميلي بالمكتب المركزي لزجر تجارة المخدرات. لا يساوره شكّ في أنّها تعود للكارتيل، وأنّ شحنة المخدرات قادمة من بوليفيا. بين أربعمائة وخمسمائة كيلوغرام من الكوكايين على الأرجح بقيمة خمسين مليون دولار. ربّما تعرّضت الناقلة لعطب أدّى إلى سقوطها وسط الأدغال قبل أسبوعين أو ثلاث. لعلّ فلافيا وأعضاء الكارتيل الآخرون الذين أفلتوا من الاعتقال، يبحثون عنها بهمّة منذئذٍ.

سأل سبستيان:

- من الصعب العثور على طائرة بهذا الحجم؟

- نعم، من الصعب العثور عليها في الأمازون، بل قد يكون من المستحيل، بالنظر إلى مكان سقوطها. معظم الأماكن النائية ليست بها طرق ولا منافذ. وقد لا تكون الطائرة مزوّدة بأجهزة تحدّد

موقعها. بحثت وتوصّلت إلى أنّ الجيش البرازيلي قضى أكثر من شهر في السنة الماضية لكي يحدّد موقع طائرة تابعة للصليب الأحمر سقطت في الأدغال، بل إنّ إحدى القبائل الهندية هي التي دلّتهم على المكان.

صمتت كونستونس لبضع ثوانٍ ثمّ استأنفت:

- لكن الأمر المثير للدهشة حقّاً هي هويّة الشخص الذي عثر على الطائرة...

- لست أفهم قصدك.

- التقطت صور الطائرة بهاتف محمول. يخيّل للمرء انطلاقاً من معدّات المخيم البارزة على بعض الصور، أنّ الأمر يتعلّق بأحد المتنزّهين، وأنه عثر على الحطام صدفة. لكنني أظن أنّه كان يبحث عن الطائرة، وأنّه سبق أعضاء الكارتيل إلى الحطام. وأظنّ أيضاً أنّه كان بمفرده، لأن الصور التي ظهر فيها التقطتها يده. وبما أنّه يرتدي قميصاً عليه العلم الأميركي، خمّنت أنه ليس برازيلياً. راجعت بالصدفة قاعدة بيانات الأنتربول. لن تصدّقا النتيجة: هذا الشخص تبحث عنه شرطة نيويورك منذ خمس سنوات. غادر بروكلين بعدما حُكم عليه بمدّة سجن طويلة. اسمه: مانفيس ديكر: شقيق دريك ديكر، صاحب البوميرانغ...

تلقّى الأميركيان الخبر بذهول. كان السائق يسير في الطريق نفسه منذ أن غادرا منطقة المطار: شارع كوستانتينو نيري الذي يربط شمال غرب ماناوس بمرفئها، مروراً بوسط المدينة التاريخي.

تركوا الشارع فجأة ليسلكوا طريقاً سريعاً يفضي إلى صفّ من الأرصفة يعبرها طريق مرصوف. كان مرفأ ماناوس الذي يشرف على مياه ريو نيغرو السوداء، يمتدّ على مدى البصر.

سأل سبستيان:

- أأنت متأكدة من أنّ الشخص الذي اكتشف الطائرة هو شقيق دريك ديكر؟

ردّت كونستونس بوثوق:

- متيقّنة. نقل الصور والخريطة على لوحته الإلكترونية الآيباد قبل أن يبعث بالجهاز إلى أخيه بنيويورك. وقد أخفاها دريك بعلبة البوكر التي سرقها منه جيريمي...

سألت نيكي:

- أتعرفين أين يوجد مانفيس ديكر؟

- نعم. في المقبرة. عثر على جثته بموقف سيارات محاذٍ لمحطة كواري الطرقية، وهي مدينة صغيرة محاذية للأمازون. وحسب تقرير الشرطة، كان جسده يحمل آثار تعذيب وبتر.

- أهم رجال فلافيا؟

- بالطبع. لعلّهم حاولوا أن ينتزعوا منه موقع الطائرة.

تجاوزت سيارة الأجرة المراكب الأولى: وهي عبارة عن سفن ضخمة علّقت على ظهرها مئات الأراجيح الشبكية الملونة. ثمّ عبرت المنطقة المخصّصة لمراكب الشحن المتوجّهة إلى مختلف محطات حوض الأمازون: بيليم، إيكيتوس، بوا فيستا أو سانتاريم. ووصلت السيارة أخيراً أمام سوق شاسع يغطيه سقف حديد هائل، يعرض فيه التجار كميات كبيرة من السمك والأعشاب الطبية ولحوم الثيران وقشور الفواكه الاستوائية. كان الهواء ثخناً ومشبعاً برائحة المانيوك. سوق أمازوني ملوّن وفوضوي يعجّ بالحركة. عشرات الصيادين يزوّدون الباعة وسط الزحام، ويفرغون قشريات حيّة لا تزال تتحرّك.

وبينما كانت سيارة الأجرة تتقدّم بمحاذاة الرصيف الصدئ، دعك سبستيان جفنيه محاولاً استعادة شريط الأحداث. فبعد أن قتل رجال الكارتيل مانفيس، بعثوا بأحدهم -لعلّه الماوري- لكي يربط الاتصال بدريك ديكر. اعترف ديكر تحت التهديد بأنّ صبياً يدعى جيريمي سرق منه الآيباد. لكنّه، كما أكد ذلك سيمون، لا يعرف لقب جيريمي ولا عنوانه. كلّ ما كان يعرف عنه اسمه الشخصي وشغفه بفريق الرماة الذي كان كثيراً ما يلبس قميصه. وقد استطاعت فلافيا بواسطة صفحة الفريق على الفايسبوك أن تصل إلى جيريمي، وأن تغويه آملة أن تستقدمه والآيباد إلى البرازيل...

إنها خطّة بلهاء، ومؤامرة شاذّة ومكيافيلية.

أعلن السائق بعد أن تجاوزت السيارة المستودعات والحاويات، وبلغت مساكن عشوائية:

- Aqui é a cidade à beira do lago

كان المكان عبارة عن حي شعبي فقير، محاذٍ للمياه العكرة. وكانت مساكنه أكواخاً خشبية مرفوعة على أعمدة، ذات سقوف من الصفائح، وسط وحلٍ عفن يمكن أن تعلق فيه السيارة في أيّ لحظة.

- ينبغي أن أقفل الخط يا كونستونس، شكراً على المساعدة.

- لا تذهبا إلى هذا الموعد يا نيكي! سيكون ذلك جنوناً. أنتما لا تدركان ما يمكن أن يقدم عليه هؤلاء الرجال...

- لا خيار أمامي يا كونستونس. إنهم يحتجزون فلذتي كبدي!

صمتت كونستونس قليلاً قبل أن تعلن بحزم:

- إن أخبرتماهم بمكان سقوط الطائرة، سيسارعون إلى الإجهاز عليكم جميعاً. هذا أمر مؤكّد.

قطعت نيكي الخط حتى لا تسمع مزيداً من تحذيرات

كونستونس. نظرت إلى طليقها. هما يعيان هذه المرّة بأنّهما مقبلان على جولة لن يستطيعا ربحها.

أوقف السائق السيارة وتسلّم ثمن الرحلة، ثمّ تركهما في ذلك المكان المقفر وعاد أدراجه. بقي سبستيان ونيكي فترة طويلة وحدهما، واقفين وقد سيطر عليهما الخوف. أحال الضباب والمطر الخفيف هذه الأراضي المقفرة إلى مكان موحل تحاصره الأدغال.

طلعت عليهما من قلب الظلمة عند الساعة الثالثة سيارتا هامر ضخمتان، ووقفتا بمحاذاتهما. أفسحا الطريق مخافة أن تدوساهما، وقد أعماهما ضوؤها الساطع.

توقفت السيارتان فانفتحت الأبواب، وترجّل ثلاثة رجال يرتدون لباساً عسكرياً، ومدججون بالسلاح. محاربون تحوّلوا إلى تجارة المخدرات.

أخرجوا من إحدى السيارتين كامي وجيريمي بطريقة فظّة، مقيّدين ومكمّمين، وصوَّبوا نحوهما بنادقهم. ما كاد سبستيان ونيكي يبصران ابنيهما حتى انتابَهما ذعر داهم، وأخذ قلباهما يخفقان بشدّة. ها هما يعثران على ابنيهما على قيد الحياة بعد مشقّة وعنت. ولكن حتّى متى؟

أخيراً صفقت باب الهامر امرأة رشيقة شقراء، وانتصبت باعتداد أمام أضواء السيارة. إنها صوفيا كاردوزا ألياس «باربي المخدرات» أو فلافيا.

62

جذابة ومتوثّبة ورشيقة.

لاح طيف فلافيا الممشوق في ضوء السيارتين وسط الرذاذ.

صاحت بهما:

- لديكما شيء في ملكيّتي.

ظلّ سبستيان ونيكي، وهما على بعد بضعة أمتار منها، صامتين ومتسمّرين في مكانهما، ولمع بين يدي المرأة البرازيلية مسدّس أوتوماتيكي. أمسكت بشعر كامي، ووضعت فوهته على صدغها.

- هيّا، سلّما لي تلك الخريطة اللعينة!

تقدم سبستيان خطوة، باحثاً بعينيه عن ابنته لعلّه يطمئنها. رأى وجهها شاحباً من شدّة الخوف. قال يستعجل طليقته بصوت خافت:

- سلميها الآيباد يا نيكي.

وهبّت على المكان ريح عاصفة مشبعة بالمطر.

قالت فلافيا بنفاد صبر:

- كونا حكيمين. سلّماني الخريطة، وسأترككم تعودون جميعاً إلى الولايات المتّحدة فوراً!

كان العرض مغرياً، لكنّه كاذب. ما زال تحذير كونستونس

يتردّد في ذهن نيكي: «إن أخبرتماهم بمكان سقوط الطائرة، سيسارعون إلى الإجهاز عليكم جميعاً. هذا أمر مؤكّد».

كان عليهما أن يربحا الوقت مهما كلّف الثمن.

صاحت نيكي:

- ليست معي.

وخيّم صمت مكهرب.

- كيف ليست معك؟

- تخلّصت منها.

سألت فلافيا:

- لماذا خاطرتِ بالتخلّص منها؟

- إذا سلّمناك الخريطة، لن تعود لك مصلحة في حياتنا.

تصلّبت أسارير وجه فلافيا، فأومأت برأسها إلى رجالها بأن يفتشوا الأميركيين. ارتمى عليهما ثلاثة رجال وراحوا يفتشون جيوبهما وملابسهما بلا طائل.

قالت نيكي وهي تحاول أن تداري خوفها:

- أعرف مكان تحطّم الطائرة. أنا الوحيدة مَن تستطيع أن تدلّكم عليه.

تردّدت فلافيا. فهي لم تضع في اعتبارها أثناء وضع خطتها أن تصطحب معها رهائن، لكن هل لديها خيار آخر؟

فقد حسبت قبل أسبوعين أنّها ستنتزع اعترافات من مانفيس بالتعذيب، لكنه مات من دون أن تحصل منه على مرادها. وبسبب ذلك تجد نفسها الآن في مأزق. نظرت إلى ساعتها وهي تحاول أن تحافظ على هدوئها. سيصل العدّ التنازلي إلى نهايته قريباً. فكلّ لحظة تضيّعها تزيد من حظوظ الشرطة في العثور على الطائرة.

صاحت برجالها:

- Leva-los!

وبحركة واحدة، ساق الرجال أفراد أسرة لارابي نحو السيارتين. قذفوا بنيكي وسبستيان بفظاظة في مؤخرة إحداهما، بينما احتجزوا جيريمي وكامي في السيارة الأخرى، ثمّ غادروا المرفأ بالسرعة نفسها التي حلّوا بها.

ساروا باتجاه الشرق لمدّة نصف ساعة تقريباً. كان الموكب يتقدّم في الظلام، قاطعاً طرقاً مقفرة قبل أن يتوغّل في طريق موحل مجاور لإحدى البرك، يفضي إلى مساحة شاسعة تجثم فيها طائرة مروحية ضخمة.

كان ثمّة من ينتظر وصول أفراد العصابة ورهائنهم. وبمجرد ما ترجّلوا شغّل ربان الطائرة محرّكها. وأجبر أفراد أسرة لارابي على الصعود تحت تهديد البنادق، تتبعهم فلافيا ورجالها.

وضعت المرأة خوذة على رأسها وجلست في المقعد المخصّص لمساعد الطيار، ثمّ أمرت:

- Tiramos!

حرّك الطيار رأسه موافِقاً، ووجّه الطائرة مقابل اتجاه الرياح، ثمّ شرع في الإقلاع. انتظرت فلافيا إلى أن زادت سرعة الطائرة لكي تلتفت إلى نيكي، وتسألها:

- أيّ وجهة نقصد؟

- باتجاه تيفي.

تفرّست فلافيا نيكي وأجهدت نفسها لكي تبدو هادئة، لكن بريق عينيها فضح نفاد صبرها وسخطها. إلا أن نيكي لم تضف شيئاً.

طيلة الرحلة بين ريو وماناوس، درست نيكي الخريطة والطريق

التي تقود إلى حطام الطائرة المحمّلة بالكوكايين. قسمت المسافة ذهنياً إلى مراحل عديدة.

لم يجد سبستيان في مؤخرة الطائرة سبيلاً للاتصال بابنه وابنته. ذلك أنّ الحراس الثلاثة جلسوا بحيث يمنعون التواصل، بل حتى النظر بين الرهائن.

خلال الساعة الثانية من الرحلة، بدأ سبستيان يشعر بالأعراض الأولى: نوبة من الحمى وشعور بالغثيان وآلام في الساقين. شعر بعموده الفقري يتجمّد من البرد، وبرقبته تتصلّب وبصداع شديد.

أهي إنفلونزا استوائية؟ تذكّر البعوض الذي نهشه في الفافيلا. فهو ينقل حمى الضنك، لكن مدّة الحضانة بدت له قصيرة. لعلّها الطائرة إذن؟ تذكّر أنّ مسافراً كان جالساً أمامه في الطائرة التي أقلته من باريس إلى ريو، كان في حالة صحية سيئة. ظلّ طيلة الرحلة يرتعش تحت الأغطية. لعلّه أصابه بعدوى مقيتة...

مع أن هذا الوقت ليس وقت مرض.

لكنه لا يستطيع شيئاً مع الحمى. انكمش على نفسه وراح يحك أضلاعه ليستدفئ ويتمنّى ألا تسوء حاله أكثر.

تبعد تيفي عن ماناوس بما يزيد عن خمسمائة كيلومتر، وهي مسافة قطعتها الطائرة المروحية في أقل من ثلاث ساعات، محلّقة فوق بحر شاسع من الأشجار الكثيفة يمتدّ على مدى البصر. وقد فرضت فلافيا على نيكي أن تظلّ قريبة من مقعد القيادة حتّى تتابع معها تقدّم الطائرة على الشاشة.

قالت تاجرة المخدرات لنيكي بينما كانت الشمس تبزغ في سماء امتزج فيها اللون الوردي بالأزرق:

- والآن؟

شمّرت نيكي عن ساعدها. كانت قد كتبت بالقلم على مرفقها سلسلة أرقام وحروف:

S 4 3 21

W 64 48 30

لقد استوعبت درس سبستيان جيداً في تسجيل معالم نقطة جغرافية معينة: خطوط الطول والعرض، ثم الدرجات والدقائق والثواني.

طلبت فلافيا من الطيار أن يُدخل المعطيات في جهاز الملاحة.

حلّقت الطائرة لنصف ساعة أخرى قبل أن تحطّ وسط الغابة في فسحة جرداء.

ترجّل جميع مَن في الطائرة بسرعة، وتسلّح الرجال بالسواطير والقِرب وحقائب ظهر ثقيلة. قيّدوا أيدي الرهائن إلى الأمام بأصفاد بلاستيكية، وعلقوا في حزام كلّ منهم قربة، وانطلقوا يشقون طريقهم في الأدغال.

63

سأل جيريمي أباه بقلق:

- هل ثمّة مشكلة يا بابا؟

ردّ سبستيان بغمزة مطمئنة، لكن جيريمي لم يقتنع. رأى أباه يتصبّب عرقاً وهو يرتعش من الحمى، تغطي وجهه وعنقه بقع حمراء.

لقد مضت ساعتان وهم يتقدّمون في الأدغال بمشقّة بالغة، يسبقهم رجلان من العصابة يفسحان لهم الطريق، بينما يصوّب الثالث عليهم سلاحه. كانت نيكي تسير في مؤخرة الموكب تحت تهديد فلافيا. ذلك أنّها أمدّتها بمعلومات جديدة عن الموقع، أدخلتها توّاً إلى جهاز تحديد المواقع. وقد اغتنمت فرصة قربها من فلافيا لكي تسترق النظر إلى الجهاز، وتتابع بذلك تقدّم الجماعة على الشاشة. ما زالت، حسب الخريطة التي درست في الطائرة، تفصلهم عن الحطام كيلومترات عديدة.

هم الآن في مكان قصي موحش، داخلِ متاهة من النباتات والأشجار الكثيفة، تحدق بهم الأخطار من كل جانب. كان عليهم أن يتجنّبوا جذوع الأشجار وجذورها والحفر المليئة بالمياه، وأن

يتلافوا لدغات الثعابين والعناكب. كما كان عليهم أن يتحمّلوا التعب والحرارة وجحافل البعوض الذي لم يكن اللباس يحمي من لسعاته.

كانوا كلّما تقدموا، زادت ضراوة النباتات وكثافتها. تهتزّ الغابة وتمور وتضجّ كَمِرجل جهنّمي. والهواء مشبع بسخونة تفوح بروائح التراب العفن.

وبينما كانوا يعبرون نفقاً تحت الأغصان، بدأ يسقط على الأدغال وابل من المطر الاستوائي، لكن فلافيا رفضت التوقّف. ظلّت الأمطار تهطل لمدة عشرين دقيقة، غامرة الأرض بالمياه، وجاعلة السير أشقّ.

بعد خمس ساعات من المشي، توقفوا عند الزوال للاستراحة. ترنّح سبستيان، وظنّ أنه سيغمى عليه. زاد شعوره بالاختناق بسبب الرطوبة الشديدة والحمى. شرب كلّ ما معه من ماء وما زال يموت من العطش. انتبهت كامي لذلك، فناولته قربتها، لكنّه رفض.

استند إلى جذع شجرة ونهض لكي يتطلع إلى رؤوس الأشجار التي يزيد ارتفاعها عن أربعين متراً. بدت له السماء من خلال الفجوات بين الأغصان في غمرة هذيانه مطمئنة، وتهيّأت له كقطعة من الجنّة. . .

شعر فجأة بحكّة شديدة: تسلقت مستوطنة من النمل الأحمر ذراعه، ونفذت إلى جسمه من خلال كمّ قميصه. حاول التخلّص منها بالاحتكاك بجذع شجرة، فانسحقت تلك الحشرات الصغيرة تحت الضغط مخلفة سائلاً أحمر.

اقترب منه أحد الحراس، ورفع ساطوره، فذعر سبستيان ذعراً شديداً، وانكمش على نفسه. أهوى الرجل على الشجرة، ثمّ أشار لسبستيان بأن يذوق نسغها. كان الجذع يسيل بسائل لزج أبيض ذي

طعم شبيه بطعم جوز الهند. قطع الحارس الفرع حتى يسمح له بملء قربته.

مشوا ساعة أخرى قبل أن يبلغوا المكان الذي أشّر عليه مانفيس ديكر على الخريطة.

لا شيء.

لا يوجد شيء لافت في هذا المكان.

كل ما هنالك أشجار متشابكة.

تدرجات اللون الأخضر تمتدّ إلى ما لا نهاية.

صاحت فلافيا:

- Você acha que eu sou um idiota!

فردّت نيكي مدافعة:

- ينبغي أن يكون في هذا المكان نهر!

تأكّدت نيكي بقلق من الإحداثيات على شاشة جهاز تحديد المواقع. وقد كان يشتغل على الشكل الأمثل رغم وجودهم تحت الأشجار. كان ثمّة وامضٌ يشير إلى أن استقبال إشارة القمر الاصطناعي جيدة. فما مصدر المشكلة إذن؟

تفرّست المحيط. كان ثمّة طيور ذات ريش أزرق أشبه بببغاوات تزقزق، ومجموعة من حيوان الكسلان تبحث عن أغصان مشمسة لكي تجفِّف فراءها بعد أن بلَّلها المطر. وفجأة أبصرت نيكي جذعاً معلّماً بسهم. ذلك أنّ مانفيس كان قد قطع الشجرة بساطوره حتى يعلّم طريقه! أمرت فلافيا المجموعة بتغيير الوجهة. مشوا لعشر دقائق أخرى تقريباً قبل أن يصلوا إلى سيل موحل.

رغم جفاف الموسم، لم يكن مستوى الماء منخفضاً بحيث يسمح بعبور السيل على الأقدام. ساروا بمحاذاته صاعدين باتجاه

الشمال وهم يراقبون التماسيح الاستوائية الطافية على السطح بلا حراك. فرغم أنّ ضفتي النهر كانتا مدغلتين، لم تكن النباتات في كثافة الأماكن التي عبروها من قبل، وهو ما سهّل تقدّمهم إلى أن بلغوا جسراً معلّقاً. كان عبارة عن أعراش سميكة شُدّت إلى جذوع الأشجار. من أنشأ هذا الجسر؟ أهو مانفيس؟ من غير الراجح أن يكون هو، لأن إنشاءه يتطلّب وقتاً طويلاً. ربّما أنشأه الهنود.

كانت فلافيا هي أوّل من امتطى الجسر، ثمّ تبعها بحذر بقية أعضاء المجموعة واحداً إثر الآخر. كان الجسر يترنّح على ارتفاع عشرة أمتار تقريباً فوق النهر. وكان كلّما انضاف أحدهم، فرقعت الأعراش الهشّة، مهدّدة بالانهيار. وبعدما اجتازوا هذا العائق، مشوا ما يزيد عن الساعة، متوغلين من جديد في الأدغال إلى أن بلغوا فجوة ينفذ منها الضوء، وهي من الأماكن النادرة التي تصل فيها أشعة الشمس إلى الأرض في الغابة.

أعلنت نيكي:

- هذا هو المكان. فحسب الخريطة، يوجد حطام الطائرة على بعد أقل من ثلاثمائة متر في فرجة تقع باتجاه الشمال الشرقي.

صاح الحارس وهو يشير إلى شجرة أخرى نقش عليها سهم:

- Siga a seta!

أمرت فلافيا وهي تشهر مسدسها:

- Vamos com cuidado!

لا شيء كان يوحي بأنّ المكان حاشد بالبوليس، لكن منذ اعتقال أبيها صارت تشكّ في كل شيء. تقدّمت الموكب ناصحة رجالها بتوخّي أقصى درجات الحذر.

وجد سبستيان صعوبة كبيرة في قطع الأمتار القليلة المتبقيّة.

كانت عيناه تلتصقان، وأنفه ينزف. كما أنه كان يرتعش ويتصبّب عرقاً. كان يشعر بصداع شديد إلى حدّ أنه لم يعُد قادراً على المقاومة فانهار وسقط على ركبتيه.

صاحَ به أحد الحراس:

- Levante-se!

مسح سبستيان العرق عن وجهه وقام بمشقّة كبيرة. شرب بضع جرعات من قربته وهو يجيل بصره بحثاً عن نيكي وابنيه. أظلمت الدنيا في عينيه، لكنه كان يستطيع تمييز أفراد أسرته الذين تجمّعوا تحت تهديد حراس فلافيا.

بينما كان جيريمي يومئ لأبيه، بهره ضوء لامع. كان ثمة شيء نصف مدفون تحت النباتات، شديد اللمعان. التقطه الطفل بيديه المقيّدتين من دون أن يلاحظه أحد. كان عبارة عن ولاعة من الذهب الأبيض مغلّفة بالجلد. لاحظ وهو يتفحّص إطارها أنّه كتب عليها حرفا: ل. س.

لورونزو سانتوس...

إنها الولاعة التي أهدتها أمّه لسانتوس! أدخلها في جيبه وهو يتساءل كيف وصلت إلى هذا المكان في قلب الأدغال.

ثمّ استأنفوا المشي متقدّمين في الطريق الذي شقه مانفيس ديكر بين النباتات قبل بضعة أسابيع.

بعد عشر دقائق من المشي، ضربت فلافيا بساطورها مزيحة آخر غصن. ولاحَ لهم حطام طائرة ضخمة.

64

تقدَّموا بحذر.

لاحَ هيكل طائرة يزيد طولها عن عشرين متراً، لامعة تحت النباتات. كانت عجلات الهبوط قد تحطمّت بسبب قوة الاصطدام، وتهشمت مقصورة الطيار عند ارتطامها بجذع شجرة ضخمة. تحوّلت إلى حطام سيأكله الصدأ قريباً.

لكنها تخفي في بطنها خمسين مليون دولار.

وأخيراً عثروا على المخدرات...

لاحت على وجه فلافيا ابتسامة خبيثة. شعرت بهدوء عميق. لقد عثرت أخيراً على الكوكايين، والملايين التي ستجنيها من بيعها ستسمح لها ببعث كارتيل السيرانغييروس! لم تتحمّل كلّ هذا العناء من أجل المال، بل من أجل إنقاذ شرف الأسرة. ذلك أنّ أباها بابلو كاردوزا لم يعوّل عليها يوماً، ولم يكن يلهج إلا باسمي أخويها الأبلهين اللذين يمضيان ما تبقى من حياتهما في السجن. هي وحدها تملك ما يلزم من دهاء لكي تفلت من قبضة البوليس، وما يكفي من الذكاء لكي تعثر على الطائرة. كانوا يلقبون أباها بالإمبراطور. من الآن فصاعداً ستكون هي الإمبراطورة! ستتربّع على إمبراطورية تمتدّ

من ريو إلى بيونيس إيريس مروراً بكراكاس وبوغوتا . . .

كسرت طلقتان صمت الأدغال الرطب، فأخرجت فلافيا فجأة من أحلامها الباذخة. خرّ الحارسان اللذان كانا يتقدّمان الموكب على الأرض من دون أن يتمكّنا من القيام بأدنى حركة. أصابت كلاً منهما رصاصة في الرأس. ذلك أنّ قناصاً مختبئاً داخل هيكل الطائرة أطلق الرصاصتين من إحدى نوافذها، ثم أطلق رصاصة ثالثة كادت تصيب فلافيا، لولا أنها ارتمت على الأرض لكي تلتقط رشاش أحد الحراس. ارتمى أفراد أسرة لارابي بدورهم على الأرض، وانكمشوا على أنفسهم مخافة أن تصيبهم رصاصة طائشة.

كان الرّد في منتهى العنف. فقد صبّت فلافيا وحارسها وابلاً من الرصاص على هيكل الطائرة. تطاير من فوهات البنادق شررٌ وألسنة لهب، ولعلع الرصاص من كلّ جانب محدثاً ضجّة تصمّ الآذان.

ثمّ خيّم الصمت.

قال الحارس بوثوق:

- Eu matei ele![1]

لابس فلافيا شكّ فيما يقول، أما الحارس فتسلّل بحذر ليصل إلى باب الطائرة المشرع في جانب هيكلها، وما هي إلا ثوانٍ حتّى خرج مبتهجاً وهو يعلن بنبرة ظافرة:

- Ele esta morto!

جمعت فلافيا أفراد أسرة لارابي وقد صوَّبت عليهم فوهة رشاشها، وأمرت حارسها بإيماءة بيدها:

---

(1) قتلته!

- Matá-los![1]

- Todos os quatro?[2]

قالت وهي تدخل بدورها إلى هيكل الطائرة:

- Sim, se apresse![3]

أخرج الحارس مسدّساً من غمده، ولقمه. لم تكن تلك كما يبدو أوّل مرّة ينفذ مثل هذه العملية. أمر الرهائن الأربعة: سبستيان ونيكي وكامي وجيريمي، بأن يركعوا جنباً إلى جنب وسط النباتات...

وضع فوهة المسدس الباردة على رقبة جيريمي الذي راح يرتعش ويتصبّب عرقاً من الفزع. أخذ ينتحب بسبب شعوره بالذنب ممّا اقترف. سعى إلى جمع شمل والديه، لكن مثاليته الساذجة قادت الأسرة بكاملها إلى هذه المصيبة. فبسبب أخطائه ستلقى أخته وأبوه وأمه حتفهم. خنقته العبرات.

لمّا وضع الحارس أصبعه على الزناد، قال جيريمي بصوت متهدّج:

- سامحوني!

---

(1) اقتلهم!

(2) أأقتل الأربعة؟

(3) نعم، بسرعة.

65

تقدّمت فلافيا متوغّلة في قمرة الطائرة. كان الممرّ يفوح برائحة البارود والدبال والبنزين والموت. راحت تتجوّل بين صناديق الكوكايين محاولة شقّ طريقها داخل الممرّ إلى أن بلغت جثّة سانتوس. كانت مثقبة بالرصاص، ينزف من فمه سيل من الدم الأسود السميك. نظرت إليه فلافيا بقرف وهي تتساءل عن هويته، وكيف استطاع العثور على موقع الطائرة قبلها. قرفصت، وتغلّبت على اشمئزازها وراحت تفتش جيوب سترته الداخلية. كانت تبحث عن حافظة أوراقه، لكنّها عثرت على غمد من الجلد يحمل شارة شرطة نيويورك.

همّت بالوقوف وقد تملّكها القلق حين أبصرت السوار المعدني المحيط بمعصم الشرطي الأيمن.

أصفاد؟

فات الأوان. فتح سانتوس عينيه في محاولة أخيرة، وأمسك بمعصم فلافيا وأدخله في السوار الثاني، ثم أغلقه بسرعة.

حاولت الشابة البرازيلية وقد تملّكها الرعب أن تحرّر يدها، لكنّها ألفت نفسها مقيّدة. صاحت بحارسها تستغيث:

- Aurélio! Salva-me![1]

لمّا سمع الحارس استغاثة «باربي المخدرات»، وبينما كان يهمّ بإطلاق النار على جيريمي، تسمّر في مكانه، لكنه ما لبث أن ترك رهائنه ليهبّ إلى داخل الطائرة. عبر الممر وبلغ المكان الذي كانت فيه فلافيا، فبادرته:

- Me livre![2]

أدرك أوريليو ما يمكن أن يكسبه من هذا الموقف. شعّت في عينيه التماعة مجنونة. يستطيع الاستئثار بالغنيمة! بالمخدرات وبملايين الدولارات، بالسلطة والتقدير، وأن يعيش حياة هانئة...

رفع فوهة رشاشه، ووضعها على جبين فلافيا، وهمس قبل أن يطلق النار:

- Sinto muito[3]

غطى عنف الانفجار على صوت باب الهيكل الذي أغلقه سبستيان. التفت نحو نيكي، وأومأ لها برأسه بأن تأخذ الطفلين إلى مكان آمن، ثمّ أشعل ولاعة سانتوس وألقى بها من النافذة داخل الطائرة.

ذلك أن وابل الرصاص الذي أطلق على الهيكل ثقب خزان الوقود، مما أدى إلى اشتعال النيران على نحو سريع. تصاعدت ألسنة اللهب عالياً في الهواء، ثم انفجرت الطائرة كقنبلة عظيمة.

---

(1) أنقذني يا أوريليو!

(2) حرّرني!

(3) آسف!

بعد مرور سنتين

كل شيء شرع بالدم.
كل شيء انتهى بالدم.

الصراخ.
العنف.
الخوف.
الألم.

مضت ساعات على بداية حصة التعذيب، لكنّ الزمن كان يتمدّد مبيداً المعالم كما يحدث في هذيان محموم.

فتحت نيكي عينيها وهي في منتهى التعب، متوتّرة ولاهثة، وبذلت جهداً لكي تلتقط أنفاسها.

شعرت وهي مضطجعة على ظهرها بالحرارة تسري في بشرتها، وبقلبها يخفق بشدة في صدرها، وبالعرق يبلّل وجهها.

كان الدم ينبض في صدغيها، ضاغطاً على جمجمتها، ومشوّشاً على بصرها. ميّزت في ضوء النيون الغامر مُزق صور مرعبة: حُقنٌ وأدوات معدنية، وجلادون مقنّعون يعملون بصمت في عجلة من أمرهم وهم يتبادلون النظرات.

اختلجت بطنها فهزّت أحشاءها حركة عنيفة. كبتت صرخة وهي على حافة الاختناق. كانت بحاجة إلى الراحة والأكسجين، لكن عليها الآن أن تقاوم حتّى النهاية.

تمسّكت بالمساند وهي تتساءل كيف استحملت الصدمة في المرّة الأولى قبل سبعة عشر عاماً. وبجانبها كان سبستيان يردّد عبارات مواسية، لكنها لم تكن تسمعها.

تمزّق الكيس المحيط بالجنين، وأخذ إيقاع التقلصات يتزايد ويشتدّ. أوقف طبيب التوليد ضخّ الأوكسيتوسين ووضع يده على بطنها. ساعدتها المولّدة على التقاط أنفاسها، وذكّرتها بضرورة وقف تنفّسها عندما تشعر بالتقلص. انتظرت ريثما مرّ الألم، ثمّ دفعت بكلّ ما أوتيت من قوّة. أخذ الطبيب يسحب رأس الصبي شيئاً فشيئاً، ثمّ كتفيه فبقية جسمه.

وبينما كان الوليد يرسل صرخاته الأولى، ارتسمت على وجه سبستيان ابتسامة عريضة، وراح يشدّ على يد زوجته.

ألقى الطبيب نظرة على جهاز المراقبة، ليرى ما إذا كان إيقاع دقات نيكي عادياً، ثم انحنى ليتأكد من أنّ رأس التوأم نحو الأسفل، وتأهّب للولادة الثانية.

شكر

الشكر موصول لأنغريد على أفكارها ومشاركتها ودعمها.

غيوم ميسو

بعد 7 سنوات...

فرّقهما الطلاق... فوحّدهما الخطر.

بعد طلاق عاصف بين سبستيان ونيكي، استأنف كل منهما حياته بعيداً عن الآخر، إلى أن اختفى ابنهما جيريمي في ظروف غامضة. أهو فرار؟ أهو اختطاف؟

لكي تنقذ نيكي ابنها، لم تجد خياراً سوى اللجوء إلى طليقها الذي لم تره منذ سبع سنوات. اتحدا مرغَمَين، وانخرطا في مطاردة بعثت الألفة بينهما، ألفة اعتقدا أنها فُقدت إلى الأبد...

رحلة تسافر بالقارئ من نيويورك إلى ساوباولو مروراً بشوارع باريس.

زوجان مغامران يجدان نفسيهما في مأزق خانق.

قصة مثيرة، غنية بالمفاجآت، تجمع بين التشويق والرومانسية.

❖ ❖ ❖

«إنها رواية رائعة، يحبس التشويق والحب فيها أنفاس القارئ على مدى 400 صفحة».

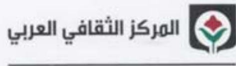
إذاعة وتلفزيون سويسرا

«إنها حكاية لمّ شمل أسرة صيغت في قصة مذهلة. نجح غيوم ميسو في إدهاش القارئ منذ أول صفحة حتى آخر صفحة في الرواية».

جريدة ميترو

«يقدم ميسو في هذا العمل مزيداً من التشويق والإثارة. قصة كُتبت بنفحة هتشكوكية بالغة الإتقان».

جريدة فرانس سوار



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



ISBN 978-9953-68-780-3
9 789953 687803